أعلام العرب

٨٢

أبو جعفر المنصور

تأليف : على أدهم

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

فرع مصر — ١٩٦٩

مقـــدمة

فى النفس الانسانية ميل غريزى الى الاعجاب بالبطولة ، وتقدير العظمة ، وهذا الميل الطبيعى يحدونا على الاشادة بالأبطال والعظماء الذين يقومون بالأعمال التى يعجز غيرهم عن الاتيان بمثلها ، ونحن نعد من العظماء والأبطال هؤلاء الرجال الذين تســـيطر جهودهم ، وتؤثر مناشطهم ، فى مختلف نواحى حياتنا ، ولا نستطيع أن نتصور الحياة بغير وجودهم .

وقد تمر فى تاريخ الأبطال والعظماء فترات يكون نصيبهم فيها من الغمط والكراهة أكثر من حظهم من الانصاف والتقدير ، ولكننا برغم ذلك لا نستطيع أن نتابع تطورات الحياة ، وحركات التقدم ، بغير تقدير مواقفهم ، والاشارة الى أعمالهم .

وقد يستنكر الروسيون بعض أعمال بطرس الأكبر ، ويأخذون عليه شدته المتناهية وعنفه البالغ ، ولكن المؤرخ الروسى لا يستطيع أن يتصور تاريخ روسيا خاليا من تأثير بطرس الأكبر ، وحسن بلائه فى نقل روسيا من حالة شبيهة بالحالة البدائية الى المستوى الذى جعلها قادرة على اللحاق بركب الحضارة ، والسير فى طريق التقدم ، ولا يستطيع المؤرخ الفرنسى أن يغفل الفترة التى سيطر فيها نابليون الأول على مصير فرنسا ، وتأثيرها البعيد المدى فى تاريخ أوروبا والعالم بوجه عام ، مهما يكن مخالفا له فى بعض اتجاهاته الســـياسية ، ومغامراته الحربية .

وقد نلحق بالعظماء بعض الذين قاموا بأعمال هائلة ، وأحدثوا في عصرهم دويا ، ولكن هذه الأعمال لم تفد الانسانية ، وفى هذا حسب ما أرى لون من ألوان الخلط بين تقدير العظمة وتقدير القوة ،ورجل مثل تيمورلنك لا نزاع في أنه كان قويا صارما جبارا ، وقائدا للجيوش بارعا ، ولكن يتردد الانسان كثيرا قبل أن يصفه بأنه كان عظيما ، والذين لا يبنون شيئا ، ويمرون بالدنيا مرور العواصف المدمرة ، ويتركون العالم بعدهم أسوأ مما كان قبلهم لا يستحقون أن نخلع عليهم برد العظمة ، ونحبوهم بلقب البطولة ، والقوة الروحية والامتياز الفكرى هما أساس العظمة والبطولة الصادقة، وفى بعض الأحيان نعد القوة الأخلاقية معيار العظمة ، وفى أوقات أخرى نعتمد فى تقدير العظمة على الشعور الخفى والاحساس الباطنى .

والرجل العظيم كما يبدو لى هو الرجل الفذ الذى لا يستطيع أحد من الناس العاديين أن يملأ مكانه ، ويقوم مقامه ، وهو رجل نشعر بأن الدنيا بدون وجوده كان ينقصها شىء هام ، وذلك لأن شيئا خاصا هاما أمكن حدوثه على يديه فى الزمان والمكان ، وبدون وجوده لا نتصور حدوث هذا الشىء الهام ، وهو من ثم له مكانته المرموقة فى سلسلة الأسباب والمسببات التى أدت الى وقوع هذا الحادث .

والرجل الفذ الذى لا يسد مسده أحد هو صاحب العقل الراجح، والشخصية المنيفة ، والقوة الأخلاقية الموجهة الى هدف معين ، مثل النهوض بأمة متخلفة أو السمو بحضارة من الحضارات ، أو الوصول الى نتائج علمية باهرة تعود على الانسانية بالخير ، وتمكن لها فى هذه الأرض ، وتجنبها الكثير من المتاعب والآلام ، وتظهر العظمة فى مظاهر مختلفة فهى تبدو فى صورة العلماء الأفذاذ ، والمكتشفين الكبار ، والفلاسفة والحكماء ، والمصلحين والقادة والزعماء ، وقد عنيت الأمم بأخبار رجالها العظماء ، وعملت على احياء ذكراهم ، والاحتفاظ

بآثارهم ، وعدتهم من النفائس والأعلاق التى تمتلكها ، وأقامت لهم التماثيل ، وربما كنا فى العصر الحاضر أقدر على تقدير العظمة من العصور السالفة ، لأن سهولة المواصلات ، وتبادل العلاقات بين الأمم المختلفة ، واتساع نطاق الدراسات التاريخية ، والالمام بألوان الثقافات والحضارات والعقائد والأديان ، جعل انسان العصر الحاضر أقرب الى صحة الوزن والتقدير ، وأقل تعرضا لنوبات التعصب وأنأى عن التأثير بالخلافات الدينية والمذهبية والجنسية التى كانت فى كثير من الحالات تعترض تقديرنا للعظماء والأبطال .

ويرى بعض الذين يحاولون انكار فضل العظماء وتأثيرهم البعيد المدى في الحركة التاريخية أن الانسانية كانت ستصل الى ما بلغته من المستويات بدونهم ، وهم يقولون ان الفنانين والشعراء قد لا نجد من يحل محلهم ، ويقوم بما قاموا به ، ولكن المخترعين والمكتشفين ليسوا عظماء ، لأن غيرهم كان يمكن أن يصل الى ما وصلوا اليه ، أى أن يحل محلهم ، فأمريكا مثلا كانت ستكتشف ولو لم يوجد كريستوف كولومب ، ولكن فى هذا الرأى نوع من التجنى على العظماء ، فعظمة كريستوف كولومب وأمثاله هى فى أنهم عرفوا ما يتطلع اليه العصر ، واستطاعوا بعزيمتهم وسداد رأيهم أن يلبوا مطالبه ، سواء فى الكشوف الجغرافية ، أو الكشوف العملية ، أو خالق الآيات الفنية ، والعظيم يرى شيئين بوضوح : الموقف الحقيقى الواقعى ، والوسيلة التى يمكن أن يملكها لتحقيق ما يتطلبه الموقف ، فهو لا يسمح للمظاهر أن تخدعه ، أو تحد من عزيمته ، والعظماء يمتازون على الدوام بقوة الارادة ، والقدرة على اختيار الوقت الملائم للعمل ، والانسانية مدينة للعظماء فى شتى المجالات والميادين .

ويمكن أن نفرق فى الحياة والتاريخ بين نوعين من الرجال البارزين ، والأعيان المشهورين ، النوع الأول هم الرجال الذين

صنعوا التاريخ ، وأثروا في سير الحوادث بقوة شخصيتهم ، ومضاء عزيمتهم ، ورجاحة تفكيرهم ، وحسن ادراكهم لطبيعة الأحوال التى عرضت لهم ، واهتدائهم الى الوسائل الصحيحة فى علاجها وتناولها •

والنوع الثانى هم الرجال الذين صنعتهم الظروف ، وخلقتهم المصادفات ، وجعلت منهم أشباه الأبطال ، ونظائر العظماء •

وليس التفريق بين هذين النوعين من الرجال سهلا هينا فى كل الظروف ، والسبب فى ذلك أن الناس فى كثير من الأوقات لا تتفق على نسبة الأهمية الى حادثة من الحوادث أو عمل من الأعمال أو شخص من الأشخاص ، وبعض الرجال عاونتهم الظروف ، وناصرتهم الحوادث ، ولكنهم فى الوقت نفسه استطاعوا بقوة ارادتهم وحسن تأنيهم أن يسيطروا على الحوادث ، وأن يكونوا قوة موجهة لها أثرها البارز ، أى أنهم كانوا من خلق الظروف الى حد ما ، وكانوا كذلك من خالقى الظروف وصانعى الحوادث الى حد أبعد مدى ، وكلا الرجلين ، الرجل الذى يصنع الحوادث والرجل الذى تصنعه الحوادث يظهر فى مراحل التاريخ البارزة واستهلالاته الملحوظة ، فمجال عملهما قد أعد من قبل ، ولم تبق الا مرحلة التنفيذ مثل اصدار أمر أو اذاعة منشور ، أو بت سريع فى الاختيار النهائى •

على أن الرجل الذى يصنع الحوادث يجد التمهيد ناقصا فيستكمله ، ويبذل فى سبيله ذلك جهدا ينم على تفوقه ، ويدل على أنه من الرجال الموجهين ، أما الرجل الذى تصنعه الحوادث فانه يجد الأمور مطاوعة مذللة ، فما عليه الا أن يتقدم الخطوة الأخيرة ليبلغ الهدف ، ويحقق الغاية ، ويجنى الثمرة ، وقيامه بهذا العمل لا يدل على سبق وامتياز ، ولا على صفات نادرة أو مزايا باهرة ، وصانع الحوادث قد يكون من أعماله على أقل تقدير أن يخلى الطريق من

منافسيه الأقوياء ، واصطناع السياسة فى كسب الأنصار والاستكثار من الأعوان ، وتتجلى خلال ذلك براعته فى القيـــادة وقدرته فى سياسة الأمور ومواجهة الحوادث .

وكانت هناك طريقة لتقويم الأخلاق ترمى الى محاولة تصوير القدماء أمثلة للفضيلة ونماذج للكمال ، وخلع الصفات المجيدة عليهم ، وكان يفضل هذا الأسلوب فى النقد على النقد المباشر ، لأن النقد غير المباشر كان فى رأى القائلين بهذا المذهب أشد تأثيرا فى النفس من النقد المباشر ، فهو يكشف عن عيوبنا ونقائصنا بالموازنة بيننا وبين المتقدمين ، ويقال ان المؤرخ الرومانى تاسيتوس مثـــل القبائل الألمانية لمعاصريه من الرومان على هذا النمط استفزازا للحمية ، وابتعاثا للهمة ، ولكن الواقع أن اسراف المؤرخين فى توخى هذا الأسلوب جعل اطراءهم للكثيرين من العظماء البارزين فى التاريخ موضع الشك ومهد السبيل لاتهامهم بالمبالغة .

والعظمة الحقة ما زالت لغزا من الألغاز نجد صعوبة فى سبر أعماقه ، والاحاطة بمداه ، ونحن نطلق وصــف العظيم على العظماء بدافع خفى من الشعور والوجدان ، ولا يصفهم بهذه الصفة الخبراء العارفون وحدهم ، وانما يسبغها عليهم الرأى العام بدافع من الشعور الغامض الخفى ، وبرغم أن العظمـــة يحفها الغموض والابهام ، الا أننا لا نستطيع أن نتخلى عنها فى تفســـير التاريخ وتصور أحداثه ، وفى محاولة توضيحها تعترضنا عقبات ، فقد تتبدل أحكامنا فى العظمة كلما تقدمت بنا السن ، واتسعت آفاق تجاربنا ، وترامت حدود معرفتنا ، وأرجح أنه ليس هناك مقياس للعظمة قد اتفقت عليه الآراء وانعقد الاجمـــاع ، ففى بعض الأحيان نعد القوى العقلية والامتياز الفكرى أساس العظمة ، وفى أحيان أخرى نعد القوى الأخلاقية معيار العظمة ، وفى أوقات أخرى نكتفى بالاعتماد على الشعور والاحساس الباطنى .

وأبو جعفر المنصور الذى سألم بسيرته فى هذا الكتاب ، وأديره حول أخبار حياته ، فى طليعة العظماء من خلفاء الاسلام ، وله مكانته فى التاريخ العالمى بوصفه المؤسس الحقيقى لدولة استمرت تحكم الجزء الأكبر من العالم الاسلامى مدة قرون بدأت من سنة ١٣٢ هجرية الى سنة ٦٥٦ ، وقد نهض بأعباء الحكم بعد أن صقلته الحوادث ، وأحكمته التجارب ، فجعل مصلحة الدولة رهن عنايته ، وموضع اهتمامه ، وبالمثابرة الدائبة ، واليقظة الدائمة ، والسياسة الحكيمة ، والخطط المدروسة ، انقاد له المستصعب ، ووطد الأساس ، وكانت أعماله جميعها قائمة على الحساب الدقيق ، والتقصى العميق ، ولم يكن بطبيعته ميالا الى القسوة وسفك الدماء ، ولكنه كان لا يتردد فى اتباع القسوة المتناهية ، ولا يحجم عن اراقة الدماء ، وانزال العقوبة الصارمة ، والتنكيل الشديد ، اذا كانت مصلحة الدولة واستقرار الأمور وكفالة الأمن والطمأنينة تقتضى ذلك ، وقد رأى الشرق حكاما لا يقلون عن المنصور فى أفانين السياسة وأساليب الدهاء ، وبعضهم ربما كان يتفوق عليه فى نبل النفس ، وسمو الهدف ، ولكن القليلين منهم من كان يوازيه فى النظرة الشاملة المستوعبة ، وتعدد جوانب الشخصية ، فهو الفقيه المتمكن ، والعالم الأديب ، والخطيب المفوه الحاضر البديهة ، والسياسى المحنك البعيد النظر ، والقائد البصير ، وقد فرج الأزمات التى عرضت له ، وتغلب على الصعوبات التى اعترضت طريقه بالحكمة والحزم ورباطة الجأش ، واليقظة المستمرة والنشاط الدائب ، وكان رجلا واقعيا لا يتعلل بالأمانى والأحلام ، ولا تحلق أوهامه فى السحب ، وانما يجيد مراقبة ما حوله ، ويواجه الحياة كالمصارع الماهر الذى يعرف مواضع الضعف فى أعدائه ، والذين يتحدون سيطرته ، كما يعرف متى يضرب الضربة القاضية .

الدعوة العباسية

الخلاف بين بنى هاشم وبين بنى أمية خلاف قديم يرجع الى ما قبل ظهور الاسلام ، ويروى أن عبد شمس وهاشما ــ وهما من أولاد عبد مناف ــ ولدا توأمين ، وأن أحدهما ولد قبل الآخر واصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه ، فنحيت فسال الدم ، فقيل يكون بينهما دم ، ونافر أمية بن عبد شمس عمه هاشما ، فقد حسده على رياسته واطعامه ، وتطلع الى أن يصنع صنيعه ويحذو حذوه ، ولما عجز عن ذلك شمت به ناس من قريش ، فأغضبه ذلك ، وحز فى نفسه ، فدعا عمه هاشما الى المنافرة ، وكره هاشم ذلك لسنه وقدره ، فلم يدعه أمية حتى نافره ، واحتكما الى الكاهن الخزاعى ، فقضى لهاشم بالغلبة .

وحدثت منافرة بين حرب بن أمية وعبد المطلب بن هاشم ، فاز فيها عبد المطلب ، فتمادت العداوة ، واتسعت شقة الخلاف ، وحينما ظهر النبى ، ودعا الى الاسلام والتوحيد ، ونبذ عبادة الأصنام ، والأخذ بمبادىء الاسلام ، تصدى له الأمويون ، وقاوموا الدعوة الاسلامية مقاومة عنيفة ، وكانوا أشد الناس ايذاء للرسول ، وأكثرهم تحريضا عليه ، وكان زعيم حركة المقاومة أبو سفيان بن حرب بن أمية الذى لم يدخل فى دين الاسلام الا حينما لم يجد مندوحة عن ذلك يوم فتح مكة .

وحينما تقدم أبو سفيان ليسلم مدفوعا بصديقه العباس عم

النبى ، قال له النبى (١) « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله الا الله » .

فقال أبو سفيان « بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد » .

فقال النبى « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم انى رسول الله » .

فقال أبو سفيان « بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فان فى النفس منها حتى الآن شيئا » .

فقال له العباس « ويحك ، اسلم واشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك » .

وهنا شهد شهادة الحق وأسلم ، وقال العباس للنبى « يا رسول الله ان أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا » فقال النبى « نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

ولما رأى أبو سفيان كتائب المسلمين ، وفيهم المهاجرون والأنصار لا يرى منهم الا الحدق من الحديد ، قال للعباس « لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » .

فقال له العباس « يا أبا سفيان انها النبوة » .

فقال أبو سفيان « نعم اذن » .

ولما أراد النبى اعلان أمره ودعا عشيرته الأقربين ، اختلف

---

(١) صفحة ٢٦٨ من الجزء الثانى من السيرة النبوية لابن هشام .

موقف أعمامه ، وحدب عليه عمه أبو طالب ، ومنعه وقام دونه ، ولكنه لم يدخل فى الاسلام .

وحضر عمه العباس اجتماع الشعب عند العقبة ، وهو يومئذ على دين قومه الا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما اكتمل الاجتماع كان أول المتكلمين العباس ، قال (۱) يا معشر الخزرج ان محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هم على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وانه قد أبى الا الانحياز اليكم ، واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده » .

وكان العباس يختلف الى اليمن يشترى العطر ليبيعه فى أيام الموسم ، وكان متمولا ، وكان يقرض النقود لقاء الحصول على فوائد الاقراض .

وخرج العباس مع المشركين يوم بدر ، وأسر وشد وثاقه ، فسهر النبى ولم ينم ، فقال له بعض أصحابه « ما يسهرك يا نبى الله ؟ » .

فقال « أسهر لأنين عمى العباس » .

فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه .

فقال النبى « مالى لا أسمع أنين العباس ؟ » .

فقال الرجل « أرخيت من وثاقه » .

وفدى نفسه يوم بدر ، وابنى أخويه ، عقيل بن أبى طالب

---

(۱) صفحة ٢٦٦ من الجزء الأول من كتاب السيرة النبوية لابن هشام .

ونوفل بن الحارث وقيل انه أسلم قبل الهجرة وكان يكتم اسلامه ، وكان بمكة يكتب الى رسول الله أخبار المشركين ، وشهد حنينا ، وثبت مع النبى لما انهزم الناس .

وكان العباس من سادات بنى هاشم وعقلائهم ومن أيسرهم ، وكان يهاب اقومه ويكره أن يخالفهم ، وكان له مال كثير متفرق فى قومه ، ولما قدم به النبى المدينة فى غزوة بدر قال له « أقد نفسك فانك ذو مال » .

فقال « يا رسول الله ، انى كنت مسلما ، ولكن القوم استكرهونى » .

فقال له النبى « الله أعلم باسلامك ، ان يكن ما تذكره حقا فالله يجزيك به ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا » .

وحاول بعد ذلك أن يزعم أنه ليس له مال ، ونرى من ذلك أنه برغم العفو عنه وفك قيوده كان يحاول التخلص من الفدية ، وقد أرغم على أدائها .

أما أبو لهب ــ أحد أعمام النبى ــ فلم ينشرح صدره للاسلام ، وكان متزوجا من أخت أبى سفيان زعيم الحركة المقاومة للاسلام ، ويبدو أنه كان لزوجته أثر فى دفعه الى هذا الموقف العدائى .

وقد أسلم حمزة عم النبى فى السنة الخامسة لظهور الاسلام ، وأبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن الاسلام ومناصرة النبى واستشهد يوم أحد بعد أن دافع دفاع الأبطال المقاديم .

ولما اشتد المرض بالنبى خرج على بن أبى طالب من عنده ، فقال الناس « كيف أصبح رسول الله ؟ » فقال « أصبح بحمد الله بارئا » .

فأخذ العباس بيده وقال له « أنت بعد ثلاث عبد العصا ، وأن

رسول الله سيتوفى فى مرضه هذا ، وانى لأعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب ، فاذهب الى رسول الله فاسأله فيمن يكون هذا الأمر ، فان كان فينا علمناه ، وان كان فى غيرنا أمره فأوصى بنا » .

فقال على « لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدا ، والله لا أسألها رسول الله » .

فلما اشتد الضحى توفى رسول الله .

وفى رواية أخرى أنه حينما خاطب العباس عليا فى أمر الخلافة قال له على « يرحمك الله ومن يطلب هذا غيرنا ؟ » فقال له العباس « أظن والله سيكون » فلما بويع لأبى بكر ، ورجع القوم الى المسجد سمع على التكبير فقال للعباس « ما هذا ؟ » فقال له العباس « هذا ما دعوتك اليه فأبيت » .

فقال على « أيكون هذا ؟ » .

فقال العباس « ما رد مثل هذا قط » .

والواقع أن عليا والعباس كانا يريان أن الخلافة حق لبنى هاشم ، وأن فى صرفها عنهم انكارا لهذا الحق ، ولولا أن العباس تأخر فى اعتناق الاسلام لاعتقد أنه أحق من يقوم بها من بنى هاشم لسنه ومكانته ، ولكن عليا كان ربيب النبى ، وفى طليعة السابقين الى الاسلام ، وقد حضر المشاهد الى جانب النبى ، وكان من أشد الناس حماسة ، وأمضاهم عزما فى الدفاع عن الاسلام ، وقد أحبه النبى ، واختاره زوجا لابنته السيدة فاطمة ، وقال له ذات يوم « أنت منى بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبى بعدى » وينسب الى النبى قوله « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » .

ولذلك لم يجد العباس وجها للتقدم الى طلب الخلافة مع توفر

هذه المزايا لعلى ، ولما اجتمعت الناس على بيعة أبى بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول « انى لأرى عجاجة لا يطفئها الا الدم ، يا آل عبد مناف ، فيم أبو بكر من أموركم ؟ أين المستضعفان ؟ أين الأذلان على والعباس ؟ ما بال هذا الأمر فى أقل حى من قريش ؟ » .

ثم قال لعلى « ابسط يدك أبايعك ، فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجلا » .

فأبى على عليه ، فتمثل بشعر المتلمس :

ولا يقيم على ضيم يراد به   الا الأذلان عير الحى والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته   وذا يشج فلا يرثى له أحد

فزجره على وقال له « والله ما أردت بهذا الا الفتنة ، وأنك والله طالما أضمرت للاسلام شرا ، لا حاجة لنا فى نصيحتك » .

وقد توفى رسول الله ولم يرو عنه حديث واضح أو خبر مكشوف فيمن يتولى خلافة المسلمين بعده .

ومال الجمهور الاسلامى الى مبايعة أبى بكر بعد المناظرات التى جرت بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، ويبدو أن قريشا استكثرت أن تجمع بين النبوة والخلافة لبنى هاشم ، وربما كان ذلك ايثارا للعافية ، وطلبا للسلامة ، وكان على نفسه يرى أنه أحق الناس بالخلافة بعد الرسول ، ولم يتقدم الى البيعة لأبى بكر الا بعد وفاة زوجته السيدة فاطمة ، وكانت قد مضت ستة أشهر على مبايعة أبى بكر .

وكانت هناك فرقة من الصحابة تميل الى على ، وتخلص له وترى استحقاقه للخلافة ، منهم سلمان الفارسى وأبو ذر الغفارى

والمقداد بن الأسود ، ولكنهم لما رأوا الاجماع على مبايعة أبى بكر بايعوه مع سائر المسلمين .

وقد اشتهر من أولاد العباس بوجه خاص عبد الله بن عباس ، ونسبت اليه رواية كثير من الأحاديث والتفسيرات العديدة ، ولما بويع على بالخلافة كان عبد الله بن عباس عضدا له ، ونصيرا ، وشارك فى حروبه كلها ، وفى أكثر الروايات انه برز فى معركة صفين ، وقد ولاه على البصرة ، ولكنه انحرف عنه بعد ذلك حينما رأى نجمه فى أفول ، ونجم معاوية فى صعود ، وقد كان عبد الله بن عباس من أحب الناس الى عمر بن الخطاب وكان يقدمه على الأكابر من أصحاب النبى ولكنه لم يستعمله قط ، وقال له يوما « كدت استعملك ولكنى أخشى أن تستحل الفىء على التأويل ، فلما استعمله على استحل الفىء على تأويل قوله تعالى « واعلموا أن ما غنمتم من شىء فان الله خمسه وللرسول ولذى القربى » ، وقد استحله من قرابته من رسول الله وضاق بذلك أبو الأسود الدؤلى ، ولم يسعه الا أن يكتب الى على مستنكرا ذلك (١) أما بعد فان الله جعلك واليا مؤتمنا ، وراعيا مسئولا ، وقد بلوناك رحمك الله فوجدناك عظيم الأمانة ناصحا للأمة ، توفر لهم فيأهم ، وتكف نفسك عن دنياهم ، فلا تأكل أموالهم ، ولا ترتشى بشىء فى أحكامهم ، وابن عمك قد أكل ما تحت يديه من غير علمك ، فلم يسعنى كتمانك ذلك ، فانظر رحمك الله فيما هنالك ، واكتب الى برأيك فما أحببت اتبعه ان شاء الله والسلام » .

فكتب اليه على « أما بعد فمثلك نصح الامام والأمة ، ووالى على الحق ، وفارق الجور ، وقد كتبت لصاحبك بما كتبت الى

---

(١) صفحة ٣٥٤ من الجزء الرابع من العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

فيه ، ولم أعلمه بكتابك الى ، فلا تدع أعلامى ما يكون بحضرتك مما النظر فيه للأمة صــــلاح ، فانك بذلك جدير ، وهو حق واجب لله عليك ، والسلام » .

وكتب الى عبد الله بن عباس « أما بعد فانه قد بلغنى عنك أمر ان كنت فعلته فقد أسخطت الله ، وأخربت أمانتك ، وعصيت امامك ، وخنت المسلمين ، بلغنى أنك خربت الأرض ، وأكلت ما تحت يدك ، فارفع الى حسابك ، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس والسلام » .

وكان على شديد التحرج فى أمر المال ، ويحرص على أن يكون على بينة من أمر عماله ، وكان أشد الناس تقديرا للتبعة الملقاة على كاهله ، وأكثرهم محاسبة لنفسه قبل محاسبته لعماله ، وقد تلقى من ابن عباس هذا الرد « أما بعد فان كل الذى بلغك باطل ، وانا لما تحت يدى ضابط وعليك حافظ ، فلا تصدق على الظنين » .

وهو كتاب شديد الايجاز لا يكفى لابطال حجة أو نفى تهمة ، فــكتب اليه على يقول : « أما بعد لا يســـعنى تركك حتى تعلمنى ما أخذت من الجزية من أين أخذته ، وما وضعت منها أين وضعته ، فاتق الله فيما ائتمنتك عليه واسترعيتك اياه ، فان المتاع بما أنت رازىء منه قليل ، وتبعاته وبيلة لا تبيد والسلام » .

ولما تلقى ابن عباس هذا الكتاب ورأى أن عليا غير مقلع عنه كبر عليه أن يقدم اليه حساب ما عنده من المال وكتب اليه « أما بعد فانه بلغنى تعظيمك على مرزئة مال بلغك أنى رزأته أهل هذه البلاد ، وايم الله لأن ألقى الله بما فى بطن هذه الأرض من عقيانها ومخبئها ، وبما على ظهرها من طلاعها ذهبا أحب الى من أن ألقى الله وقد سفكت دماء هذه الأمة لأنال بذلك الملك والامرة ، ابعث الى عملك من أحببت فانى ظاعن والسلام » .

وهكذا أعفى عبد الله بن عباس نفسه من ولاية البصرة ، وجبه ابن عمه هذه المجابهة القاسية ، وهو يعلم حق العلم أن عليا لم يتجاوز حده بوصفه خليفة للمسلمين أمينا على أموالهم وانه لا يحمل وزر الدماء التى سفكت ، وقد وافت هذه الرسالة عليا وهو يعاني محنة قاسية من ادبار الحظ ، وتنكر الناس ، ومخالفة الاتباع ، وقد شهد ابن عباس واقعة الجمل ، وواقعة صفين ، مما بعث عليا على أن يقول وقد أمضه الحزن ونال منه الألم « وابن عباس لم يشاركنا فى سفك هذه الدماء ! » .

ولما أجمع ابن عباس الخروج الى مكة ومبارحة البصرة نقل ما فى بيت المال فى الغرائر ، ودعا أخواله من بنى هلال ليمكنوه من الافلات بما حمل من المال وكان فيما زعموا ستة آلاف ألف من الدراهم وكادت تحدث معركة بين أهل البصرة وبين بنى هلال تسفك فيها الدماء من جراء ذلك ، ويروى أنه لما نزل مكة اشترى من عطاء بن جبير ثلاث مولدات حجازيات يقال لهن شادن وحوراء وفتون بثلاثة آلاف دينار .

ولما بلغ عليا ذلك كتب اليه هذا الكتاب الذى يصور أبلغ تصوير مدى ما كان يعانيه على من الحزن والألم فى هذه الفترة من فترات حياته الحافلة بالمتاعب والمشكلات (١) ، « أما بعد فانى كنت أشركتك فى أمانتى وجعلتك شعارى وبطانتى ، ولم يكن فى أهل بيتى رجل أوثق عندى منك بمواساتى ومؤازرتى وأداء الأمانة الى ، فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب والعدو قد حرب ، وأمانة الناس قد خربت ، وهذه الأمة قد فتنت ، قلبت لابن عمك ظهر

---

(١) صفحة ٣٥٧ من الجزء الرابع من العقد الفريد وصفحة ٦٧ من الجزء الثانى من نهج البلاغة طبعة محمد الرافعى وشرح الشيخ محمد عبده .

المجن ، ففارقته مع المفارقين ، وخذلته مع الخاذلين ، وخنته مع الخائنين ، فلا ابن عمك آسيت ولا الأمانة أديت ، وكأنك لم تكن الله تريد بجهادك ، وكأنك لم تكن على بينة من ربك ، وكأنك انما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياهم ، وتنوى غرتهم عن فيئهم ، فلما أمكنتك الفرصة فى خيانة الأمة أسرعت الكرة ، وعاجلت الوثبة ، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة ، فحملته الى الحجاز رحيب الصدر بحمله غير متأثم من أخذه كأنك لا أبا لغيرك انما حزت لأهلك تراثك عن أبيك وأمك ، فسبحان الله ! أما تؤمن بالمعاد ، أو ما تخاف نقاش الحساب ؟ أما تعلم أنك تأكل حراما وتشرب حراما وتبتاع الاماء وتنكح النســـاء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال وأحرز بهم هذه البلاد ؟ فاتق الله واردد الى هؤلاء القوم أموالهم فانك ان لم تفعل ثم أمكننى الله منك لأعذرن الى الله فيك ، فوالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذى فعلت ما كانت لهما عندى هوادة ، ولما تركتهما حتى آخذ الحق منهما وأزيل الباطل عن مظلمتهما ، فضح رويدا فكأنك قد بلغت المدى ، ودفنت تحت الثرى ، وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذى ينادى الظالم فيه بالحسرة ، ويتمنى المطيع الرجعة ، ولات حين مناص والسلام » .

ورد ابن عباس على هذا الكتاب قائلا « أما بعد فقد بلغنى كتابك تعظم على أمانة المال الذى أصبت من بيت مال البصرة ، ولعمرى أن حقى فى بيت مال الله أكثر من الذى أخذت والسلام » .

وهو فى هذا الكتاب لا يدرأ عن نفسه شبهة ، ولا يدفع تهمة ، وانما يحاول أن يدعى حقا ، ويسوغ سلوكه ، ويبرر موقفه ، وقد أرسل اليه على هذا الرد البليغ « أما بعد فان العجب كل العجب منك ، اذ ترى لنفسك فى بيت مال الله أكثر مما لرجل من المسلمين ،

قد أفلحت ان كان تمنيك الباطل ، وادعاؤك ما لا يكون ينجيك من الاثم ، ويحل لك ما حرم الله عليك ، عمرك الله ، أنك لأنت البعيد البعيد ، قد بلغنى أنك اتخذت مكة موطنا ، وضربت بها عطنا ، تشترى المولدات من المدينة والطائف ، وتختارهن على عينك ، وتعطى بهن مال غيرك ، وانى أقسم بالله ربى وربك رب العزة ما أحب ان ما أخـــذت من أموالهم لى حلالا أدعه ميراثا لعقبى ، فكيف لا أتعجب اغتباطك به تأكله حراما ! والسلام » .

وكان رد ابن عباس على هذا الكتاب « والله لئن لم تدعنى من أساطيرك لأحملنه الى معاوية يقاتلك به » .

وكان هذا الرد الذى رواه صاحب العقد كافيا فى أن يكف عنه على ، ولم يكن هناك مجال للمراسلة بعده .

وقد ذكرت طائفة من الناس (١) ــ كما يقول المسعودى ــ أن عليا أوصى الى ابنيه الحسن والحسين ، ولكن هناك رواية أخرى تقول انه حينما دخل عليه الناس يسألونه بعد أن اعتدى عليه ابن ملجم وأصابه اصابة قاتلة فقالوا « يا أمير المؤمنين ، أرأيت ان فقدناك ولا نفقدك أنبايع الحسن ؟ » فقـــال « لا آمركم ولا أنهاكم ، وأنتم أبصر » وفى رواية أخرى أن رجلا من القوم قال له « ألا تعهد يا أمير المؤمنين ؟ » .

فقال « لا ، ولكنى أتركهم كما تركهم رســـول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يتقدم الحسن بطلب البيعة لنفسه ، وانما رأى أنصار أبيه بعد أن اغتاله الخارجى ابن ملجم مبايعته وعلى رأسهم قيس ابن سعد بن عبادة ، وقد قبل الحسن البيعة وهو على بينة من

---

(١) صفحة ٤٢٥ من الجزء الثانى من كتاب مروج الذهب تحقيق محمــد محيى الدين عبد الحميد .

العقبات القائمة فى طريقه ، والأخطار المحدقة بموقفه ، وكتب اليه عبد الله ابن عباس يشد من عزمه ، ويستحثه على التأهب للحرب (١) « أن المسلمين ولوك أمرهم بعد علىّ فشمر للحرب ، وجاهد عدوك ودار أصحابك ، واشتر من الضنين دينه بما لا يثلم دينك ، وول أهل البيوتات والشرف تستصلح بهم عشائرهم ، حتى تكون الجماعة فان بعض ما يكره الناس ما لم يتعد الحق وكانت عواقبه تؤدى الى ظهور العدل وعز الدين خير من كثير مما يحبون اذا كانت عواقبه تدعو الى ظهور الجور ووهن الدين » .

وكتب (٢) الحسن الى معاوية يدعوه الى مبايعته ، وذكر له فى هذا الكتاب أن المسلمين ولوه الأمر بعد أن مضى أبوه على لسبيله ، وانه أحق بالخلافة من غيره وينصح له بعدم التمادى فى الباطل وترك البغى حقنا لدماء المسلمين ، وجمعا لكلمتهم واطفاء للنائرة ، واصلاح ذات البين .

ورد عليه معاوية بكتاب تجلت فيه كياسته السياسية ، ولباقته المعهودة فى علاج المشكلات ، ومواجهة المواقف ، ففيه أن الأمة الاسلامية لم تجهل فضل آل النبى ولم تنكر سابقتهم ولا قرابتهم ، وانه لو كان يعلم أن الحسن أضبط منه للرعية ، وأحوط منه على الأمة الاسلامية ، وأحسن سياسة ، وأقوى على جمع الأموال ، وأكيد للعدو ، لأجابه الى ما دعاه اليه ، ولكنه أطول منه ولاية ، وأقدم منه تجربة وأكثر منه سياسة ، وأكبر منه سنا ، ويدعوه فى دوره الى الدخول فى طاعته .

ولم يبق الا الاحتكام الى السيف ، والركون الى الحرب ، وكان

---

(١) صفحة ١٤ من المجلد الأول من كتاب « عيون الأخبار » .

(٢) من صفحة ٥٤ الى ٥٨ من كتاب « مقاتل الطالبيين » ، لأبى الفرج الأصفهانى .

الحسن يشك فى ولاء أنصاره ، ويتهم مودتهم ، وقد رأى موقفهم من أبيه بعد معركة صفين وكيف أعياه أن يستنهض عزيمتهم ، أو يثير حميتهم ، حتى نغصوا عليه حياته ، ومكث الحسن شهرين أو قريبا من شهرين وهو متخوف من الاقدام على الحرب يخشى خذلان الناس اياه ، ولما أحس بذلك معاوية جمع رجاله ، وتقدم قاصدا العراق ، فلما بلغ الحسن مسيره نهض للحرب وسار فى عسكر عظيم وعدة حسنة ، وبعث طليعة له جيشا من اثنى عشر ألفا من الجند جعل عليهم قيس بن سعد ، ومعه عبيد الله بن عباس ، وفى رواية أبى الفرج أنه جعل على رأس الجيش ابن عمه وأمره أن يستشير قيس بن سعد .

وبدرت من الحسن بادرة جعلت أصحابه يظنون أنه فى الوقت الذى يبدى فيه التأهب للحرب ينزع الى الصلح ويميل الى السلم ، فكبر عليهم ذلك وعنفوا به وكاد يلقى مصرعه حينما طعنه رجل لم يصب منه مقتلا ، وكان معاوية يعرف عن طريق عيونه الحالة النفسية التى يعانيها الحسن ، وكراهته للحرب وتفريق الجماعة ، وجنوحه للسلم ، وتوحيد الكلمة ، فبعث اليه رسلا من قبله تدعوه الى السلم ، وتزهده فى الأمر ، وأعطاه هؤلاء السفراء خمسة ملايين من الدراهم كانت فى بيت مال الكوفة مع الأمان له ولأصحابه .

وعلم عبيد الله بالمفاوضات التى كانت جارية بين معاوية والحسن فلم يقصر فى اغتنام الفرصة وترك جيشه واستجاب للعرض الذى قدمه له معاوية ، ووفى له معاوية بما وعده ، وطلبه رجاله فلم يجدوه ، فصلى بهم قيس بن سعد وخطبهم قائلا « أيها الناس لا يهولنكم ، ولا يعظمن عليكم ما صنع هذا الرجل الوله الورع ، ان هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خير قط ، ان أباه عم رسول الله صلى الله عليه وآله خرج يقاتله فى بدر ، فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصارى ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وآله ،

فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين ، وان أخاه ولاه على أمير المؤمنين على البصرة فسرق مال الله ومال المسلمين . فاشترى به الجوارى، وزعم أن ذلك حلال ، وأن هذا ولاه على اليمن فهرب من بسر ابن أرطأة وترك ولديه حتى قتلا ، وصنع الآن هذا الذى صنع » .

ولما علم قيس بمبايعة الحسن لمعاوية قال لرجاله « اختاروا احدى اثنتين ، اما القتال مع غير امام أو تبايعون بيعة ضلال » . فاختاروا العافية ودخل معاوية الكوفة واستقر له الأمر واجتمعت الأمة على طاعته ، وهدأت حركة التشيع لعلى وبنيه ولكنها ظلت مع ذلك مستكنة فى النفوس ، وكان لمثالية على والمحن التى أصابته تأثير قوى فى العطف على ذكراه ، وخالج أهل العراق الشعور بالندم لتقاعدهم عن نصرته وما صنعوه معه فى حيـــاته فرفعوا قدره وأقروا بفضله .

واستقام السلطان لمعاوية ، واستتب الأمر ، وأعانه على تثبيت قدميه وتوطيد مكانته ثلاثة كانوا يعدون من دهاة العرب ، وهم المغيرة بن شعبة ، وعمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه ، وقد اشتهر معاوية بالحلم واللين ، وفى حديث بينه وبين عمرو بن العاص قال معاوية « لو أن ما بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » فقال عمرو « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين » فقال « ان هم شدوا أرخيت، واذا أرخوا شددت » وقد ظل يسوس الناس بالرفق واللين والاغضاء ولكنه انحرف عن هذه السياسة الحكيمة فى مســـألة أحدثت هزة عنيفة فى العالم الاسلامى وأساءت الى سمعته وهى قتل الرجل الورع الصالح حجر بن عدى ، وكان من أشد الناس اخلاصا لعلى بن أبى طالب ، والظاهر أنه أقدم على ذلك فى نوبة من نوبات الغضب التى قد تعرض للحلماء ، وقد أدرك هو نفسه جسامة الخطأ الذى تورط فيه ، وكان مصرع حجر يثير همه من الحين الى الحين ، ويروى أنه حينما حضرته الوفاة جعل يقول « يومى منك يا حجر طويل » .

وأقدم كذلك على استلحاق زياد بن أبيه بنسبه ، مخالفا بذلك الحديث المشهور « الولد للفراش وللعاهر الحجر » وقد أثار هذا الاستلحاق الكثير من الانكار والدهشة والسخرية ، وقال فيه الشاعر ابن مفرغ الحميرى :

ألا أبلغ معــــاوية بن صخر مغلغلة عن الرجل اليمـــانى
أتغضب أن يقـــال أبوك عف وترضى أن يقـــال أبوك زانى
فاشـــهد ان رحمك من زياد كرحم الفيـــل من ولد الاتان

وكان معاوية قد استعمل المغيرة واليا على الكوفة ، فلما اطمأن الى موقفه بدا له أن يعزله من ولايتها ، وعلم المغيرة بذلك فشخص الى دمشق ، واختلى بيزيد ، وأغراه بأن يطالب من أبيه أن يعقد له البيعة بولاية العهد بعده ، ويروى اليعقوبى أن المغيرة حينما لقى معاوية قال له « انى كنت دعوت أشراف الكوفة الى البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين بولاية العهد بعد أمير المؤمنين فأجابوا الى ذلك ، ووجدتهم سراعا نحوه ، فكرهت أن أحدث أمرا دون رأى أمـير المؤمنين ، فقدمت لأشافهه بذلك ، وأستعفيه من العمل » وأرجح أن ولاية العهد كانت من الأمور التى تشغل بال معاوية ، وهو كان يعلم جيد العلم أن فتح باب الشورى فى انتخاب من يخلفه سيحدث فى الأمة الاسلامية خلافات شديدة تراق فيها الدماء ، وتكثر قوارع الخطوب ، ولذلك راقه ما عرضه المغيرة وصادف هوى فى فؤاده ، فقال له « يا أبا عبد الرحمن انما يزيد ابن أخيك ، ومثلك اذا شرع فى أمر لم يدعه حتى يحكمه ، فنشدتك الله الا رجعت فتممت هذا » وخرج المغيرة وهو يقول لكاتبه « ارجع بنا الى الكوفة فوالله وضعت رجل معاوية فى غرز لا يخرجها منه الا سفك الدماء » وانصرف الى الكوفة . .

ولما مات معاوية ، وخلفه يزيد ، اضطربت الأحوال ، وهبت أعاصير الفتنة فى المدينة ومكة والكوفة ، وثارت المدينة مطالبة بعزل

يزيد ، وتولى الثورة بعض أبناء الأنصار ، ولكن هذه الثورة قمعت بشدة ، وقد قام بالقضاء على تلك الثورة مسلم بن عقبة المرى الذى أوقع بأهل المدينة وقعة الحرة المشهورة .

وأما مكة فعاذ بها عبد الله بن الزبير طالبا الخلافة لنفسه .

وأما الكوفة فقد أرسل من بها من الشيعة الى الحسين ليبايعوه ، وكان الحسن قد توفى فى خلافة معاوية ، ويقول أبو الفرج فى « مقاتل الطالبيين » « ان الحسن انصرف الى المدينة فأقام بها ، وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد ، فلم يكن شىء أثقل من أمر الحسن بن على وسعد ابن أبى وقاص فدس اليهما سما فماتا منه » . ويسترسل قائلا « أرسل معاوية الى ابنة الأشعث (زوجة الحسن) انى مزوجك بيزيد ابنى على أن تسمى الحسن بن على ، وبعث اليها بمائة ألف درهم ، فقبلت وسمت الحسن ، فسوغها المال ولم يزوجها منـــــه » .

وشجع ابن الزبير الحسين على قبول الدعوة الواردة من الكوفة ليخلو له الجو ، ولكن أصدقاء الحسين وأحباءه من ذوى قرابته والناصحين له نهوه عن مسيره ، وحذروه العاقبة ، وفى طليعتهم أخوه محمد بن الحنفية ، وابن عمه عبد الله بن عباس ، وابن عمه عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ولكن شاء القدر أن يمضى الحسين فى طريقه ، وحدثت مأساة كربلاء التى قتل فيها الحسين ، وقتل معه من أهل بيته وأبنائه وأبناء اخوته وأتباعه سبعة وثمانون كما يقول المسعودى ، وكان لهذه المأساة وقع أليم فى العالم الاسلامى ، ولا تزال ذكراها تثير الشجون ، وتبعث الأسى فى النفوس .

وامتنع عبد الله بن الزبير عن بيعة يزيد واحتمى بالحرم المكى فأمر يزيد مسلم بن عقبة أن يسير اليه بعد وقعة الحرة فسار اليه

وحاصره ، ومات يزيد فى أثناء الحصار ، ورجع الجيش الى الشام ولم يحدث شيئا ، وعظم أمر ابن الزبير ، ودخل فى دعوته أهل الحجاز ومصر والعراق ، وأبى أن يبايعه رجال بنى هاشم الذين كانوا بمكة مثل محمد بن الحنفية . وعبد الله بن عباس وغيرهما ، فأساء معاملتهم وعنف بهم وفى هذه الأوقات الحافلة بالأحداث ظهر رجل غامر من النزاعين الى الطموح وحب التسلط وأراد أن يستغل ميل العراقيين الى على وأبنائه وعطفهم عليهم وأظهر أنه يطالب بثأر الحسين والانتقام له من أعدائه الذين سفكوا دمه ، ولم يرعوا له حرمته ومكانته ودعا فى الوقت نفسه الى امامه محمد بن الحنفية ، وكان أكبر أبناء على بعد وفاة أخويه الحسن والحسين ، واشتد أمر المختار بالكوفة وكثر رجاله ومال الناس اليه ، وتتبع قتلة الحسين فزاد ميل أهل الكوفة اليه ومحبتهم له .

وكان ابن الزبير قد عمد الى من بمكة من بنى هاشم فحصرهم فى الشعب ، وجمع لهم حطبا عظيما لو وقعت فيه شرارة من نار لم يسلم من الموت أحد منهم كما يقول المسعودى ، وكان فى القوم محمد بن الحنفية ، فأرسل اليهم المختار جماعة من أهل الكوفة استخرجوهم من الشعب ، وسار ابن الحنفية الى أيلة وأقام بها سنين ، وهؤلاء الذين وردوا لاستنقاذ ابن الحنفية هم الشيعة الكيسانية ، وهم يقولون بامامة محمد بن الحنفية بعد وفاة أخويه الحسن والحسين ، وقد سموا بالكيسانية لاضافتهم الى المختار ابن أبى عبيدة الثقفى وكان اسمه كيسان ويكنى أبا عمرة كما يقول المسعودى وينسبهم آخرون الى أبى عمرة كيسان مولى بجيلة وكان رئيس شرطة المختار .

وأخرج عبد الله بن الزبير عبد الله بن عباس الى الطائف ، وقد توفى بها سنة ٦٨ هجرية وقرب المختار الموالى وفرض لهم ولأولادهم الأعطيات ، وأدنى مجالسهم ، وباعد العرب وأقصاهم وحرمهم

فأغضبهم ذلك ، واجتمع أشرافهم ودخلوا عليه ، وعاتبوه ، فقال لهم « لا يبعد الله غيركم ، أكرمتكم فشمختم بانافكم ، ووليتكم فكسرتم الخراج ، وهؤلاء العجم أطوع لى منكم وأوفى وأسرع الى ما أريد » ، وكانت الموالى تناصر الحركات الثورية والدعوة الى تغيير نظـام الحكم والسبب الأصيل فى ذلك هو التناقض الذى كان ملحوظا بين المثل الأعلى الاسلامى والمثل الأعلى عند العرب فى عهد الجاهلية، كانت الشجاعة والدفاع عن القبيلة والوقوف فى صفها سواء أكانت محقة أم مبطلة والحرص على أخذ الثأر ودفع الاهانة مهما تكن يسيرة هينة ، والمفاخرة بالأحساب والأنساب وحماية المستجير والاسراف فى الكرم هى المثل الأعلى الجاهلى ، فى حين أن المثل الأعلى الاسلامى كان يجعل مصلحة المجتمع الاسلامى فوق مصلحة الفرد ، ويوصى بتجنب الكبرياء والمفاخرة ، وفرط الاعتداد بالنفس، ويحث على حب العدالة ، وطلب المساواة ، وأن التفاضل بين الناس يقوم على التقوى وعمل الخير ، والرفق والعطف ، وما الى ذلك من الصفات الحميدة ، والشمائل الجذابة ، وقد تغلبت الحماسة الدينية والمثل الأعلى الاسلامى على العرب فى عهد النبوة ، وعهد عمر وأبى بكر ، ولكن مأساة قتل الخليفة عثمان بن عفان كانت من عوامل تغلب الروح القبلية على الروح الاسلامية الحقة ، ولذلك كانت الأمم المختلفة التى دخلت فى الدين الاسلامى تشعر أن العرب لا يعاملونها حسب ما تفرضه الاخوة الاسلامية والعدالة التى يقوم عليها الحكم الصالح ، ولذلك كان الكثير من أفرادها يتبع كل ثائر ما دام يعدهم بالعدالة المنشودة والمساواة المطلوبة .

وحدث الخلاف بين على ومعاوية وكان هذا الخلاف من أقوى أسباب ظهور مذهب الشيعة وفكرة الامامة ، ويقول ابن خلدون فى هذا الصدد(١) « اعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع ، ويطلق

(١) مقدمة ابن خلدون الجزء الثانى صفحة ٥٢٧ طبعة لجنة البيان العربى .

فى عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على اتباع على وبنيه رضى الله عنهم ومذهبهم جميعا متفقين عليه ان الامامة ليست من المصالح العامة التى تفوض الى نظر الأمة ، ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هى ركن الدين وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لنبى اغفاله ولا تفويضه الى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر ، وأن عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة ، وتنقسم هذه النصوص عندهم الى جلى وخفى ، فالجلى مثل قوله « من كنت مولاه فعلى مولاه » قالوا ولم تطرد هذه الولاية الا فى على ، ولهذا قال له عمر « أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة » ومنها قوله « أقضاكم على » ولا معنى للامامة الا القضاء بأحكام الله ، وهو المراد بأولى الأمر الواجبة طاعتهم بقوله « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » والمراد الحكم والقضاء ، ولهذا كان حكما فى قضية الامامة يوم السقيفة دون غيره » .

والرأى المعارض لهذا الرأى هو أن النبى لم ينص على من يخلفه ، وترك الأمر للناس ، يرون ما يصلح لهم ، ومن يصلح لهم ، وكل ما يطلبه النبى هو المحافظة على الدين ، ومبادئه وتعاليمه ، ورأى فريق أن دائرة الاختيار يجب أن تكون محصورة فى قريش ، لأن العرب أطوع لهم ، ولأن الخليفة فى حاجة الى عصبة تشد أزره ، وتحمى ظهره ، ولا قبيلة فى العرب أعز من قريش ، ومن هؤلاء من دعم رأيه بحديث « الأئمة من قريش » ، وفريق آخر رأى أن الاختيار لا يقصر على قريش بل يعم المسلمين جميعا ولو كان عبدا حبشيا متى توافرت فيه شروط الامامة .

وكانت تختلف بواعث الاقبال على المذهب الشيعى : فأقبل عليه قوم لأنهم ظلموا من الأمويين ، ومال اليه الموالى لأن الأمويين فى

رأيهم نظروا اليهم من حالق ، ولم يعدلوا بينهم وبين العـــرب ، وتشيع قوم من الفرس لأنهم تأثروا بالتقاليد الفارسية التى كانت تنظر الى البيت المالك نظرة تقديس واكبار ، ولما دخلوا فى الاسلام نظروا الى النبى كما يقول الأستاذ أحمد أمين نظرة كسروية ، ويقول الشهرستانى أن الشيعة خمس فرق ، كيسانية وزيدية وامامية وغلاة وإسماعيلية ، والذى يعنينا هنا هو الشيعة الكيسانية شيعة محمد بن الحنفية ، وهم يقولون بامامة محمد بن الحنفية بعــد الحسن والحسين ، وحينما فارق محمد بن الحنفية الدنيا اعتقد بعض الكيسانية أنه لم يمت ، وأنه فى جبل رضوى ، وانه سيعود بعد الغيبة فيملأ العالم عدلا كما ملىء جورا ، وفريق منهم ساق الامامة الى ابنه عبد الله أبى هاشم ، وفى سنة ٩٨ للهجرة استدعى الخليفة الأموى أبا هاشم وأكرم وفادته ، وقضى حوائجه ورأى من علمه وفضله ما حسده عليه ، فدبر أمر قتله ، ودس له من سمه ، وهو فى طريق عودته ، فلما أحس بالشر قصد الحميمة من أرض الشراة وبها محمد بن على ، فنزل عليه وأعلمه أن الأمر صائر اليه والى ولده وعرفه ما يعمل (١) وكان على بن عبد الله بن عباس قد أتى عبد الملك بن مروان وهو حاج فى سنة ٧٥ هجرية وذم اليه ابن الزبير وأعلمه ما كان أبوه وأهل بيته لقوا منه لامتناعهم عن بيعته وأن أباه أوصاه ليلحق به ، فأحسن عبد الملك اجابته ، وحمله وحمل عياله الى الشام ، وأنزله دارا بدمشق ، وأجرى عليه رزقا ، وكان عبد الملك يميل الى محاسنة العباسيين والطالبيين ، وقد كتب مـــرة الى الحجاج الثقفى يقول « جنبنى دماء آل أبى طالب » ، وحدث على ابن عبد الله عبد الملك عن قرية تدعى الحميمة فى أرض الشراة من ناحية البلقاء فى شرق الأردن ، فأقطعه اياها ، وحباه مالا ، فبنى بها قصرا ، والتحق به جماعة من أسرته فعمروها ، وصارت موطنا لهم بدل الطائف ، والظاهر أن على بن محمد كان يتردد بين دمشق

---

(١) الجزء الثالث من تاريخ اليعقوبى صفحة ١٩ .

والحميمة ، فلما تزوج لبابة بنت عبد الله بن جعفر ــ وكانت من قبل زوجة لعبد الملك وطلقها ــ غضب الوليد بن عبد الملك ، ودعاه ووبخه ، فقال له « انما أرادت الخروج من هذه البلدة وأنا ابن عمها فتزوجتها لأكون لها محرما » فأمر الوليد بضربه وقال له « انما تتزوج أمهات أولاد الخلفاء لتضع منهم » ونفاه من الشام الى الحميمة وفرض عليه ألا يغادرها الا اذا أراد الحج وشهر به بعد ذلك ، وأمر أن يطاف به على بعير ووجهه مما يلى ذنب البعير ، لأنه بلغه عنه أنه يقول ان الخلافة ستكون فى ولده .

وكان العباسيون منذ عهد جدهم العباس يتطلعون الى نيل الخلافة ، ولكنهم كانوا لا يصرحون بذلك لأن حق على وأولاده فى نيل الخلافة كان أظهر من حقهم ، وقد وجدوا فى تنازل أبى هاشم لمحمد بن على بن عبد الله حجة يستندون عليها ويرجعون اليها ،

واذا كان هذا التنازل حقيقيا فقد يبدو لنا أن نسأل عن السبب الذى بعث أبا هاشم الى صرف الدعوة عن أبناء عمومته من سلالة الحسين والحسن الى محمد بن على ، والمرجح أنه كان هناك خلاف بين شيعة محمد بن الحنفية والد أبى هاشم وشيعة على زين العابدين بن الحسين ، وقد ذكر الأستاذ على بن الحسين فى كتابه عن محمد بن الحنفية أنه حدث خلاف بين العم وابن أخيه حينما ذهب فريق من الشيعة الى امامة محمد بن الحنفية بعد وفاة أخويه الحسن والحسين ، وأنهما احتكما الى الحجر الأسود فقضى لعلى ، وهناك رأى آخر وهو أن معظم حفدة جد أبى هاشم الامام على كانوا صغارا فى السن ، ولم يجد فى كبارهم من يطمح لها ويقبل حمل تبعتها الخطيرة ، على حين كانت الكثرة والعدد فى شباب بنى العباس ، ولذلك اعتقد أبو هاشم أنهم أقدر على المطالبة بالخلافة ، فآثرهم بالتنازل لهم ونقل الدعوة اليهم ، ويقول النوبختى فى كتابه عن فرق الشيعة أنه بعد موت أبى هاشم قالت فرقة من

أتباعه أنه أوصى الى ابن أخيه على بن محمد وأن الذين ذكروا أنه أوصى الى محمد بن على غلطوا فى الاسم وهم الكيسانية الخلص ، وفرقة زعمت أنه أوصى الى عبد الله بن معاوية بن جعفر الذى خرج بالكوفة وهو يومئذ غلام صغير فدفع الوصية الى صالح بن مدرك ليدفعها اليه ، فلما بلغ أشده دفعها اليه .

ومهما يكن من أمر هذه الخلافات فان العباسيين لم يقصروا فى اغتنام الفرصة ، واحتاطوا للأمر فكان دعاتهم يدعون الى الرضا من آل محمد ، ويتعمدون اغفال اسم الامام الذى يدعون له .

وعند تمام المائة للهجرة قام محمد بن على بتنفيذ وصية أبى هاشم وأرسل الدعاة ورسم لهم الخطة التى يتبعونها ، وقد أدرك محمد شعور أهالى الولايات الاسلامية المختلفة كما يتبين من وصفه للأهواء والميول التى كانت سائدة بين أهالى الولايات فى ذلك الحين ، فقال « أما الكوفة وسوادها فشيعة على ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحرورية صادقة وأعراب كأعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بنى أمية وعداوة راسخة وجهل متراكم ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان ، فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب ، وأصوات هائلة ، ولغات فخمة ، تخرج من أجسام منكرة ، وبعد فانى أتفاءل الى المشرق ، والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » وكانت خراسان قد أظلها حكم العرب ولكن بقى أبناؤها نزاعين الى احياء استقلالهم السابق ، واعادة سيادتهم القديمة ، وكان من شأنها أن تؤيد كل ناقم على الحكم الراهن ومؤازرة كل متمرد على سلطان بنى أمية الذين

استقلوا بالخلافة ، وكان أبو هاشم قد بث دعاته فلما علم هؤلاء بموته ونقله الدعوة الى محمد بن على قصدوا محمدا وبايعوه ، وعادوا فدعوا الناس اليه ، وقد أرسل الى الآفاق جماعة ، فوجه ميسرة الى العراق ، وأرسل محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وحيان العطار الى خراسان ، وأمرهم بالدعاء اليه والى أهل بيته ، فلقوا من لقوا ، وانصرفوا بكتب من استجاب لهم الى محمد بن على ، واختار محمد اثنى عشر رجلا نقباء له منهم سليمان بن كثير، ولاهز بن قريظ ، وقحطبة بن شبيب وخالد بن ابراهيم ومالك ابن الهيثم الخزاعى وغيرهم ، واختار سبعين رجلا ليكونوا دعاة مؤتمرين بأمر النقباء .

وقد اختار محمد بن على الوقت المناسب للقيام بالدعوة فقد كان على رأس الدولة الأموية فى ذلك الوقت الخليفة العادل الصالح عمر بن عبد العزيز ، وجعل للدعوة مركزين أحدهما بالكوفة التى عدها مركزا للاتصال وأقيم فيها ميسرة مولى على بن عبد الله والثانى بخراسان وهى مجال الدعوة الحقيقى ، ووجه اليه محمد ابن خنيس وأبا عكرمة السراج .

وقد ظل رجال الدعـــوة قائمين برسالتهم من مستهل القرن الثانى الى سنة ١٣٢ وهى السنة التى تم فيها النجـــاح وبويع فيها لأبى العباس وسقطت الدولة الأموية وطويت صفحتها ، ويمكن تقسيم هذه المدة الى قسمين ظاهرين ، القسم الأول عصر الدعوة المحضة الخالية من الركون الى القوة ، وذلك قبل أن ينضم الى القوم أبو مسلم الخراسانى ، وفى ذلك الوقت كانت الدولة الأموية لا تزال متماسكة والعصر الثانى عصر اســـتعمال القوة والصدام الحربى حينما توفرت الأسباب وأخذت له الأهبة .

ففى العصر الأول كان الدعاة يجوبون البلاد الخراسانية فى ثياب التجار وينتهزون الفرص خفية لبث دعوتهم ، ويوافون

القائم بالكوفة بما ينجزونه ، وهو يتولى نقل الأخبار الى الحميمة ، ويتلقى منها التوجيه والارشاد ، وكان الاجتماع فى موسم الحج يتيح للدعاة فرصة للتلاقى وتبادل الرأى ووضع الخطط ، وكانت اقامة محمد بن على فى الحميمة تمكنه من القيام بالاشراف على الحركة دون أن يتعرض للرقابة واثارة الريبة ، وكان الأمويون بوجه عام أشد تدقيقا فى مراقبة العلويين منهم فى مراقبة العباسيين .

وفى سنة ١٠٢ وجه ميسرة رسله من العراق الى خراسان فوشى بهم رجل من تميم الى أمير خراسان فى ذلك الوقت وهو سعيد بن عبد العزيز المعروف بسعيد خذينة ، وقال هذا الرجل له « ان ها هنا قوما قد ظهر منهم كلام قبيح » وأعلمه حالهم ، فبعث اليهم سعيد فأتى بهم فسألهم « من أنتم ؟ » فقالوا « اننا أناس من التجار » قال « فما هذا الذى يحكى عنكم ؟ » فأجابوا « لاندرى ».

فقال « جئتم دعاة ؟ » .

فقالوا « ان لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا » .

فسأل « من يعرف هؤلاء ؟ » فجاء أناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة واليمن ، فقالوا « نحن نعرفهم ، وهم علينا ان أتاك منهم شىء تكرهه » فخلى سبيلهم .

وفى سنة ١٠٥ انضم الى الدعاة بكير بن ماهان ، وكان قد قدم من السند وجمع ثروة ضخمة ، وهو يعد من كبار الدعاة ، وقد ساعد الدعوة بماله وجاهه ، واتفق أن توفى فى ذلك الوقت ميسرة ، فأقامه محمد بن على مقامه فى الكوفة ، وصار هو كبير الدعاة الذى يصدرون عن رأيه ويرجعون الى حكمه .

وفى سنة ١٠٧ وجه بكير بن ماهان أبا عكرمة وأبا محمد الصادق ومحمد بن خنيس وغيرهم دعاة الى خراسان ، فجاء رجل

من كندة الى أسد بن عبد الله القسرى ـ حاكم خراسان حينذاك ـ ووشى بهم ، فأتى أسد بأبى عكرمة ومحمـــد بن خنيس وعامة أصحابه وقطع أيدى من ظفر به منهم وأرجلهم وصلبهم وأفلت أحدهم واسمه عمار العبادى حتى أتى الكوفة وأخبر بكير بن ماهان بذلك الخبر المشؤوم ، فكتب به الى محمد بن على ، فأجابه قائلا « الحمد لله الذى صدق مقالتكم ودعوتكم وقد بقيت منكم قتلى ستقتل » ووقع بعد ذلك عمار العبادى فى يد أسد فألحقه باخوانه .

وعزل أسد فى سنة ١٠٩ وكان أشد ولاة خراسان على الشيعة لا يرحم أحدا منهم وقع فى يده ، وقد شرد منهم من شرد ، ونكل ببعضهم ، ونفى فريقا منهم ، وقتل منهم من قتل ، ولذلك لم يكن للدعوة العباسية فى عهده تأثير يذكر حتى عزل عن خراسان ، وهذه هى المعروفة بولايته الأولى .

وقد ولى خراســـان مرة ثانية واتبع مع الدعاة العباسيين سيرته الأولى ، ففى سنة ١١٧ أخذ جماعة منهم ، فقتل بعضهم ، ومثل ببعضهم الآخر ، وحبس فريقا منهم ، وكان فيمن أخـذ سليمان بن كثير شيخ الدعاة فى خراسان ومالك بن الهيثم وموسى ابن كعب ولاهز بن قريظ وخالد بن ابراهيم وطلحـة بن زريق وغيرهم من النقباء فأتى بهم وقال لهم « يا فسقة ألم يقل الله تعالى « عفا الله عما ســـلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام » .

فقال سليمان بن كثير « أتكلم أم أسكت ؟ » .

فقال أسد « بل تكلم » .

فقال « نحن والله كما قال الشاعر :

لو بغـــير الماء حلقى شرق   كنت كالغصان بالماء اعتصارى

تدرى ما قصتنا ؟ صيدت والله العقارب بيدك أيها الأمير ، انا أناس من قومك (اليمن) وان هذه المضرية انما رفعوا اليك هذا لأننا كنا أشد الناس على قتيبة بن مسلم ، وانما طلبوا بثأرهم » .

وقد عرف سليمان بن كثير كيف يستغل العصبية القبلية ، ويضرب على هذا الوتر الحساس فى هذه المحنة ، فقد بعث بهم أسد الى الحبس ، ثم استشار أحد ثقاته فى أمرهم قائلا له « ماذا ترى ؟ » فقال له « أرى أن تمن بهم على عشائرهم » .

فقال أسد « أفعل » .

وأطلق سراح من كان من اليمن لأنه كان منهم ، وأطلق كذلك من كان من ربيعة لأن ربيعة فى خراسان والعراق كانت محالفة لليمنية ، وأراد قتل من كان من مضر ، ودعا لاهز بن قريظ ، فقال له « ما هذا يحـــق ، تصنع بنا هذا وتترك اليمـــانيين والربعيين « » فضربه ثلثمائة سوط ، وأخلى سبيله هو وأصحابه.

وكانت وفاة أسد سنة ١٢٠ هجرية ، فتنفست الشـــيعة الصعداء ، ونشطت حركة الدعوة ، وفى سنة ١١٨ وجه بكير بن ماهان عمار بن يزيد الى خراسان زعيما لشيعة بنى العباس بها ، فنزل مرو وغير اسمه وتسمى بخداش ، ودعا الى محمد بن على فى بادىء الأمر ، وأقبل عليه الناس ، ولكنه انحرف عن الدعوة العباسية والتعاليم الاسلامية ، وكان فى بادىء أمره نصرانيا بالكوفة فأسلم ، ولحق بخراسان ، وتأثر بعض النقباء بدعوته المنحرفة لأنه أخبرهم أن الامام محمد بن على أمر بذلك ، وبلغ خبره أسد فظفر به ، وأغلظ القول لأسد ، فقطع لسانه ، وسمل عينيه ، وأمر بقتله وصلبه .

وأغضب هذا الاتجاه الامام محمد بن على فأمسك عن الكتابة الى شيعته بخراسان ، وساءه قبولهم عنه ما روى عن خداش

من الكذب والادعاء الباطل ، وفى سنة ١٢٠ وجهت الشيعة الخراسانية سليمان بن كثير ليعلمه أمرهم ، وقد عنفه محمد بن على حينما قدم عليه وصرفه الى خراسان ومعه كتاب لشيعته ، ولما فضوه لم يروا فيه الا بسم الله الرحمن الرحيم ، فعظم ذلك عليهم ، وعلموا مخالفة خداش لأمره ، وخروجه على تعاليمه ، ووجه اليهم فى اثر سليمان بن كثير بكير بن ماهان ، وكتب معه يعلمهم أن خداش كذاب ، ولكنهم لم يصدقوه واستخفوا به ، فانصرف بكير الى محمد وأعلمه بذلك فأمره محمد أن يجمع النقباء ويبلغهم سخطه عليهم ، وضيقه بسلوكهم ، فعلموا أنهم مخالفون لسيرته وأقروا بذنبهم ، ورجعوا الى سابق طاعتهم له .

وكان العباسيون يظهرون أمام أتباعهم أنهم الأداة التى أرادها الله لقلب الحكومة الأموية ، ولذلك لم يقدموا أنفسهم بل جعلوا الشأن الأول لقضيتهم والدفاع عنها واذاعتها ولم يأخذوا البيعة لأنفسهم وباسمهم بل كانوا يأخذونها باسم المرضى عنه المجهول من آل النبى ، والقضية هى الكفاح لنصر الحق ، وغلبة العدل على الباطل والجور ، وكان العباسيون يعملون ما استطاعوا على اخفاء انهم كانوا يريدون تنحية بنى فاطمة ، بل كانوا يظهرون أنهم يعملون من أجلهم ، وقد ظهروا فى خراسان وفى غيرها بدعوى أنهم يريدون أن يثأروا للشهداء من أبناء على ، وكان محمد بن على يحرص على أن لا يفلت من يده زمام أهل خراسان ، ولذلك استغل مكانته وسلطته الشخصية التى كانت له فى خراسان فى أن يحمل النقباء فى خراسان على النزول عن استقلالهم والخضوع لتوجيه نائبه فى الكوفة .

وفى سنة ١٢٥ توجه سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وقحطبة ابن شبيب الى محمد بن على بأموال وهدايا ومعهم أبو مسلم ، فقال لهم محمد « لن تلقونى بعد وقتى هذا الا وأنا ميت فى سنتى هذه ، وكان ذلك فى أول سنة ١٢٥ وصاحبكم ابنى ابراهيم ، فاذا

قضى الله فيه قضاءه فصاحبكم عبد الله بن الحارثية » وأخرجه اليهم حتى رأوه وقبلوا يديه ورجليه ، وتوفى محمد بن على فى آخر سنة ١٢٥ ، ولما بلغ ذلك النقباء فى خراسان قدموا على ابراهيم مظهرين له الولاء ، وقيامهم بالدعوة له بعد أبيه ، وتوفى بكير بن ماهان ، فأقام ابراهيم بن محمد مكانه حفص بن سليمان المعروف بأبى سلمة الخلال ، وأصله مولى لبنى الحارث بن كعب ، وكان صهرا لبكير بن ماهان ، فأوصى بكير قبل وفاته ابراهيم الامام أن يقيمه مكانه .

واتخذ ابراهيم خطوة حاسمة لكى يقبض على زمام الأمور فى خراسان وذلك بأن وجه اليها أبا مسلم ، وأصل أبى مسلم غامض ، والروايات فيه مختلفة ، والأمر الذى لا شك فيه هو أنه ليس عربى الأصل ، وكانت جماعة من شيعة بنى العباس قادمة من خراسان الى الكوفة فى سنة ١٢٤ وهم يريدون مكة ومعهم بكير بن ماهان ، وكانوا يجتمعون فى الكوفة فى دار ، فغمز بهم ، وأخذوا وحبس رئيسهم بكير بن ماهان ، وكان فى الحبس يونس أبو عاصم وعيسى بن معقل العجلى ، وكان مع عيسى أبو مسلم يخدمه ، فدعاهم بكير الى الدخول فى الدعوة العباسية ، فأجابوه الى رأيه ، وسأل بكير عيسى بن معقل عن الشاب الذى معه وكانت تبدو عليه لوائح الذكاء والنشاط وبعد الهمة ، فقال لهم انه مملوك لهم ، واشتراه بكير بربعمائة درهم ، ثم خرجوا به وبعث ابن ماهان بأبى سلمة الى محمد بن على ، وفى رواية أخرى أنه كان حرا واسمه ابراهيم بن عثمان من ولد بزرجمهر وانه ولد فى أصفهان ونشأ فى الكوفة ، وكان أبوه أوصى به الى عيسى بن موسى السراج يحمله الى الكوفة ، فحمل الى الكوفة وعمره سبع سنوات ، فلما اتصل بمحمد بن على قال له « غير اسمك فانه لا يتم لنا الأمر الا بتغيير اسمك على ما وجدته فى الكتب » فسمى نفسه عبد الرحمن

وتكنى بأبى مسلم ، وزوجه ابراهيم الامام ابنة عمران بن اسماعيل الطائى المعروف بأبى النجم وهى بخراسان مع أبيها .

وقد توسم فيه ابراهيم الذكاء والقدرة العملية الفائقة فجعله موضع ثقته ، وأفضى اليه بأسرار الدعوة ، ورأى أنه خير من يمثله فى خراسان وأنه يمكن الاعتماد عليه والثقة به فى النهوض بهذه المهمة الشاقة ، وقال له حين أمره بالتوجه الى خراسان « انك رجل منا أهل البيت ، احفظ وصيتى ، انظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم ، وأما مضر فانهم العدو القريب الدار ، وأقتل من شككت فيه ، وان استطعت ألا تدع فى خراسان من يتكلم العربية فافعل ، وايما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » وهى وصية تستوجب أن يعجب الانسان لصدورها من أحد حفدة الحبر الكبير عبد الله بن عباس ! .

وقد صحت فراسة ابراهيم فى أبى مسلم ، وكان الرجل كفئا للدور الذى اختير له القيام به ، فكان شكله الخارجى لا يبدو عليه سرعة التأثر بالأحداث ، ولا تنال من عزمه الصدمات وعثرات الحظ ، وكان يحمل بين جنبيه قلبا لا يعرف الرحمة ، وكانت أشد الحوادث لا تطير بلبه ، ولا تفقده اتزانه ، وكان يسمع أخبار الانتصارات فلا يستطيره الفرح ، ولا يستخفه الغرور ، وفى أشد الأوقات ظلاما ، وأصعب الأزمات لا يبدو عليه القلق والضيق ، وكان اذا غضب لا يفقد سيطرته على أعصابه ، وكان حزمه وتواضعه ولين جانبه الظاهر يقرب الأعداء ويستصفى مودة الأصدقاء والأتباع ، وكانت قدرته على تنظيم الكتائب والجيوش وادارة الشؤون العامة تستدعى الاعجاب .

وقد أكمل العباسيون ما أخفق فيه العلويون وهم الفرع الآخر من البيت الهاشمى ، فقد حاول العلويون القضاء على الدولة الأموية ، ولكنهم لم يوفقوا فى ذلك وأخفقت الثورات التى

قاموا بها ، وكان من أسباب ذلك أنهم انقسموا الى عدة فرق ، ودعت كل فرقة منها لأحد أبناء البيت العلوى وشغلوا بالجدل والنقاش فى الوقت الذى كانت فيه الدعوة العباسية تمتاز بوحدة الصف ، واجتماع الكلمة ، واعداد الوسائل فى صبر وأناة ، وكانوا بوجه عام أكثر دهاء وأبرع سياسة من العلويين ، وأعدوا الوسائل القمينة بانجاح مساعيهم فى أقصى البلاد دون أن يتعجلوا الحوادث ليقطفوا الثمرة عند نضجها ، وأظهروا للموالى أنهم عازمون على تحسين أحوالهم ، ومساواتهم بالعرب ، ومشاركتهم فى الأمر ، متخذين من ذلك أساسا لبرنامجهم الاجتماعى ، وكان لاختيار رجل مثلى أبى مسلم لا ينتمى الى الأرومة العربية أثره فى التقريب ما بين الخراسانيين والعباسيين ، وميزة العباسيين أنهم كانوا فى سياستهم للأمور واقعيين يحسنون مواجهة الحوادث ، ولا يتصدون لمقاومة ما لا قبل لهم بمقاومته قبل أن يقوى ساعدهم وتتهيأ لهم أسباب الغلبة ، ويعرفوا الظروف المواتية والفرص السانحة مع اعداد الخطط المناسبة ، وكانوا يحيون حياة ظاهرها قائم على رواية الحديث والتفقه فى الدين وباطنها قائم على دراسة الأحوال الاجتماعية والتيارات السياسية، وكان لانتقالهم الى الحميمة تأثيره الملحوظ فى تاريخهم وتكوين شخصيتهم ، فقد كانت الحياة فى هذه القرية المنعزلة التى يحفها صمت الصحراء ، وجدوبتها تغريهم بكبت عواطفهم ، واخفاء مشاعرهم ، وتبعث فيهم الآمال ، وتثير الطموح ، فتزدهر جدوبتها وتستأنس وحشتها .

سقوط الدولة الأموية

روى المسعودى عن المنقرى قال (١) : سئل بعض شيوخ بنى أمية ومحصليها عقيب زوال الملك عنهم الى بنى العباس ، « ما كان سبب زوال ملككم ؟ » فقال « انا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من انصافنا ، وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا ، وخربت ضياعنا ، فخلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا ، وتأخر عطاء جندنا ، فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا ، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا ، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا » .

واذا كان ما روى عن هذا الشيخ الأموى صحيحا فانه قد عرف شيئا وغابت عنه أشياء ، وقد كان قيام الدولة الأموية نفسه يتضمن العوامل التى استنزفت حيويتها وقضت عليها ، وكان ماضى الأسرة فى مقاومتها العنيفة للاسلام حين ظهور الدعوة الاسلامية يلقى ظلا من الريبة على الحكم الأموى ، وبخاصة مع وجود من هم أحق منهم بتولى الخلافة لقرابتهم من النبى ومواقفهم المشرفة فى الدفاع عن الاسلام وتوطيد مكانته واعلاء

---

(١) مروج الذهب للمسعودى جزء ٣ صفحة ٢٤١ تحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد .

كلمته ، وقد استلزم موقف الأمويين كل ما أوتى معاوية من براعة وسياسة ودهاء وحكمة دنيوية ، قال عنه مؤلف الفخرى (١) « أما معاوية — رضى الله عنه — فكان عاقلا فى دنياه لبيبا عالما حليما ، ملكا قويا جيد السياسة حسن التدبير لأمور الدنيا .. يحلم فى موضع الحلم ويشتد فى موضع الشدة الا أن الحلم كان أغلب عليه » وقد خذله هذا الحلم فى معاملته لحجر بن عدى وأثار موجة من السخط عليه فى العالم الاسلامى كما أغضب المحافظين استلحاقه لزياد بن أبيه ، وأرجح أن معاوية كان فى شغل شاغل هم مقيم من ناحية وراثة الخلافة ، فلما أوحي اليه المغيرة برأيه صادف ذلك هوى شديدا فى نفسه ، فأقدم على طلب المبايعة ليزيد بعد وفاته ، وقد تأثر معاوية فى طلب المبايعة ليزيد ابنه بعاطفة الأبوة ، لأن يزيد كان كما يقول ابن طباطبا « موفر الرغبة فى اللهو والقنص والخمر والنساء والشعر ، وكان فصيحا كريما شاعرا مفلقا » ولكن هذه الصفات لم تكن تؤهله لنيل الخلافة فى رأى المجتمع الاسلامى ، وحقيقة أن معاوية أراد أن يجنب المسلمين حدوث النزاع الشديد المدمر على اختيار الذى يخلفه او ترك الأمر للشورى ، ولم يكن نظام الوراثة فى الحكم غير معروف عند العرب ، فقد كان متبعا عند الفرس والروم ، وعند الغساسنة فى الشام وعند اللخميين فى العراق ، وعند التبابعة وغيرهم من الأسر التى حكمت اليمن فى العصر الجاهلى ، ولكنه كان لا يتفق مع التعاليم الاسلامية والسوابق التى جرى عليها الخلفاء الراشدون ولذا أخذ على معاوية أنه حول الخلافة الدينية الى ملك عضوض ، وقد نعى عليه هذا المسلك حفيده وسميه معاوية بن يزيد حينما ولى الأمر بعد وفاة أبيه يزيد فقال وهو يخطب الناس (٢) « أما بعد حمد الله والثناء عليه أيها الناس انا بلينا

(١) الفخرى لابن طباطبا صفحة ٩٦ .

(٢) اليعقوبى جزء (٢) صفحة ٢٢٦/٢٢٧ .

بكم وبليتم بنا ، فما نجهل كراهتكم لنا وطعنكم علينا ، ألا وأن جدى معاوية بن أبى سفيان نازع الأمر من كان أولى به منه فى القرابة برسول الله ، وأحق فى الاسلام سابق المسلمين وأول المؤمنين وابن عم رسول رب العالمين وأبا بقية خاتم المرسلين ، فركب منكم ما تعلمون وركبتم منه ما لا تفكرون حتى أتته منيته وصار رهنا بعمله ، ثم قلد أبى وكان غير خليق للخير ، فركب هواه واستحسن خطأه ، وعظم رجاؤه ، فأخلفه الأمل ، وقصر عنه الأجل فقلت منعته وانقطعت مدته وصار فى حفرته رهنا بذنبه وأسيرا بجرمه ».

وفى أوائل خلافة يزيد حدثت مأساة كربلاء ، ولم تعصف بملك الأمويين ولكنها كانت من أكبر البواعث التى زلزلت عرشهم ، وأدالت دولتهم .

ومما ساعد معاوية على أن يستتب له الأمر ، ويستقيم له السلطان محافظته على التوازن بين الشعبتين العربيتين الكبيرتين، وهما الشعبة اليمنية أو القحطانية والشعبة المضرية أو العدنانية أو النزارية وكانت تمثل اليمنية قبيلة كلب ويمثل المضرية قبيلة قيس ، وترشيح يزيد للخلافة أرضى قبيلة كلب لأن أم يزيد كلبية ، واستطاع معاوية بكياسته المعهودة أن يتغلب على معارضة قيس فى هذا الترشيح ، ومن سوء حظ الأمويين أن خلفاءهم المتأخرين انحرفوا عن هذه السياسة الحكيمة ، وقد ناصر الكلبيون الأمويين فى واقعة مرج راهط وتغلبوا على القيسية ، ولكن عبد الملك والوليد كانا أكثر حزما وأبعد نظرا من أن يتورطا فى الانضمام الى الشعبة اليمنية والتعصب على القيسية مع علمهما أن هزيمة القيسيين تركت فى نفوسهم أثرا عميقا ، ولما ولى الخلافة سليمان بن عبد الملك مال الى جانب اليمنية ، وأساء معاملة القيسيين وتنكر لآل الحجاج وبسط العذاب عليهم ، واضطر قتيبة بن مسلم الباهلى الى الثورة معتمدا على ماضيه ، ولكنه

تخلى عنه أنصاره وقتل ، وفى عهد خلافة يزيد بن عبد الملك ثار يزيد بن المهلب،وكان يزيد بن عبد الملك قد تزوج ابنة محمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج فأنجبت له ابنه الوليد الذى صار خليفة فيما بعد ، ولذلك كان يبغض آل المهلب ، وقد انضمت ليزيد بن المهلب قبائل اليمن أى الازد وربيعة وكانتا متحالفتين وقتل يزيد وكثيرون من آل المهلب فى هذه الثورة .

ولما توفى يزيد بن عبد الملك بعد أربع سنوات من حكمه خلفه أخوه هشام ، وكان من أقدر الخلفاء الأمويين ، ولما وجد أن القيسية قد اشتد أمرها وعلت قوتها عمل على التخلص منها والانحياز الى جانب اليمنية كى يعيد التوازن بين الشعبتين ، فعزل العمال المضريين ، وولى مكانهم بعض اليمنيين ، فاستعمل خالدا القسرى على العراق وأخاه أسدا على خراسان ،فأخذالعنصر اليمنى يعلو شأنه ويسترد قوته ، وضعف شأن المضرية ، ولكن هشاما لم يتبع سياسة ثابتة بازاء القبائل فانه بعد انحيازه الى جانب اليمنية حتى رجحت كفتهم تحول عنهم الى القيسية ، واستعمل منهم العمال ، فولى يوسف بن عمر الثقفى العراق ونصر بن سيار خراسان ، ولم يكتف بذلك بل أطلق يد ابن عمر فى التنكيل بخالد القسرى الذى كان اليمنيون يعدونه زعيمهم ، ولما مات هشام وخلفه الوليد بن يزيد بن عبد الملك أخذ الوليد جانب المضرية لأن أمه كانت منهم ، وأسلم خالدا القسرى ليوسف ابن عمر فعذبه حتى قضى خالد نحبه مما أثار عوامل السخط فى نفوس اليمنية على الوليد بن يزيد ، وكان من حسن حظ اليمنية أن الناس ملت حكم الوليد ، وقد اتهم باللهو الذى يحرمه الدين والاسراف فى شرب الخمر والخلاعة والمجون وذاعت أخبار تبذله ومجونه حتى كثر الطعن عليه والنيل منه وأساء معاملة بنى هشام وبنى الوليد ، وكان أشدهم قولا فيه يزيد بن الوليد ، وكانت الناس اليه أميل لأنه كان يظهر النسك ، وعرفت اليمنية ذلك فأتوا بيزيد

ابن الوليد وأرادوه على البيعة وخلع الوليد ، فامتنع عليهم وخاف أن لا تبايعه الناس ، ثم لم يزالوا به حتى بايعوه سرا ، ولما قتل الوليد بن يزيد خطب يزيد الناس ليبرر سلوكه ومشاركته فى القضاء على حكم الوليد قائلا انه لم يخرج على حكم الوليد حرصا على الدنيا ، ولا رغبة فى الملك ، وانما خرج غضبا لله ودينه ، وداعيا الى كتاب الله وسنة نبيه ، ولزم يزيد جانب اليمنية وأخذ يولى العمال منهم ليساعدوه فى توطيد حكمه ، وأطلق اليمنيون يدهم فى تعذيب المضريين حتى أثاروا ثائرتهم فأشعلوا نار الثورة فى حمص وانضم اليهم بعض أفراد الأسرة الأموية مثل يزيد بن خالد ابن يزيد بن معاوية وغيره من أفراد البيت الأموى ، ولم يطل عهد يزيد فقد توفى بعد أن بقى فى الخلافة خمسة أشهر ، وقام بالأمر بعده أخوه ابراهيم بن الوليد فلم يمكث فى الخلافة أكثر من شهرين، وقدم مروان بن محمد من الجزيرة الى دمشق لخلعه ، فهرب منه ابراهيم ولكن مروان ظفر به وقتله وصلبه وقتل من مالأه وكان ذلك مدعاة لاشتعال نار العصبية القبلية فى البدو والحضر ، ولما دخل مروان الشام كان يريد أن تكون الخلافة لابنى الوليد بن يزيد، ولكن اليمنيين عمدوا الى قتلهما خشية أن يليا الخلافة فيعملا على الانتقام منهم ، ولما قتلا شهد محمد السفيانى بأنهما جعلا الخلافة بعدهما لمروان بن محمد ، وبايعه أهل الشام ، وتعصب مروان للقيسية وولى منهم ، وأثار ذلك حنق اليمنية فأحدثوا القلاقل ، وكثرت الثورات بالشام ، لأن أكثر أهلها من العنصر اليمنى ، وكان مروان يحكم أرمينيا بقوة واقتدار ، وطالما رد هجمات الأتراك فى زحفهم على الأطراف الشمالية ، وكان قوى الاحتمال جلدا صبورا حتى لقب بالحمار لا تنقصا لقدره ، وانما تقديرا لصبره ومصابرته، واعترافا بقوة احتماله ومضاء عزيمته ، وكان على خلاف الكثيرين من أفراد أسرته المسرفين فى طلب المتعة وانتهاب اللذة ناسكا متقشفا فى عاداته وأسلوب حياته ، وكان فى المعسكر وابان الحرب

يعيش مثل جنوده ، ويشاركهم فى بساطة حياتهم ، ولم يكن فى قصره يلهو ويلتمس الدعة ، ويسرف فى الترف مثل سائر الأمويين، وكان ولوعا بقراءة كتب التاريخ والاطلاع على السير ومبادلة الحديث مع أصدقائه من أصحاب الرأى والنزاعين الى الفكر ، وكان متقدما فى السن حينما أسندت اليه الخلافة ، ولكن خفة حركاته التى مكنته من سحق أعدائه ومقاومى خلافته الذين ظهروا من كل جانب كانت تدل على أن السن لم توهن عزمه ، ولكن الموقف بوجه عام كان يستلزم مواهب أكثر من مواهب الجندى البارع الشجاع وهو القدرة على التسامى فوق العصبيات القبلية، ولو كان مروان أوتى الحكمة السياسية التى تحول بينه وبين الاندفاع الشديد فى الخلافات القبلية لأمكنه السيطرة على الموقف والابقاء على كيان الدولة الأموية ، وهو بدلا من أن يعمل على رأب الصدع ، وجمع الشمل ، أبى الا الانقياد لطبيعته غير المكبوحة فى عناد وصلابة كانت من أقوى الأسباب فى القضاء عليه وعلى أسرته.

ولم تكن الحالة فى العراق أحسن منها فى الشام ، فقد اشتد بها الخلاف القبلى حتى ظهر الضحاك بن قيس الخارجى واستولى عليه كما استولى فريق من الخوارج على اليمن والحجاز ، وأصبحت البلاد كلها مرتعا للفتن والاضطرابات ، وقد شغل اخماد هذه الفتن مروان عن الالتفات الى خراسان ومراقبة الأحداث الجارية بها واغتنام العباسيين الفرصة لبث دعوتهم واعداد العدة ليقوموا بالثورة العلنية ويجهزوا على الدولة الأموية .

وقد وقعت الخلافات القبلية بين اليمنية والمضرية فى خراسان ومكنت لدعاة العباسيين ، وكان سببها أن جديع بن على المعروف بالكرمانى وكان من كبار زعماء اليمنية لم يرض عن معاملة نصر بن سيار حاكم خراسان لليمنية ، وتعصبه للمضرية ، وكان نصر لا يستعين بأحد من اليمنية ، وعادى ربيعة لأنها كانت مخالفة لليمنيين ، ولما عاتبه الكرمانى فى ذلك قال له نصر «ما أنت وذاك !»

فقال له الكرمانى « انما أريد بذلك صلاح أمرك فانى أخاف أن يفسد عليك سلطانك ويحمل عليك عدوك هذا المطل » وكان يقصد بذلك جماعة أبى مسلم ، فقال له نصر « أنت شيخ قد خرفت » فأسمعه الكرمانى كلاما غليظا أغضبه ، فأمر نصر بحبسه فى احدى القلاع العتيقة ، واجتمعت المضرية الى نصر وشايعته على ذلك ، وتمكن الكرمانى من الافلات من سجن نصر ، واجتمعت اليه الازد وسائر من بخراسان من اليمنية ، واتفق أشراف اليمن وعظماء ربيعة حلفاء اليمن على أن ينصر بعضهم بعضا ويكون أمرهم واحدا، وبدأت الحرب بين نصر ومعه المضرية وقيس وتميم واستمرت الحرب عشرين شهرا ، وشغل ذلك الفريقين عن أمر أبى مسلم وأصحابه حتى اشتد ركنه ، وذاعت دعوته فى شتى أنحاء خراسان ،وقد اغتنم أبو مسلم هذه الفرصة لتنظيم صفوفه وأخذ أهبته ، ولما جاهر باعلان الدعوة لم يكن عند نصر من القوة والنفوذ ما يكفى لاخماد حركة أبى مسلم والقضاء على ثورته .

وفى أثناء ذلك كانت الرسل تختلف بين السياسى الداهية والقائد الموهوب أبى مسلم الخراسانى وهو مقيم فى مرو وبين زعيم العباسيين الامام ابراهيم بن محمد المقيم فى قرية الحميمة ، وكان مروان وهو فى غمار الأحداث المتتابعة والفتوق المتوالية يعرف شيئا عن العلاقة الغامضة بين العباسيين وبين تلك الحركة الخطيرة والثورة العنيفة التى بدأت فى خراسان ، وأخذت تنتقص أطراف دولته ، ولكنه كان ينقصه البرهان القاطع والحجة الدامغة ، وفى ثورة من ثورات الغضب أمر مروان رجاله بأن يشددوا الرقابة على الطريق بين خراسان والحميمة ، ليجد الوثيقة التى تسوغ له اتهام الزعيم العباسى ، وأثمرت المراقبة ثمرتها المرجوة ، فبعد أيام معدودات من هذا التشديد مثل بين يديه أحد أتباعه ومعه رسول يحمل رسالة من الامام ابراهيم الى أبى مسلم الخرسانى يوصيه فيها بالجد فى أمره ويرسم له الحدود التى يتبعها والخطط

التى يأخذ نفسه بتنفيذها ، وكانت هذه الرسالة مكتوبة بخط ابراهيم وممهورة بتوقيعه ، ولما تأمل مروان كتاب ابراهيم سر به على ما كان يحتضره فى هذه الأيام العصيبة من هموم ومتاعب ، وما كان يهجس فى نفسه من الهواجس لأنه وجد فيه الحجة التى كان يلتمسها منذ زمن للقبض على ابراهيم وارغامه والخلاص منه ، وقد كان الأمويون يجدون متعة ومسلاة فى اذلال تلك الأسر الكبيرة التى كانت تنافسهم قديما فى الرياسة ، وتساميهم فى المكانة، وكانوا يرحبون بالفرص التى تتيح لهم ذلك ، فلم يتردد مروان فى اصدار أمره الى عامل دمشق بأن يكتب الى عامل البلقاء بالتوجه الى الحميمة ، والقبض على ابراهيم ، وأشخاصه الى حران ، ليتولى مروان بنفسه التحقيق معه ، وكان لهذه المفاجأة وقع أليم فى نفس ابراهيم وأهل بيته وأبناء عمومته ، ولكن العباسيين كانوا قد تعودوا اخفاء عواطفهم ، وكتمان أمرهم ، فلم يلبث ابراهيم أن استفاق من صدمة المفاجأة ، وثاب اليه صفاء تفكيره ، وأدرك الموقف على حقيقته ، ولم يكن يتوقع النجاة من قبضة مروان ، ولذا نعى نفسه الى أهل بيته ، وأمرهم بالمسير الى الكوفة مع أخيه أبى العباس ، وبالسمع والطاعة له ، وأوصى الى أبى العباس وجعله الخليفة من بعده .

وجرى بين ابراهيم ومروان حينما مثل بين يديه حديث طويل ، وأغلظ له ابراهيم وأنكر كل ما ذكره له مروان من أمر أبى مسلم ، فقال له مروان « يا منافق » أليس هذا كتابك الى أبى مسلم ، جوابا عن كتابه اليك ،، وأخرج اليه الرسول ، وقال له « أتعرف هذا » .

فلما رأى ذلك ابراهيم عجز عن الجواب وأمسك ، وعلم أنه أتى من مأمنه كما يقول المسعودى واختلفت الروايات فى كيفية قتل ابراهيم الامام فقيل غطى وجهه بقطيفة حتى مات وقيل أدخل رأسه فى جراب نورة حتى مات .

وكان أمر أبى مسلم قد قوى وغلب على أكثر خراسان وضعف أمر نصر بن سيار من عدم النجدة ، فخرج عن خراسان حتى أتى الرى ، وخرج عنها فنزل ساوة بين همذان والرى فمات بها كمدا ، وقد كان نصر لما صار بين الرى وخراسان كتب الى مروان يذكر فيه خروجه عن خراسان ، وضمن كتابه أبياتا من الشعر وهى :

انا وما نكتم من أمرنا
كالثور اذ قرب للناخع

أو كالتى يحسبها أهلها
عذراء بكرا وهى فى التاسع

كنا نرفيها فقد مزقت
واتسع الخرق على الراقع

كالثوب اذ أنهج فيه البلى
أعيا على ذى الحيلة الصانع

وفى رواية المسعودى أن ابراهيم الامام كان قد أوصى مولاه سابقا الخوارزمى أن حدث به حادث من مروان فى ليل أو نهار أن يجد السير الى الحميمة حتى يدفع الوصية الى أخيه أبى العباس، فلما قضى ابراهيم نحبه أسرع سابق فى المسير حتى أتى الحميمة ، فدفع الوصية الى أبى العباس ونعاه اليه ، وأظهر أبو العباس أهل بيته على أمره ، ودعا الى مؤازرته أخاه أبا جعفر وعيسى بن موسى بن محمد ابن أخيه وعبد الله بن على عمه وتوجه أبو العباس الى الكوفة مسرعا ، وهؤلاء معه وغيرهم ممن خف من أهل بيته ، ويروى المسعودى أن أعرابية لقيتهم على بعض مياه العرب فى طريقهم الى الكوفة ، وقد تقدم أبو العباس وأخوه أبو جعفر وعمه عبد الله ابن على فيمن كان معهم الى الماء ، فقالت الأعرابية « تالله ما رأيت وجوها مثل هذه ما بين خليفة وخليفة وخارجى ، فقال لها أبو جعفر

« كيف قلت يا أمة الله ؟ » قالت « والله ليلينها هذا ، وأشارت الى السفاح ، ولتخلفنه أنت ، وليخرجن عليك هذا » ، وأشارت الى عبد الله بن على .

ولما انتهوا الى دومة الجندل لقيهم داود بن على وموسى بن داود وهما منصرفان من العراق الى الحميمة ، فسأل داود أبا العباس عن مسيرهم ، فأخبره بسببه ، وأعلمه بحركة أهل خراسان لهم مع أبى مسلم ، وأنه يريد الوثوب بالكوفة ، فقال له داود « يا أبا العباس، تثب بالكوفة ومروان شيخ بنى أمية وزعيمهم فى أهل الشـــام والجزيرة مطل على أهل العراق ، وابن هبيرة شيخ العرب فى جلة العرب بالعراق ». فقال أبو العباس « يا عماه ؛ من أحب الحياة ذل»، وتمثل بقول الأعشى :

فما ميتة ان متها غـــير عاجـــز

بعار اذا ما غالت النفس غولهـــا

فالتفت داود الى ابنه موسى فقال « أى بنى ، صدق ابن عمك، ارجع معه نحيا اعزاء أو نموت كراما » .

فعطفا ركابهما معه ، واتجهوا بعد ذلك الى ناحية الشـــمال الشرقى ضاربين فيما بين بادية العراق وبادية الجزيرة آخذين فى طريق الكوفة ، ولما شارفوا الكوفة ، وجه أبو العباس رسولا الى أبى سلمة كبير دعاة العباسيين بها ، فأنكر مقدمهم ، وقال للرسول « خاطروا بأنفسكم ، وعجلوا فليقيموا بقصر مقاتل — وهو على مرحلتين من الكوفة — حتى ننظر فى أمرنا » فعاد اليه الرسول ، وكتبوا اليه « انا فى برية ولا نأمن قصد جيوش الشام ايانا لأنهم بهيت على ثلاث مراحل منا » وسألوه الاذن لهم فى الدخول الى الكوفة ليتحرزوا بها ، فأذن لهم على كره منه ، وكتم أمرهم نحوا من شهرين عن جميع القواد والشيعة ، ويقول المسعودى « كان

أبو سلمة حين بلغه مقتل ابراهيم الامام أضمر الرجوع عما كان عليه من الدعوة العباسية الى آل أبى طالب ، ويعلل المسعودى ذلك بأنه خاف انتقاض الأمر وفساده عليه بعد مقتل ابراهيم الامام ، فبعث برسول وكتب معه كتابين على نسخة واحدة الى أبى عبد الله جعفر بن محمد المعروف باسم جعفر الصادق ، والى أبى محمد عبد الله بن الحسن يدعو كل واحد منهما الى الشخوص اليه ليصرف الدعوة اليه ، ويجتهد فى بيعة أهل خراسان له ، وقال للرسول « العجل العجل » فلا تكونن كوافد عاد . فلما قدم رسوله المدينة على جعفر الصادق وأعلمه أنه رسول أبى سلمة ودفع اليه الكتاب قال له جعفر « وما أنا وأبو سلمة ؟ وأبو سلمة شيعة لغيرى » ، فقال له حامل الكتاب « انى رسول فتقرأ كتابه وتجيبه بما رأيت » فدعا جعفر بسراج ثم أخذ الكتاب فوضعه على السراج حتى احترق ، وقال للرسول « عرف صاحبك بما رأيت » وخرج الرسول من عنده وأتى عبد الله بن الحسن ، فدفع اليه الكتاب ، فقبله وقرأه وابتهج به ، وفى اليوم التالى ركب حتى أتى منزل جعفر الصادق ، فلما رآه جعفر أكبر مجيئه وقال له « يا أبا محمد أمر ما أتى بك » فقال عبد الله « نعم هو أجل من أن يوصف » فقال جعفر « وما هو يا أبا محمد ؟ » قال « هذا كتاب أبى سلمة يدعونى الى ما أقبله ، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان » فقال له جعفر الصادق « يا أبا محمد ومتى كان أهل خراسان شيعة لك ؟ أنت بعثت أبا مسلم الى خراسان ، وأنت أمرته بلبس السواد ؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وجهت فيهم ؟ وهل تعرف منهم أحدا ؟ » .

فنازعه عبد الله الكلام ، الى أن قال له « انما يريد القوم ابنى محمدا لأنه مهدى هذه الأمة » . فقال له جعفر « والله ما هو مهدى هذه الأمة ، ولئن شهر سيفه ليقتلن » .

فاسترسل عبد الله فى منازعته حتى قال له « والله ما يمنعك من ذلك الا الحسد » فقال له جعفر « والله ما هذا الا نصح منى لك ، ولقد كتب الى أبو سلمة بمثل ما كتب به اليك ، فلم يجد رسوله عندى ما وجد عندك ، ولقـــد أحرقت كتابه من قبل أن أقرأه » فانصرف عبد الله من عند جعفر مغضبا ، ولم ينصرف رسول أبى سلمة اليه الى أن بويع لأبى العباس بالخلافة ، ولسنا نعرف السبب الحقيقى الذى بعث أبا سلمة الخلال على محاولة نقل الدعوة من العباسيين الى العلويين ، فهل تأثر بوجهة نظر أهل الكوفة وهم شيعة على أو خـــاف من تزايد نفـــوذ أبى مسلم والخراسانيين فأراد أن يستجلب العلويين لترجح كفته على كفة الشيعة الخراسانية ، ومهما يكن من الأمر فانه يبدو أنه كانت هناك منافسة أو صراع على السيطرة والنفوذ بين زعيم الدعاة فى الكوفة وكبير الدعاة فى خراسان .

ولما قدم أبو العباس وجماعته الكوفة أنزلهم أبو سلمة دار الوليد بن سعد ، وأخفى أمر أبى العباس ومن معه ، وكتم أمرهم نحوا من أربعين ليلة عن جميع القواد والشيعة ، ولما سأله أبو الجهم — وهو من الشيعة الخراسانية — قائلا « ما فعل الامام ؟ » قال له « لم يقدم بعد » فلما ألح عليه قال له « أكثرت السؤال ليس هذا وقت خروجه » .

واتفق أن لقى أبو حميد — وهو من الشـــيعة الخراسانية — سابقا الخوارزمى مولى ابراهيم الامام ، فسأله عن ابراهيم الامام، فقال له سابق « قتله مروان فى الحبس » فقال له أبو حميد « فالى من الوصية ؟ » فقال سابق « لأخيه أبى العباس » فقال « وأين هو ؟ » قال « معك بالكوفة هو وأخوه وجماعة من عمومته وأهل بيته » فقال له « مذ متى هنا ؟ » قال « من شـــهرين » قال « فتمضى بنا اليهم » فقال له سابق « غدا بينى وبينك الموعد فى هذا الموضع » .

وأراد سابق أن يستأذن أبا العباس فى ذلك ، فانصرف اليه فأخبره ، فلامه أبو العباس اذ لم يأت به معه اليهم .

ومضى أبو حميد فأخبر جماعة من قواد خراسان فى عساكر أبى سلمة بذلك وكان منهم أبو الجهم وموسى بن كعب ، وغـدا سابق الى لقاء أبى حميد ، ومضيا حتى دخلا على أبى العباس ومن معه ، فقال أبو حميد « أيكم الامام ؟ » فأشار داود بن على الى أبى العباس ، وقال « هذا خليفتكم » فأكب أبو حميد على أطرافه يقبلها وسلم عليه بالخلافة ، وأبو سلمة لا يعلم ذلك ، وأتاه وجوه القواد فبايعوه ، وعلم أبو سلمة بذلك فبايعه ، وقدمت الخيول فركب أبو العباس ومن معه حتى أتوا قصر الامارة ، وذلك فى يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر من سنة ١٣٢ ، ثم دخل المسجد الجامع من دار الامارة فحمد الله وأثنى عليه وذكر تعظيم الرب ومنته وفضل النبى صلى الله عليه وسلم ، ووعد الناس خيرا ثم سكت فتكلم عمه داود بن على وهو على المنبر دون أبى العباس فقال « انه والله ما كان بينكم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفة الا على عليه السلام وأمير المؤمنين هذا الذى خلفى » ثم نزلا .

وخرج أبو العباس الى عسكر أبى سلمة فنزل فى حجرته ، واستخلف على الكوفة وأرضها عمه داود بن على ، وبعث بعمه عبد الله بن على الى أبى عون عبد الملك بن يزيد فسارا معا للقاء مروان ، وحدثت موقعة الزاب التى أسفرت عن هزيمة مروان وهربه الى مصر وقتله ببوصير .

نشأة أبى جعفر المنصور

كان أحد الذين حضروا موسم الحج سنة ١٢٥ هجرية رجلا من الرجال المطبوعين على حب استطلاع الأخبار ، وكشف الأسرار، والوقوف على مجريات الأحوال ، ورواية النوادر المستملحة ، والطرف الشائقة بأسلوب درامى جذاب ، وهذا الرجل هو شبيب ابن شيبة الأهتمى صاحب خالد بن صفوان المحدث البارع المشهود له بالبلاغة وحسن البيان ، وقد روى شبيب الرواية الآتية ، قال « حججت عام هلك هشام وولى الوليد بن يزيد ، وذلك سنة خمس وعشرين ومائة ، فبينما أنا مريح ناحية من المسجد اذ طلع من بعض أبواب المسجد فتى أسمر رقيق السمرة ، موفر اللمة ، خفيف اللحية ، رحب الجبهة ، أقنى بين القنى ، أعين كأن عينيه لسانان ينطقان ، يخلط أبهة الأملاك بزى النساك ، تقبله القلوب ، وتتبعه العيون ، يعرف الشرف فى تواضعه ، والعتق فى صورته ، واللب فى مشيته ، فما ملكت نفسى أن نهضت فى اثره سائلا عن خبره ، وسبقنى فتحرم بالطواف ، فلما سبع قصد المقام فركع ، وأنا أرعاه ببصرى ، ثم نهض منصرفا ، فكأن عينا أصابته ، فكبا كبوة دميت لها أصبعه ، فقعد لها القرفصاء ، فدنوت منه متوجعا لما ناله متصلا به أمسح رجله من عفر التراب ، فلا يمتنع على ، ثم شققت حاشية ثوبى فعصبت بها اصبعه ، وما ينكر ذلك ولا يدفعه ، ثم نهض متوكئا على ، وانقدت له أماشيه ، حتى اذا أتى دارا بأعلى مكة ابتدره رجلان تكاد صدورهما تنفرج من هيبته، ففتحا له الباب ، فدخل واجتذبنى فدخلت بدخوله ، ثم خلى يدى

وأقبل على القبلة فصلى ركعتين أوجز فيهما فى تمام ، ثم استوى فى صدر مجلسه ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم أتم صلاة وأطيبها » ، ثم قال « لم يخف على مكانك منذ اليوم ولا فعلك بى ، فمن تكون يرحمك الله ؟ » .

قلت « شبيب بن شيبة التميمى » .

قال « الأهتمى ؟ » .

قلت « نعم » .

قال « فرحب وقرب ، ووصف قومى بأبين بيان ، وأفصح لسان » ، فقلت له « أنا أجلك ، أصلحك الله عن المسألة ، وأحب المعرفة » ، فتبسم وقال « لطف أهل العراق ، أنا عبد الله بن محمد ابن على بن عبد الله بن عباس » .

فقلت « بأبى أنت وأمى ، ما أشبهك بنسبك ، وأدلك على منصبك ، ولقد سبق الى قلبى من محبتك ما لا أبلغه بوصفى لك » .

قال « فاحمد الله يا أخا بنى تميم ، فانا قوم يسعد الله بحبنا من أحبه ، ويشقى ببغضنا من أبغضه ، ولن يصل الايمان الى قلب حتى يحب الله ويحب رسوله ، ومهما ضعفنا عن جزائه قوى الله على أدائه » .

فقلت له « أنت توصف بالعلم ، وأنا من حملته ، وأيام الموسم ضيقة ، وشغل أهل مكة كثير ، وفى نفسى أشياء أحب أن أسأل عنها ، أفتأذن لى فيها جعلت فداك ؟ » .

قال « نحن من أكثر الناس مستوحشون ، وأرجو أن تكون للسر موضعا ، وللأمانة واعيا ، فان كنت كما رجوت فافعل » .

قال « فقدمت من وثائق القول والايمان ما سكن اليه » ، فتلا

قول الله « قل أى شىء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بينى وبينكم » ثم قال « سل عما بدالك » .

قلت « ما ترى فيمن على الموسم ؟ » .

وكان عليه يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى خال الوليد .

فتنفس الصعداء وقال « عن الصلاة خلفه تسألنى أم كرهت أن يتأمر على آل الله من ليس منهم ؟ » .

قلت « عن كلا الأمرين » .

قال « ان هذا عند الله لعظيم ، فأما الصلاة ففرض لله تعبد بها خلقه ، فأد ما فرض الله تعالى عليك فى كل وقت مع كل أحد وعلى كل حال ، فان الذى ندبك لحج بيته وحضور جماعته وأعياده لم يخبرك فى كتابه بأنه لا يقبل منك نسكا الا مع أكمل المؤمنين ايمانا ، ولو فعل ذلك بك ضاق عليك الأمر ، فاسمح يسمح لك » .

ثم كررت فى السؤال عليه ، فما احتجت أن أسأل عن أمر دين أحدا بعده ، ثم قلت « يزعم أهل العلم أنها ستكون لكم دولة » .

فقال « لا شك فيها ، تطلع طلوع الشمس وتظهر ظهورها ، فنسأل الله خيرها ، ونعوذ بالله من شرها ، فخذ بحظ لسانك ويدك منها ان أدركتها » .

قلت « أو يتخلف عنها أحد من العرب وأنتم سادتها ؟ » .

قال « نعم ، قوم يأبون الا الوفاء لمن اصطنعهم ، ونأبى الا طلبا بحقنا ، فننتصر ويخذلون ، كما نصر بأولنا أولهم ، ويخذل بمخالفتنا من خالف منهم » .

قال « فاسترجعت » .

فقال « سهل عليك الأمر ، سنة الله التى قد خلت من قبل ،

ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وليس ما يكون منهم بحاجز لنا عن صلة أرحامهم ، وحفظ أعقابهم ، وتجديد الصنيعة عندهم » .

قلت « كيف تسلم لهم قلوبكم وقد قاتلوكم مع عدوكم ؟ » .

قال « نحن قوم حبب الينا الوفاء وان كان علينا وبغض الينا الغدر وان كان لنا ، وانما يشذ علينا منهم الأقل ، فأما أنصار دولتنا ونقباء شيعتنا وأمراء جيوشنا فهم ومواليهم معنا ، وموالى القوم من أنفسهم ، فاذا وضعت الحرب أوزارها صفحنا بالمحسن عن المسيء ، ووهبنا للرجل قومه ومن اتصل باسبابه ، فتذهب النائرة ، وتخبو الفتنة ، وتطمئن القلوب » .

قلت « ويقال انه يبتلى بكم من أخلص لكم المحبة » .

قال « قد روى أن البلاء أسرع الى محبينا من الماء الى قراره » .

قلت « لم أرد هذا » .

قال « فمه ؟ » .

قلت « تعقون الولى وتحظون العدو » .

قال « من يسعد بنا من الأولياء أكثر ، ومن يسلم منا من الأعداء أقل وأيسر ، وانما نحن بشر ، وأكثرنا أذن ، ولا يعلم الغيب الا الله ، وربما استترت عنا الأمور فنقع بما لا نريد ، وأن لنا لاحسانا يأسو الله به ما نكلم ، ويرم به ما نثلم ، ونستغفر الله مما لا نعلم ، وما أنكرت من أن يكون الأمر على ما بلغك ، ومع الولى التعزز والادلال ، والثقة والاسترسال ، ومع العدو التحرز والاحتيال ، والتذلل والاغتيال ، وربما أمل المدل ، وأخل المسترسل ، وتجانب المتقرب ، ومع المقة تكون الثقة ، على أن العاقبة لنا على عدونا ، وهى لولينا ، وانك لسؤول يا أخا بنى تميم » .

قلت « انى أخاف أن لا أراك بعد اليوم » .

قال « انى لأرجو أن أراك وترانى كما تحب عن قريب ان شاء الله تعالى » .

قلت « عجل الله ذلك » .

قال « آمين » .

قلت « ووهب لى السلامة منكم فانى من محبيكم » .

قال « آمين » وتبسم . وقال « لا بأس عليك ما أعاذك الله من ثلاث » .

قلت « وما هى ؟ » .

قال « قدح فى الدين ، أو هتك للملك ، أو تهمة فى حرمة » ثم قال « احفظ عنى ما أقول لك ، أصدق وان ضرك الصدق ، وانصح وان باعدك النصح ، ولا تجالس عدونا وان أحظيناه فانه مخذول ، ولا تخذل ولينا وان أبعدناه فانه منصور ، وأصحبنا بترك المماكرة ، وتواضع اذا رفعوك ، وصل اذا قطعوك ، ولا تستخف فيمقتوك ، ولا تنقبض فيحشموك ، ولا تبدأ حتى يبدءوك ولا تخطب الأعمال ، ولا تتعرض للأموال ، وأنا رائح من عشيتى هذه فهل من حاجة ؟ » .

فنهضت لوداعه فودعته ، ثم قلت « أترقب لظهور الأمر وقتا ؟ » .

قال « الله المقدر الموقت ، فاذا قامت النوحتان بالشام فهما آخر العلامات » .

قلت « وما هما ؟ » .

قال « موت هشام العام وموت محمد بن على مستهل ذى القعدة وعليه أخلفت ، وما بلغتكم حتى انضيت » .

قلت « فهل أوصى ؟ » .

قال « نعم ، الى ابنه ابراهيم » .

قال « فلما خرجت فاذا مولى له يتبعنى حتى عرف منزلى ، ثم أتانى بكسوة من كسوته ، فقال « يأمرك أبو جعفر أن تصلى فى هذه » وافترقنا ، فوالله ما رأيته الا وحرسيان قابضان على يدنيانى منه فى جماعة من قومى لأبايعه ، فلما نظر الى أثبتنى ، فقال « خليا عمن صحت مودته ، وتقدمت حرمته ، وأخذت قبل اليوم بيعته ».

« فأكبر الناس ذلك من قوله ، ووجدته على أول عهده لى » ثم قال لى « أين كنت عنى فى أيام أخى أبى العباس ؟ » .

« فذهبت أعتذر » .

قال « أمسك ، فان لكل شىء وقتا لا يعدوه ، ولن يفوتك ان شاء الله حظ مودتك ، وحق مسابقتك ، فاختر بين رزق يسعك أو عمل يرفعك » .

قلت « أنا حافظ لوصيتك » .

قال « وأنا لها أحفظ ، انما نهيتك أن تخطب الأعمال ، ولم أنهك عن قبولها » .

قلت « الرزق مع قرب أمير المؤمنين أحب الى » .

قال « ذلك لك ، وهو أجـــم لقلبك ، وأودع لك وأعفى ان شاء الله » ثم قال « هل زدت فى عيالك بعدى شيئا ؟ » وكان قد سألنى عنهم فذكرتهم له ، فعجبت من حفظـــه وقلت « الفرس والخدم » .

فقال « قد ألحقنا عيالك بعيالنا ، وخدمك بخدمنا وفرسك بخيلنا ، ولو وسعنى لحملت اليك بيت المال ، وقد ضممتك الى المهدى ، وأنا أوصيه بك ، فانه أفرغ لك منى » .

* * *

وقد ولد أبو جعفر بالحميمة سنة ٩٥ هجرية ، وكانت أمه سلامة جارية بربرية من قبيلة صنهاجة ، وهى من القبائل المعروفة

فى تاريخ المغرب ، ويقال انها جلبت من مدينة نفزة المغربية فاشتراها محمد بن على وحظيت عنده ، وولدت له عبد الله أبا جعفر فأعتقها وتزوجها وقد درس أبو جعفر فى ابان نشأته النحو واللغة والتاريخ، وعنى بقراءة القرآن ، وتفهم معانيه ورواية الأحاديث والسنن والتعمق فى الفقه واستنباط الأحكام والشرائع وحفظ الخطب البليغة ، والقصائد الرائعة ، وألم بعلم الفلك والنجوم وتنقل فى الحواضر الاسلامية فذهب الى البصرة والكوفة والموصل ، وكان يحضر فى هذه المدن حلقات الدراسات فى الأدب والفقه ، واتصل بكثير من العلماء والفقهاء المعاصرين له ، وتلقى عنهم وتتلمذ عليهم ، وكان ممن لقيهم الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب وأزهر السمان وغيرهم ، وذكر(١) ابن الابار فى الحلة السيراء أنه دخل أفريقية ــ وهو اذ ذاك سوقة ــ وانه كان يقال له فى صغره « مقلاص » وهى الناقة التى تسمن فى الصيف وتهزل فى الشتاء ، وكذلك كان أبو جعفر ، وفى جمهرة الأنساب لابن حزم أن أبا جعفـــر تزوج أم موسى الحميرية بالقيروان فى دولة بنى أمية وكانت قبله عند فتى خليع من ولد عبيد الله بن العباس وكان قد وقع الى أفريقية فولدت له ابنة ومات فاتصل بقومه فنهض أبو جعفر بنفسه لاجتلاب بقيته، خشية أن ينالها سوء ومر بمصر وطوى المراحل فى مفاوز ليبيا حتى بلغ القيروان فوجدها قد تزوجت رجلا خياطا وولدت منه ابنا ومات الخياط فتزوجها أبو جعفر لجمالها ورحل بها الى الحميمة وقيل أنه تزوج بها لما نزلت الحميمة ، ويروى (٢) ابن الأبار أن أهل أفريقية يذكرون أنه طلب مرة فاستخفى فى قصر صهره منصور الحميرى عند قصر بشير بطريق سوسة .

---

(١) الجزء الأول من الحلة السيراء صفحة ٣٣ .

(٢) الجزء الثانى من الحلة السيراء صفحة ٣٣٩ .

وكان من الخارجين على الدولة الأموية حين دب فيها الضعف وتناولتها معاول الهدم عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وكان عبد الله جوادا فارسا شاعرا ، ولكنه كان سيىء السيرة ردىء المذهب الى حد أنه كان يرمى بالزندقة ، وكانت خاصته من المتهمين فى عقيدتهم وكان مع ذلك يعد من ظرفاء بنى هاشم وشعرائهم ، ولما بويع ليزيد بن الوليد الذى يقال له يزيد الناقص تحرك عبد الله بن معاوية بالكوفة ودعا الناس الى البيعة على الرضا من آل محمد ولبس الصوف وأظهر سيماء الخير فاجتمع اليه نفر من أهل الكوفة فبايعوه ، ولكن الأكثرية أمسكت عن مبايعته وقالوا له ما فينا بقية فقد قتل جمهورنا مع أهل هذا البيت ، وأشاروا عليه بقصد فارس ونواحى المشرق ، فقبل ذلك وجمع جموعا من النواحى ، وفى رواية أخرى أنه قبل قصده المشرق ظهر بالكوفة ، ودعا الناس الى نفسه، فقاتله عامل يزيد الناقص على الكوفة قتالا شديدا ، واضطره الى أن يولى وجهه منهزما ، فغلب على مياه الكوفة وهمدان وقم والرى وقومس وأصبهان وفارس ، وأقام بأصبهان ، واجتمع الناس اليه فأخذهم بالبيعة له ، وكتب الى الأمصار يدعو الى نفسه ، وقصدته بنو هاشم منهم أبو العباس وأبو جعفر وعيسى بن على ، وقصده بعض وجوه قريش من بنى أمية وغيرهم منهم سليمان بن هشام بن عبد الملك ، فاستعان بهم فى أعماله ، وقلد أبا جعفر كورة ايذج — وهى بين خوزستان وأصبهان — فأخذ أبو جعفر المال وحمله بسفاتج على يدى عبد الرحمن بن عمر الى البصرة ، ولم يحمل الى ابن معاوية شيئا ، ثم صار أبو جعفر الى الاهواز قاصدا البصرة ، وكان سليمان بن حبيب بن المهلب عليها من قبل مروان ، قد وضع الأرصاد على كل من يمر من عمال ابن معاوية ، فمر برصده أبو جعفر ، فأخذ وأتى به سليمان بن حبيب ، وكان أبو أيوب المورياني يكتب له ، فقال له لما دخل عليه « هات المال الذى اختنته » فقال أبو جعفر « لا مال

عندى » فدعا له بالسياط ، فقال أبو أيوب « أيها الأمير ، توقف عن ضربه ، فان الخلافة ان بقيت فى بنى أمية فلن يسوغ لك ضرب رجل من بنى عبد مناف ، وان صار الملك الى بنى هاشم لم تكن لك بلاد الاسلام بلادا » . فلم يقبل منه ، وضرب أبا جعفر اثنين وأربعين سوطا ، فلما اتصل ضربه اياه قام اليه أبو أيوب فألقى نفسه عليه ، ولم يزل يسأله حتى أمسك عن ضربه وأمر بحبسه، فتحركت المضرية لضرب أبى جعفر وحبسه ، وتجمعوا وصاروا الى الحبس فكسروه ، وأطلقوا أبا جعفر ، وخرج أبو جعفر حتى قدم البصرة ، ورعى لأبى أيوب ما كان منه ، ولم يزل أبو أيوب بالاهواز الى أن ظهر أمر بنى العباس .

وظل ابن معاوية مقيما فى النواحى التى غلب عليها حتى ولى مروان بن محمد فوجه اليه عامر بن ضبارة فى عسكر كثيف ، فسار اليه حتى اذا اقترب من أصبهان ندب ابن معاوية أصحابه الى الخروج اليه وقتاله ، فلم يفعلوا ولا أجابوه ، فخرج هو واخوته قاصدين لخراسان ، وقد ظهر بها أبو مسلم ، وطمع ابن معاوية فى نصرته ، فأخذه أبو مسلم فحبسه عنده ، واختلف فى أمره بعد محبسه ، فقيل انه لم يزل محبوسا حتى كتب الى أبى مسلم رسالته المشهورة التى يقول فيها « الى أبى مسلم من الأسير فى يديه بلا ذنب ولا خلاف عليه ، أما بعد فانك مستودع ودائع ، ومولى صنائع ، وان الودائع رعية ، وان الصنائع عارية ، فاذكر القصاص ، واطلب الخلاص ، ونبه للفكر قلبك ، واتق الله ربك ، وآثر ما يلقاك غدا على ما لا يلقاك أبدا ، فانك لاق ما أسلفت، وغير لاق ما خلفت ، وفقك الله لما ينجيك ، وآتاك شكر ما يبليك » فلما قرأ أبو مسلم كتابه رمى به وقال لأصحابه « قد أفسد علينا أصحابنا وأهل طاعتنا وهو محبوس فى أيدينا ، فلو خرج وملك أمرنا لأهلكنا ، وأمضى تدبيره فى قتله » وفى رواية أنه دس اليه سما فمات منه .

أبو جعفر فى عهد خلافة أبى العباس

بدأت الدولة العباسية حينما تمت مبايعة أبى العباس فى مسجد الكوفة الجامع يوم الجمعة ١٢ ربيع الثانى سنة ١٣٢ هـ ، وكان طريقها لا يزال حافلا بالعقبات محفوفا بالأخطار ، فالخليفة الأموى مروان بن محمد يجمع الحشود ويعد العدة لوقف تقدم الجيش الخراسانى ناحية الموصل ، ويزيد بن عمر بن هبيرة قد اعتصم بواسط ومعه جمع كبير من المقاتلين وصناديد العرب وفرسانهم ، ولم تكن البصرة قد استسلمت بعد ، وخرج أبو العباس من الكوفة ، وأقام فى حمام أعين فى عسكر أبى سلمة ، واستخلف على الكوفة عمه داود بن على ، وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى الى الحسن بن قحطبة ، وهو يومئذ بواسط محاصرا لابن هبيرة ، وبعث عمه عبد الله بن على الى أبى عون بن يزيد بشهرزور ، وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن العباس الى حميد بن قحطبة بالمدائن ، وأقام بالمعسكر شهرا ثم ارتحل الى المدينة الهاشمية ، وأقام فيها بقصره ، وكان فى نفسه أشياء من أبى سلمة الخلال ، وفى ذات ليلة دار الحديث بينه وبين خاصته عن المحاولة التى قام بها أبو سلمة لنقل البيعة الى العلويين ، وكان أبو جعفر حاضرا ، فقال « ما يدريكم ؟ لعل ما صنع أبو سلمة كان عن رأى أبى مسلم ! » .

فقال أبو العباس « لئن كان هذا عن رأى أبى مسلم أنا ليعرض بلاء الا أن يدفعه الله عنا » .

وتركت هذه الخاطرة أثرها فى نفس أبى العباس ، فاستدعى أبا جعفر بعد أن انفض المجلس ، وقال له « ما ترى ؟ » .

فأجاب أبو جعفر قائلا « الرأى رأيك » .

فقال أبو العباس « ليس منا أحد أخص بأبى مسلم منك ، فاخرج اليه حتى نعلم ما رأيه ، فليس يخفى عليك ، فان كان عن رأيه أخذنا لأنفسنا ، وان لم يكن عن رأيه طابت أنفسنا » ويكمل أبو جعفر الرواية فيقول « فخرجت على وجل ، فلما انتهيت الى الرى اذا صاحب الرى قد أتاه كتاب أبى مسلم » انه بلغنى أن عبد الله بن محمد توجه اليك ، فاذا قدم فاشخصه ساعة قدومه عليك ، فلما قدمت أتانى عامل الرى فأخبرنى بكتاب أبى مسلم ، وأمرنى بالرحيل ، فازددت وجلا ، وخرجت من الرى وأنا حذر خائف ، فسرت فلما كنت بنيسابور اذا عاملها قد أتانى بكتاب أبى مسلم « اذا قدم عليك عبد الله بن محمد فاشخصه ولا تدعه فان أرضك أرض خوارج ، ولا آمن عليه » فطابت نفسى ، وقلت أراه يعنى بأمرى ، فسرت ، فلما كنت من مرو على فرسخين تلقانى أبو مسلم فى الناس ، فلما دنا منى أقبل يمشى الى حتى قبل يدى ، فقلت « اركب » فركب ، فدخل مرو ، فنزلت دارا فمكثت ثلاثة أيام لا يسألنى عن شىء ، ثم قال لى فى اليوم الرابع « ما أقدمك ؟ » فأخبرته ، فقال « فعلها أبو سلمة ، اكفيكموه » ودعا مرار بن أنس الضبى فقال له « انطلق الى الكوفة فاقتل أبا سلمة حيث لقيته ، وانته فى ذلك الى رأى الامام » .

فقدم مرار بن أنس على أبى العباس فى المدينة الهاشمية ، وأعلمه سبب قدومه ، فأمر أبو العباس مناديا فنادى أن أمير المؤمنين قد رضى عن أبى سلمة ، ودعاه وكساه ثم دخل عليه بعد ذلك ولم يزل عنده حتى ذهبت عامة الليل ، ثم خرج منصرفا الى منزله يمشى وحده ، فعرض له مرار بن أنس ومن كان معه

من أعوانه فقتلوه ، وأغلقت أبواب المدينة وقالوا « قتل الخوارج أبا سلمة » ثم أخرج من الغد فصلى عليه يحيى بن محمد بن على ودفن فى المدينة الهاشمية ، وكان يقال لأبى سلمة « وزير آل محمد » ولأبى مسلم « أمين آل محمد » .

وقد قدم أبو جعفر على أبى مسلم فى ثلاثين رجلا ، ولم تكن مشاورة أبى مسلم فى أمر أبى سلمة هى الباعث الوحيد عليها ، وانما كان من أسبابها كذلك الحصول على مبايعة أبى مسلم لأبى العباس ، ومراقبة أحوال أبى مسلم وسلوكه بوجه عام ، فان محاولة أبى سلمة أثارت الشكوك فى نفس الخليفة أبى العباس ، وجعلته أشد حرصا على معرفة النيات المبيتة والأهداف الخفية لرجال شيعته .

واتفق فى أثناء وجود أبى جعفر بمرو أن ساير سليمان بن كثير عبيد الله بن الحسين الأعرج العلوى ، فقال سليمان بن كثير لعبيد الله « يا هذا انا كنا نرجو أن يتم أمركم ، فاذا شئتم فادعونا الى ما تريدون » فظن عبيد الله أنه دسيس من أبى مسلم ، فخاف ذلك ، وبلغ أبا مسلم مسايرة سليمان بن كثير اياه ، وأتى عبيد الله أبا مسلم فذكر له ما قاله سليمان ، وظن أنه ان لم يفعل ذلك اغتاله أبو مسلم ، فبعث أبو مسلم الى سليمان بن كثير فقال له « أتحفظ قول الامام لى من اتهمته فاقتله ؟ » قال « نعم » .

فقال أبو مسلم « انى قد اتهمتك » .

فقال سليمان « أنشدك الله » .

فقال بو مسلم « لا تناشدنى الله وأنت منطو على غش الامام » وأمر بضرب عنقه .

وتقول الرواية انه لم ير أحد ممن كان يضرب عنقه أبو مسلم غيره .

وكان أبو مسلم حاقدا على سليمان بن كثير لأنه لم يكن راضيا عن تولى أبى مسلم أمر الشيعة الخراسانية حينما عهد اليه ابراهيم الامام بذلك ، وحاول رده الى الحميمة لولا تدخل أبى داود أحد زعماء الشيعة الخراسانية ، كما بلغه عنه أنه قال وقد أخذ عنقود عنب « اللهم سود وجه أبى مسلم كما سودت هذا العنقود واسقنى دمه » وقال أيضا « حفرنا نهرا بأيدينا فجاء غيرنا وأجرى فيه الماء » يعنى أبا مسلم ، ولذلك اغتنم هذه الفرصة للخلاص منه .

ولم يلق أبو جعفر فى هذه الزيارة ما كان يؤمله من العناية والرعاية والاهتمام بأمره ، فقد استخف به أبو مسلم فلم يرجع اليه فى أمر من الأموز ، ولم يستشره فى أية مسألة من المسائل العارضة أو مشكلة من المشكلات الطارئة ، فانصرف واجدا عليه ، وشكاه الى أبى العباس عند عودته من خراسان ، وصارحه قائلا « لست بخليفة ولا آمرك بشىء ان تركت أبا مسلم ولم تقتله » .

فقال له أبو العباس « وكيف ؟ » .

فقال أبو جعفر « انه والله ما يصنع الا ما أراد » .

ولكن أبا العباس كان يستكثر الاقدام على هذه الخطوة ، فقال لأبى جعفر « وما الحيلة فيه وقد عرفت موضعه من الامام ومن ابراهيم وهو صاحب الدولة والقائم بها » وأوصى أخاه بالسكوت وكتمان الأمر ، ولكن أبا جعفر لم يكف من الحين الى الحين عن تحذير أبى العباس من تعاظم نفوذ أبى مسلم .

وتمت بعد ذلك هزيمة مروان فى معركة الزاب وفراره الى مصر ، ولكن هزيمة مروان لم تكن آخر متاعب العباسيين ، فقد كان وجود ابن هبيرة فى واسط شوكة فى جنب العباسيين ، وكانت المناوشات قائمة حول أبواب المدينة وأسوارها ، وأبى ابن هبيرة

الاستسلام بعد وقوع معركة الزاب وهزيمة مروان ، وكاتب ابن هبيرة عبد الله بن الحسن العلوى بالمدينة يستحثـــه على طلب الخلافة لابنه محمد المعـــروف بالنفس الزكية ، ولذلك رأى أبو العباس أن يرسل أبا جعفر للاشراف على حصار واســط ، وكتب الى الحسن بن قحطبة يقول « أن العسكر عسكرك والقواد قوادك ، ولكنى أحببت أن يكون أخى حاضرا ، فاسمع له وأطع وأحسن مؤازرته » فلما قدم أبو جعفر على الحسن تحول الحسن عن خيمته وأنزل بها أبا جعفر وجعل على حرسه عثمان بن نهيك ، ومكث الحصار أحد عشر شهرا ، وفى رواية أن أبا جعفر أرسل الى ابن هبيرة يقول « ما لكم تتسترون وراء الخنادق والأسوار مثل النساء » فرد عليه ابن هبيرة يقول « انى خارج يوم كذا بنفسى وداعيك الى المبارزة أمام الناس ان كنت تفعل » فكتب اليـــه المنصور « انك متعد طورك ، جار فى عنان غيك ، يعد الله ما هو مصدقه ، ويمنيك الشيطان ما هو مكذبه ، ويقرب ما الله مباعده، فرويدا يتم الكتاب أجله ، وقد ضربت مثلى ومثالك ، بلغنى أن أسدا لقى خنزيرا ، فقال له الخنزير قاتلنى ، فقال الأسد « انما أنت خنزير ولست بكفء لى ولا نظير ، ومتى قاتلتك فقتلتك قيل لى قتل خنزيرا ، فلا أعتقد فخرا ولا ذكرا ، وان نالنى منك شيء كان سبة على » ، فقال الخنزير « ان لم تفعل أعلمت السباع أنك جبنت عن قتالى » فقال الأسد « احتمال عار كذبك على أيسر من تلطيخ شاربى بدمك » ولما علم ابن هبيرة بمقتل مروان بن محمد أثر ذلك فى موقفه ، وخذلته اليمانية لكراهتهم لمروان ، فلم يجد بدا من المصالحة ، وجرت السفراء بينه وبين أبى جعفر حتى جعل له أمانا مكث يشاور فيه العلماء أربعين يوما حتى رضيه ، فأنفذه الى أبى جعفر ، وأنفذه أبو جعفر الى أخيه أبى العباس فأمره بامضائه ، وكان رأى أبى جعفر الوفاء له بما أعطـــاه ، وكتب أبو العباس الى أبى مسلم يستشيره فى الأمر ، وكان يحرص على

مشاورته فى الأمور الهامة ، وكان وزيره ابو الجهم عينا لأبى مسلم على أبى العباس ، فكتب أبو مسلم اليه « ان الطريق السهل اذا ألقيت فيه الحجارة فسد ، ولا يصلح طريق فيه ابن هبيرة » ويبدو أنه كان يعرف رأى أبى جعفر فى الوفاء لابن هبيرة فأراد توهين رأيه واظهاره فى صورة الرجل الذى ينقض العهد ولا يرعى الذمام ، وألح أبو العباس على أبى جعفر فى قتل ابن هبيرة فراجعه أبو جعفر ، واضطر أبو العباس الى أن يكتب اليه قائلا « والله لتقتلنه أو لأرسلن اليه من يخرجه من حجرتك ثم أتولى قتله » فلم يجد أبو جعفر مناصا من النزول على رأى أبى العباس وقتل ابن هبيرة وقتل معه جماعة من صناديد العرب ، ولم ينج غير معن بن زائدة الشيبانى ، وكان لهذا الغدر وقع أليم فى النفوس ، وقد رثاهم منقذ بن عبد الرحمن الهلالى بأبيات منها قوله :

منع العزاء حرارة الصدر ... والحزن عقد عزيمة الصبر
لما سمعت بوقعة شملت ... بالشيب لون مفارق الشعر
أفنى الحماة الغر ان عرضت ... دون الوفاء حبائل الغدر
مالت حبائل غدرهم بفتى ... مثل النجوم حففن بالبدر
من للمنابر بعد مهلكهم ... أو من يسد مكارم الفخر
فلتبك نسوتنا فوارسها ... خير الحماة ليالى الذعر

ورثى أبو عطاء السندى ابن هبيرة بأبيات نقلها أبو تمام فى ديوان الحماسة يقول فيها :ـ

الا أن عينا لم تجد يوم واسط
عليك بجارى دمعها لجمود
عشية قام النائحات وشققت
جيوب بأيدى مأتم وخدود
فان تمس مهجور الفناء فربما
أقام به بعد الوفود وفود

فانك لم تبعـــــد على متعهـــــد
بلى كل من تحت التراب بعيـــــد

ووصف يزيد بن عمر بن هبيرة أبا جعفر قائلا « ما رأيت رجلا قط في حرب ، ولا سمعت به في سلم أنكر ولا أمكر ولا أشد تيقظا من أبي جعفر ، لقد حصرني تسعة أشهر ومعي فرسان العرب فجهدنا بكل الجهد أن ننال من عسكره شيئا فما تهيأ لنا ، وقد حصرني وما في رأسي شعرة بيضاء فخرجت اليه وما في رأسي شعرة سوداء » .

ولم تكن هزيمة مروان وانتهاء حصار واسط وسقوطها آخر متاعب العباسيين ، فقد كان للشدة التي عامل بها العباسيون الناس أثرها في حفز النفوس الى الثورة وبخاصة في الشام التي دانت بالولاء للأمويين زمنا طويلا ، وكان رجال الدول البارزون في عهد أبي العباس الذين يعتمد عليهم ويرجع اليهم ثلاثة وهم أبو مسلم في خراسان والمشرق ، وعبد الله بن علي بالشام ومصر وأبو جعفر الذي ولاه أبو العباس أمر الجزيرة وأرمينيا واذربيجان بعد عودته من حصار واسط .

وحدثت بين أبي جعفر وأهل الجزيرة وقعات وحروب شديدة ثم صالحوه واستقام أمرهم بعد أن رأوا من يقظة أبي جعفر وحزمه وقدرته ما حملهم على لزوم الطاعة وقبول الخلافة العباسية وقد ظل أبو جعفر على الجزيرة وأرمينيا واذربيجـــان حتى وفاة أبي العباس .

ومما يدل على ما بلغه أبو مسلم من نفوذ وتسلط أن أبا العباس أرسل في سنة ١٣٢ عمه عيسى بن علي على فارس وعليها محمد بن الأشعث من قبل أبي مسلم ، فلما قدم عليه عيسى بن علي هـم بقتله ، فقيل له ان هذا لا يسوغ لك ، فقال « أمرني أبو مسلم أن لا يتقدم أحد يدعي الولاية من غيره الا ضربت عنقه » ثم ارتدع

عن ذلك لما تخوف من عاقبته ، فاستحلف عيسى بالايمان المحرجة أن لا يعلو منبرا ولا يتقلد سيفا الا فى جهاد ، فلم يل عيسى بعد ذلك عملا ولا تقلد سيفا الا فى غزو ، وكان أبو جعفر لا ينى يحذر أبا العباس من طغيان نفوذ أبى مسلم ، وكان أبو العباس يتردد كثيرا فى الاقدام على أى عمل يثير الشك فى نفس أبى مسلم ، واذا صحت الرواية القائلة بأنه أرسل سباع بن عبد النعمان الأزدى ، وكان من الشجعان الفتاك الى أبى مسلم يأمره بأن يولى زياد بن صالح الخزاعى ما وراء النهر ويقتاله ان أمكنته الفرصة أقول اذا صحت هذه الرواية فانها تدل على أن أبا العباس قد وافق أبا جعفر على ضرورة الخلاص من أبى مسلم ، ومهما يكن من الأمر فان أبا مسلم فى سنة ١٣٦ كتب الى أبى العباس يستأذنه فى القدوم عليه والحج ، وكان منذ عهد اليه أمر خراسان لم يفارقها ، فكتب اليه السفاح يأمره بالقدوم عليه فى خمسمائة من الجند ، فكتب اليه « انى قد وترت الناس ولست آمن على نفسى » فكتب « أن أقبل فى ألف فانما أنت فى سلطان أهلك ودولتك وطريق مكة لا يحتمل العسكر » ، فشخص فى ثمانية آلاف فرقهم بين نيسابور والرى ، وقدم بالأموال والخزائن فجعلها فى الرى ، وجمع أيضا أموال الجبل ، وتشخص منها فى ألف ، وأقبل فلما أراد الدخول تلقاه القواد وسائر الناس ، ثم استأذن أبا العباس فى الحج فأذن له ، وقال « لولا أن أبا جعفر حاج لوليتك الموسم » وأنزله قريبا منه فكان يأتيه كل يوم يسلم عليه ويبادله الحديث، ولم يذكر أبو العباس لأبى مسلم شيئا من أمر أبى جعفر ، ودخل اليه يوما من الأيام وأبو جعفر جالس معه فسلم عليه وهو قائم ثم خرج ولم يسلم على أبى جعفر ، فقال له أبو العباس « مولاك مولاك لم لا تسلم عليه ؟ » فقال أبو مسلم « قد رأيته ، ولكنه لالا يقضى فى مجلس الخليفة حق أحد غيره » .

وقال أبو جعفر لأبى العباس « يا أمير المؤمنين أطعنى وأقتل

أبا مسلم فوالله ان فى رأسه لغدرة » فقال له أبو العباس « يا أخى قد عرفت بلاءه وما كان منه » فقال أبو جعفر « يا أمير المؤمنين انما كان بدولتنا ، والله لو بعثت سنورا لقام مقامه ، وبلغ ما بلغ فى هذه الدولة » فقال له أبو العباس « فكيف نقتله » .

فقال أبو جعفر « اذا دخل عليك وحادثته وأقبل عليك دخلت فتغفلته فضربته من خلفه ضربة أتيت بها على نفسه » .

فقال أبو العباس « فكيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم ودنياهم » .

قال أبو جعفر « يؤول ذلك كله الى ما تريد ، ولو علموا أنه قد قتل تفرقوا وذلوا » .

فقال أبو العباس « عزمت عليك ألا اكففت عن هذا » .

فقال أبو جعفر « أخاف والله ان لم تتغده اليوم أن يتعشاك غـــدا » .

فقال أبو العباس « فدونكه انت أعلم » .

وخرج أبو جعفر من عنده عازما على ذلك ، وفكر أبو العباس فى الموضوع فاستهول الاقدام على اغتيال أبى مسلم وندم على سابق موافقته لأبى جعفر ، وأرسل الى أبى جعفر ينهاه عن ذلك الأمر ، وقيل ان أبا العباس لما أذن لأبى جعفر فى قتل أبى مسلم دخل أبو مسلم على أبى العباس ، فبعث أبو العباس خصيا له فقال « اذهب وانظر ما يصنع أبو جعفر » فأتاه فوجده محتبيا بسيفه ، فقال أبو جعفر للخصى « أجالس أمير المؤمنين ؟ » .

فقال له الخصى « قد تهيأ للجلوس » ثم رجع الخصى الى أبى العباس فأخبره بما رأى ، فرده الى أبى جعفر وقال له « قل له الأمر الذى عزمت عليه لا تنفذه » .

فكف أبو جعفر ، وكان أبو مسلم قد ساءه أن يختار أبو جعفر ذلك العام ليكون أميرا على الحج فقال « أما وجد أبو جعفر غير هذا العام » .

وكان أبو العباس قد عقد فى سنة ١٣٦ الخلافة لأخيه أبى جعفر من بعده وجعله ولى عهد المسلمين ، ومن بعد أبى جعفر عيسى ابن موسى ، وكتب العهد بذلك وصيره فى ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه الى عيسى بن موسى ، وكان أبو العباس قبل وقوع معركة الزاب قد دعا أهل بيته وعرض عليهم قيادة الجيش الذى سيتولى محاربة مروان ، ورغبة منه فى تشجيعهم على احتمال هذه التبعة الهامة قطع على نفسه عهدا بأن يجعل ولاية العهد لمن يهزم جموع مروان ، فتقدم عمه عبد الله بما عرف عنه من اقدام واستهانة بالأخطار ، وكان عبد الله من هؤلاء المغامرين الطموحين ، وللحروب جاذبية خاصة لأمثاله لأنها قد ترفع أحيانا الى درجة البطولة ، وقد كافأه أبو العباس على انتصاره فى معركة الزاب واخماده الثورات التى قامت بالشام بأن جعله واليا عليها ، على أن أبا العباس حاول بعد ذلك أن يتحلل من العهد الذى قطعه على نفسه بأن يجعل المتغلب على مروان ولى عهده وأقره خاصة أصحابه على ذلك حتى لا يخرج الخلافة من ولد أبيه الى أبناء عمه ، وأبقى وصيته بولاية العهد لأبى جعفر وعيسى بن موسى بعده فى حيز الكتمان بحيث لا تعرف الا بعد وفاته .

وسار أبو جعفر وأبو مسلم فى طريق الحج ، وقدم عمه عبد الله ، فعقد له أبو العباس على الصائفة فى أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل ، وسار عبد الله على رأس هذا الجيش الكثيف حتى بلغ أطراف الدروب .

وبينما كان أبو جعفر وأبو مسلم عائدين من الحج ، والمنافسة بينهما فى الطريق على أشدها ، وكان عبد الله يغذ السير ليتوغل

فى الدروب أصيب الخليفة أبو العباس بالجدرى ، ولم يرحم هذا المرض الوبيل وجهه الحسن ولا شبابه الناضر الغض ، فمات لاثنتى عشرة ليلة مضت من ذى الحجة سنة ١٣٦ بالأنبار ، وكانت وفاته ايذانا باشتداد الصراع بين الرجال الثلاثة الذين كانوا دعامة ملكه وفحول دولته ، وهم عبد الله بن على والى الشام وأبو جعفر والى الجزيرة وأبو مسلم والى خراسان ، وكانت المنافسة بينهم موجودة من قبل وفاة أبى العباس ، ولكنها كانت خفية المدب مكبوحة الجماح .

خلافة أبى جعفر المنصور

لما اشتدت العلة بأبى العباس دعا عمه عيسى بن على وأعطاه كتابا معنونا « من عبد الله ووليه الى آل رسول الله والأولياء وجميع المسلمين » ثم قال « يا عم اذا خرجت نفسى فسجنى بثوبى واكتم موتى حتى يعلم هذا الكتاب على الناس ، فاذا قرىء فخذ ببيعة المسمى فيه ، فاذا بايع الناس فخذ فى أمرى ، وجهزنى وصل على وادفنى » فلما توفى أبو العباس أعلنت البيعة لأبى جعفر ولعيسى بن موسى من بعده ، وأخذت البيعة على من حضر من الهاشميين والقواد بالأنبار ، وذلك يوم الأحد لاثنتى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ١٣٦ .

وكان أبو مسلم قد تقدم أبا جعفر فى طريق العودة من الحج ، فأتاه كتاب بموت أبى العباس واستخلاف أبى جعفر ، فكتب أبو مسلم الى أبى جعفر « بسم الله الرحمن الرحيم ، عافاك الله وأمتع بك ، انه أتانى أمر أفظعنى ، وبلغ متى مبلغا لم يبلغه شىء قط ، لقينى محمد بن الحصين بكتاب من عيسى بن موسى اليك بوفاة أبى العباس أمير المؤمنين رحمه الله ، فنسأل الله أن يعظم أجرك ، ويحسن الخلافة عليك ، ويبارك لك فيما أنت فيه ، انه ليس من أهلك أحد أشد تعظيما لحقك وأصفى نصيحة لك وحرصا على ما يسرك منى » وأنفذ الكتاب الى أبى جعفر ، ولم يقم أبو مسلم حتى يلحقه ركب أبى جعفر ويتقدم لمبايعته ، وقال يزيد بن أسيد السلمى لأبى جعفر « انى أكره أن تجامعه فى الطريق والناس جنده ، وهم له أطوع وله أهيب ، وليس معك أحد » ،

فأخذ أبو جعفر برأيه فكان يتأخر ويتقــدم أبو مسلم ، ومضى أبو مسلم الأنبار ، وقدم أبو جعفر فنزل الكوفة ، وأتاه أن عمه عبد الله بن على قد خلع ، فعاد الى الأنبار واستقبله بها ولى عهده عيسى بن موسى ورجال الدولة وبينهم أبو مسلم الخراسانى .

وكان عيسى بن على قد بعث مع أبى غسان يزيد بن زياد حاجب أبى العباس ببيعة المنصور الى عبد الله بن على ، وكان عبد الله قطع الدروب الى بلاد الروم ، فلما وافاه الرسول بالبيعة رجع حتى صار الى دلوك من أرض جند قنسرين وأحضر حميد بن قحطبة الطائى وجماعة من القواد الذين كانوا معه ، وأمر مناديا فنادى « الصلاة جامعة » واجتمع اليه القواد والجند ، وأخبرهم « أن أبا العباس حين أراد أن يوجه الجنود الى مروان بن محمددعا بنى أبيه فأرادهم على المسير الى مروان بن محمد ، وقال من انتدب منكم فسار اليه فهو ولى عهدى ، فلم ينتدب له غيرى ، فعلى هذا خرجت من عنده وقتلت من قتلت » .

وقام جماعة من القواد من أهل خراسان فشهدوا له بذلك ، فبايعه جميع من كان معه من أولئك القواد ، وكان فيهم حميد بن قحطبة وغيره من أهل خراسان والشام والجزيرة ، ولما فرغ من البيعة ارتحل فنزل حران ، وكان بها مقـــاتل العكى ، وكان أبو جعفر استخلفه بها لما قدم على أبى العباس ، فأراد مقاتلا على البيعة ، فلم يجبه وتحصن منه ، فأقام عليه وحصره حتى استنزله من حصنه وقتله ، وكتب الى عيسى بن على وغيره يعلمهم مبايعة من قبله من القواد وأهل الشام بصحة عهد أبى العباس اليه ، وأخذ البيعة لنفسه فى سائر أنحاء ولايته .

ولما علم أبو جعفر بمبايعة عبد الله بن على دعا أبا مسلم ، وقال له « ليس لعبد الله بن على غيرى وغيرك » فكره أبو مسلم ذلك وقال « يا أمير المؤمنين ان أمر عبد الله بالشام أقل وأذل ،

وأمر خراسان يجل خطبه » وكان أبو مسلم يحاول جهده الاسراع فى العودة الى خراسان ، ويؤثر أن يخلى ما بين أبى جعفر وعمه عبد الله ، فانصرف الى منزله وقال لكاتبه (١) « ما أنا وهذان الرجلان ، الرأى أن أمضى الى خراسان وأخلى بين هذين الكبشين، فأيهما كتب الينا وكتبنا اليه سمعنا وأطعنا فرأى انا قد أنعمنا وعملنا له عملا » .

فقال له كاتبه « أعيذك بالله من أن تمكن أهل خراسان من الطعن عليك ، وأن يروا أنك نقضت أمرا بعد تأكيده ، ان نهضت بالأمر وخرجت أرضيت الناس وكان لك حسنة عند أمير المؤمنين » .

فقال أبو مسلم « ويحك انى نظرت فيمن قتلت بالسيف صبرا سوى من قتل فى المعارك فوجدتهم مائة ألف من الناس » ، فلم يزل به كاتبه حتى أجاب أبا جعفر الى الخروج .

وسار أبو مسلم على رأس جيش الى الجزيرة وحدثت وقائع عدة بينه وبين عبد الله بن على ، وكان حميد بن قحطبة الغالب على أمر عبد الله ، وهو قائد قدير وبلغه أن عبد الله يريد قتله فاحتال حتى صار الى أبى مسلم ، وعظم ذلك على عبد الله ، وتغلبت حركات أبى مسلم على جيش عبد الله بن على فهزم هزيمة نكراء ، ومضى هاربا حتى قدم البصرة على أخيه سليمان وأقام عنده متواريا .

وأغضى أبو جعفر عن عبد الله اغضاء موقوتا ، فقد فل جمعه، وكسر شوكته ، وأمن شره الى حد كبير ، وفرغ لمعالجة مشكلة أبى مسلم ، وكان يعتقد أن قتله ضرورة سياسية لا مندوحة عنها ، ولم يكن أبو جعفر يجهل حاجته الى قائد عظيم ووزير قدير مثل أبى مسلم ، والدولة فى طالعة أمرها ، والمتربصون بها كثيرون،

---

(١) لجزء الثالث من اليعقوبى صفحة ١٠١

والطامعون فيها لا يخلون من بأس وقوة ، وكان يعرف أن أبا مسلم هو مدبر المؤامرات الناجحة ، وراسم الخطط الموفقة ، ولكنه وازن بتفكيره الراجح بين الضرر والمنفعة ، ولما انتهى الى نتيجة وقطع بالرأى لم يتردد فى العمل على تنفيذ ما اطمأن الى أنه الرأى السديد ، لأن الرجل كان لا يعرف الهوادة ولا تغلبه العاطفة ولا يثنيه الخوف والتردد فى مواقف الخطورة ومواطن الجد ، وكان أبو مسلم كلما سما مكانه ، وطغى نفوذه ، أصبح خطرا كبيرا على نفوذ الخليفة ومكانته ، فليس هو الآن منقذ بيته ، ورافع دعائم ملكه ، والحاجز المنيع ضد الثورات والانقلابات ، وانما هو مناظر مرهوب الجانب يستطيع أن ينقض ما أبرم ، ويهدم ما بنى ، ويفسد عليه أمره ، ويسلبه ملكه ، وكان المنصور قد حكم منذ زمن بينه وبين نفسه على أبى مسلم بالاعدام ، وهو حكم أنتجته المشاهدة والتجربة حينما زار خراسان ، وأيده التفكير الهادىء فى سلوك أبى مسلم وسائر تصرفاته ، وآزره المنطق الذى لا يرحم ، وزادته الأيام ايمانا بصحة ذلك الحكم وضرورة تنفيذه ، وكان صلف أبى مسلم وشموخه بأنفه وفرط اعتداده بنفسه وادلاله بمكانته قد بلغ حدا لا يستطيع معه رجل بارز الشخصية عالى الهمة أبى النفس مثل أبى جعفر أن يحتمله ويغضى عنه .

وكان أبو مسلم من ناحيته خلال المهمة التى أناطها به المنصور ـ وقبلها مضطرا كارها متورطا ـ ناقما على المنصور ، ولم يستطع أن يقمع استخفافه به وموجدته عليه ، فكان يأتيه منه الكتاب فيقرؤه ثم يلوى شدقه ، ويرمى بالكتاب الى صديقه الحميم أبى نصر مالك بن الهيثم فيقرؤه ويتضاحكان استهزاء ، وقد ساء ذلك القائد البارع الحسن بن قحطبة فأرسل الى أبى أيوب الموريانى وزير المنصور رسالة سرية شفوية ضمنها ارتيابه بأبى مسلم .

وكان المنصور يحاول الآن – وقد انتوى ازاحة أبى مسلم من طريقه – أن لا يبدو قتله فى صورة الغدر الأثيم والخيانة الصارخة ، والوسيلة الوحيدة لذلك هى أن يستفز اباءه ، ويثير غضبه ، حتى يخرج عن طوره ، ويجد المنصور حينذاك مسوغا لقتله أمام أتباعه ، فلما انهزم عبد الله بن على ، وكتب أبو مسلم الى المنصور بذلك ، أرسل المنصور يقطين بن موسى لاحصاء الأموال والخزائن التى حصلت فى يد أبى مسلم ، وهو يعلم ما فى ذلك من الاساءة الى شعور أبى مسلم ، وغضب أبو مسلم كما كان متوقعا ، وقال « أفعلها ابن سلامة الفاعلة ؟ » وشتم يقطين بن موسى ، فقال يقطين لما رأى ما داخله « عجلت أيها الأمير » .

قال « وكيف ذلك ؟ » .

قال « أمرنى أن أحصى الأموال ثم أسلمها اليك لتعمل فيها برأيك » ، وكبر على أبى مسلم أن يؤتمن على الدماء ولا يؤتمن على الأرواح ، وفى بعض الروايات أنه هم بقتل رسول أبى جعفر ، فقيل له انما هو رسول فخلى سبيله ، ورجع الى أبى جعفر فأخبره الخبر ، فزاد ذلك ما فى قلب أبى جعفر عليه ، وكان أبو مسلم قد جمع ما كان فى عسكر عبد الله من الأموال فصيره فى حظيرة ، وأصاب عينا ومتاعا وجوهرا كثيرا ، وجاءت القواد الى أبى مسلم وقالوا « نحن ولينا أمر هذا الرجل ، وغنمنا عسكره ، فلم نسأل عما فى أيدينا ؟ انما لأمير المؤمنين من هذا الخمس » .

وكان المنصور يحاول جهده أن يحول بين أبى مسلم وبين العودة الى خراسان ، فأرسل اليه كتابا مع يقطين يقول له فيه « انى قد وليتك مصر والشام ، فهى خير لك من خراسان ، فوجه الى مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب من أمير المؤمنين ، فان أحب لقاءك أتيته من قريب » .

فلما جاءه هذا الكتاب عرف الهدف الذى رمى اليه أبو جعفر ، وغضب واعتزم المضى الى خراسان ، وأقبل من الجزيرة مجمعا على الخلاف ، والواقع أن أبا مسلم كان قد تعود السلطة المطلقة ، وأن يقطع برأيه فى شتى الأمور ، ويتصرف بحسب هواه ، وأن يأمر فيطاع ، ويستشار ويستنصح فيعمل بمشورته ويؤخذ بنصيحته ، ولم يكن يستطيع حينذاك أن ينزل من أعالى كترياائه وشموخه فيصانع ويتملق ، ويخضع ويطيع ، ويخطب الود ويلتمس الرضا ، وغير غريب أن يتحدى ويغاضب ، ومن الصعب على الانسان أن يصل الى ذروة السلطة التامة والسيطرة الكاملة على الناس ثم يتنازل عن ذلك كله فى يسر وسهولة وعند أول اشارة ، وقد تحول الأمر بأبى مسلم من عدم الاكتراث بأبى جعفر الى العناد والاصرار ، ومن العناد والاصرار الى التحدى الظاهر والمخالفة الصريحة ، وقد زاده الانتصار الأخير على عبد الله بن على اعتزازا برأيه ، وادلالا بمكانته ، وشدة شعور بعظمة شخصيته ، وكان المنصور من ناحية أخرى يريد النظام والطاعة ، ولا يطيق أن يرى مناظرا له فى سلطانه ، ولا يقبل أن يسمح بأن يعيش فى ظل ملكه الوريف معارض وأحد هادىء البال مصون الدماء ، وقد اتفق مرة أن قال لسالم بن قتيبة « ما ترى فى أمر أبى مسلم » فقال له « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » فقال له المنصور « حسبك يا ابن قتيبة ، لقد أودعتها أذنا صاغية » ، ولم يكن المنصور فى حاجة الى هذه النصيحة ، ولكنه كان مطبوعا على حب الاستشارة والموازنة بين رأيه وآراء غيره من الناس لاستطلاع الآراء السائدة ، والوقوف على ما يدور فى خواطر الناس .

وانتقل أبو جعفر من الأنبار الى المدائن ، وأقبل أبو مسلم يريد خراسان مغاضبا لأبى جعفر ، فمر بالمدائن وأبو جعفر نازل برومية المدائن وبينه وبين أبى مسلم فرسخان ، فلم يلقه ونفذ لوجهه حتى جاز جلوان ، وكان أبو جعفر حينما نزل رومية المدائن

كتب الى أبى مسلم يقول « انى قد أردت مذاكرتك بأشياء لم يحتملها الكتاب ، فأقبل فان مقامك عندنا قليل » ولكن أبا مسلم قرأ الكتاب ولم يأبه به ومضى فى طريقه ، وفى رواية أنه كتب اليه « أما بعد فانى كنت اتخذت أخاك اماما ودليلا على ما افترض الله على خلقه ، وكان فى محله من العلم وقرابته من رسـول الله صلى الله عليه وسلم بحيث كان ، فقمعنى بالفتنة واستجهلنى بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعا فى قليل قد نعاه الله الى خلقه فمثل الضلالة فى صورة الهدى فكان كالذى دل بغروره حتى وترت أهل الدين والدنيا فى دينهم ، واستحلك بما كان من ذلك من الله النقمة ، وركبت المعصية فى طاعتكم وتوطئة سلطانكم حتى عرفكم من كان يجهلكم وأوطأت غيركم العشواء بالظلم والعدوان حتى بلغت فى مشيئة الله ما أحب ، ثم أن الله بمنه وكرمه أتاح لى الحسنة ، وتداركنى بالرحمة ، واستنقذنى بالتوبة ، فان يغفر فقديما عرف بذلك ، وان يعاقب فبما قدمت يداى ، وما الله بظلام للعبيد » .

واذا صحت هذه الرواية فانها تبين أن أبا مسلم كان قد بدأ يتنكر لماضيه ، ويتنصل من تبعة أعماله ، ويلقيها على كاهل ابراهيم الامام الذى قربه ووضع له الخطة التى يتبعها ومنحه الثقة التامة ، وحرية التصرف ، ومعنى هذا أنه قد حدد لنفسه اتجاها جديدا، وفكر فى أن يقف من العباسيين موقفا آخر يخالف موقفه السابق .

وفى رواية أخرى أنه كتب الى أبى جعفر وقد نزل الزاب وهو على الرواح الى طريق حلوان « انه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدوا الا أمكنه الله منه ، وقد كنـا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة،

فان أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وان أبيت الا أن تعطى نفسك ارادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى » .

ولما وصل هذا الكتاب الى أبى جعفر كتب الى أبى مسلم « لقد فهمت كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فانما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم ، وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت عليه ؟ وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سمع ولا طاعة ، واسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك » .

واختار أبو جعفر من رجاله أبا حميد المروروزى ليحمل الكتاب الى أبى مسلم ، ورسم له الخطة التى يسلكها بعد تقديم الكتاب ، وهى أن يبدأ فيكلم أبا مسلم بألين كلام ، ويلوح له بالوعود ، ويمنيه الأمانى ، ويستفرغ فى ذلك جهده ، ويحذره عاقبة البغى والاسترسال فى الخروج عن الطاعة ، فان أصر على المخالفة ، وصرح بالعصيان ، ويئس منه ، يبلغه هذه الرسالة الشفوية وهى ، أن أمير المؤمنين يقول له « لست للعباس ، وأنا برىء من محمد ان مضيت مشاقا ولم تأتنى ان وكلت أمرك الى أحد سواى ، وان لم آل طلبك وقتالك بنفسى ، ولو خضت البحر لخضته ، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك » . وأوصى المنصور من حضر من بنى هاشم أن يكتبوا الى أبى مسلم يعظمون أمره ، ويشكرون ما كان منه ، ويحذرونه عاقبة الغدر ، ويأمرونه بالرجوع الى أمير المؤمنين ، وأن يلتمس رضاه ، ويطيع أمره .

وسار أبو حميد فى جماعة من أصحابه ممن يثق بهم حتى

قدموا على أبى مسلم بحلوان ، فدخل أبو حميد ومعه أصحابه ، ودفع الكتاب الى أبى مسلم ، وقال له « ان الناس يبلغونه عن أمير المؤمنين ما لم يقله وخلاف ما عليه رأيه فيه حسدا وبغيا يريدون ازالة النعمة وتغييرها ، ونصح له ألا يفسد ما كان منه .

فكبر هذا الكلام على أبى مسلم لأن أذنه لم تتعود سماع النصائح والتوجيهات ، فالتفت الى أبى حميد فى كبرياء وأنفة وقال له « متى كنت تكلمنى بمثل هذا الكلام ؟ » .

فقال له أبو حميد « لقد دعوتنا الى طاعتهم أفتريد حين بلغنا منتهى أملنا أن تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا ؟ وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه وان خالفتكم فاقتلونى ! » .

وكان يجلس الى جانب أبى مسلم صديقه الحميم مالك بن الهيثم ، فأقبل عليه أبو مسلم وقال « أما تسمع ما يقول هذا ؟ ما هذا بكلامه يا مالك ! » .

فقال له مالك « لا تسمع كلامه ، ولا يهولنك هذا منه ، ولعمرى لقد صدقت ، ما هذا كلامه ، ولما بعد هذا أشد منه ، فامض لأمرك ولا ترجع ، فوالله لئن أتيته ليقتلنك وقد وقع فى نفسه منك شىء لا يأمنك بعده أبدا » .

وأراد أبو مسلم أن يخلو بنفسه ويروى فى الأمر ، فصرف القوم ، وأخذ يفكر ويقلب الأمر على وجوهه ، ولما أتعبه التفكير ، ولم ينته الى رأى يطمئن اليه ، استدعى نيزك ، وكان موضع ثقته وكاتم سره ، فلما أقبل نحوه نيزك التفت اليه أبو مسلم وهو يحاول أن يتكلف الابتسام ، ويخفى اضطراب خواطره ، وتضارب أفكاره ، ويتظاهر بقلة الاهتمام ، وقال له « يا نيزك انى والله ما رأيت طويلا أعقل منك فما ترى ؟ فقد جاءت هذه الكتب وقال القوم ما قالوا ؟ » .

فقال له نيزك « لا أرى أن تأتيه ، وأرى أن تأتى الرى فتقيم بها ، فيصير ما بين خراسان والرى لك ، وهم جندك ما يخالفك أحد ، فان استقام لك استقمت له وان أبى كنت فى جندك ، وكانت خراسان من ورائك ، ورأيت رأيك » .

واطمأن أبو مسلم الى هذا الرأى ، وعول على الأخذ به ، ودعا أبا حميد وقال له « ارجع الى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه » .

فقال له أبو حميد « أو قد عزمت على خلافه ؟ » .

فقال له أبو مسلم « نعم » .

فقال له أبو حميد « لا تفعل » .

فقال أبو مسلم وقد بدت على وجهه علامات الاصرار « ما أريد أن ألقاه » .

وهنا لم يجد أبو حميد بدا من أن يبلغه رسالة أبى جعفر الشفوية ، فلما سمعها أبو مسلم وجم طويلا ، وأخذت تتكشف له فى صورة ربما لم يعهدها من قبل طبيعة الرجـــل الذى يريد مخالفته ، وكأنما قد رفع عن بصره الغطاء فى تلك اللحظة ، وأدرك أنه أفرط فى تحدى خليفته ، وكان أبو مسلم يعلم جيد العلم أن سلطان أبى جعفر قائم على دعامتين قويتين ليس من السهل هدمهما ، وهما قوة الدين وشرف النسب ، وقد حاول أبو مسلم أن ينتزع جانبا من هذا الشرف ويخلعه على نفسه وذلك بادعائه أنه من ولد سليط الذى كان ينسبه الأمويون الى عبد الله بن عباس نكاية فى على بن عبد الله بن العباس وولده ، وبمحاولته مرة أخرى أن يخطب الى المنصور عمته أمينة بنت على ، ووراءه هذا التهديد المكشوف الذى يشف عن صدق العزيمة والاستهانة بالخطـــر .

وكان أبو جعفر عندما حاول استفزاز أبى مسلم قد احتاط للأمر ، وأخذ يحرك المنافسة والتحاسد فى قلوب مناظرى أبى مسلم وأنداده ، فكتب الى أبى داود خليفة أبى مسلم على خراسان يوليه أمر خراسان ما بقى ، فكتب أبو داود الى أبى مسلم من رسالة « انا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا تخالفن امامك ولا ترجعن الا باذنه » .

ووافاه هذا الكتاب وهو فى تلك الحـــالة من تبلبل الفكر وتضعضع العزم فزاده هما ورعبا ، وارتبكت أعصاب الرجـل وهاله الأمر وتحللت عزيمته ، فاستدعى رسول أبى جعفر وصديقه مالك بن الهيثم ، وقال لهما « انى قد كنت معتزما المضى الى خراسان ، ثم رأيت أن أوجه أبا اسحاق الى أمير المؤمنين فيأتينى برأيه فانه ممن أثق بهم » .

ولما قدم رسول أبى مسلم على أبى جعفر تلقاه بنو هاشم بكل ما يحب ، وقال له أبو جعفر « اصرفه عن وجهـــه ولك ولاية خراسان » وأجازه .

فرجع أبو اسحاق الى أبى مسلم وقال له « انه لم يجد من القوم ما ينكره وانهم معظمون لحقه » وأشار عليه أن يرجع الى أمير المؤمنين فيعتذر اليه مما كان .

وكان أبو جعفر قد نجح فى أن يهز ثقة الرجل بنفسه ، وأن يعطل قوة رأيه القاطع ، فأجمع على العودة الى الخليفة لأنه لم يجد بدا من ذلك ، وحاول نيزك أن يثنيـــه عن عزمه ، ولكن أبا مسلم كان يشعر بقوة قاهرة تجبره على الذهاب ، ولما أطال عليه نيزك تمثل أبو مسلم قائلا : —

ما للرجال مع القضاء محالة   ذهب القضاء بحيـلة الأقوام

فقال له نيزك وقد عجز عن اقناعه ورده عن عزمه « أما وقد

عزمت علي هذا فاحفظ عنى واحدة ، اذا دخلت عليه فاقتله ، ثم بايع لمن شئت فان الناس لا يخالفونك » .

وكتب أبو مسلم الى أبى جعفر يخبره أنه منصرف اليه ، ولما طوى أكثر الطريق تلقاه رجل من قواده ، وحذره ونصح له بالعودة ، فاشتدت مخاوفه وكثرت هواجسه ، وخايلته فكرة العودة فتردد وتلبث ، ولكن الشبكة المحكمة لم تمكنه من الافلات، وأحس الرجل بشدة وطأتها وعجزه عن النجاة فاستسلم للقضاء ، وكان المنصور الذى لا تنفد حيله يدس عليه رجالا ليبلغوه ما ينفى عنه الوساوس ويوحى اليه الطمأنينة .

ولما شارف المدائن أمر المنصور الناس فتلقوه ، واحتفى بمقدمه القواد والرؤساء وأعيان العباسيين ، ولما دخل المدائن كان النهار قد أدبر وأرخى الليل سدوله ، وجلس أبو جعفر ينتظر قدومه ، وقد حفه صمت عميق ووقار رهيب ، ودخل أبو مسلم على المنصور وسلم ، ورحب به المنصور وعانقه ، والتقى الرجلان وجها لوجه على ضوء الشموع ، وكان أحدهما وهو المنصور أسمر اللون رقيق السمرة طويلا نحيفا خفيف العارضين عليه أبهة الملك وجلال النسك ، وكان الآخر — وهو أبو مسلم — قصيرا أسمر أحور العين عريض الجبهة وافر اللحية ، ساهم الوجه شارد الفكر يحاول جهده أن يتماسك ويتجلد ، ولم يغب عن عين المنصور ما يعانيه أبو مسلم من الاضطراب الخفى فتلاطف معه ، وترفق به، واحتفى بمقدمه ، وتهللت فى وجهه المهيب الدائم الجد والعبوس تلك الابتسامات التى يتخذها الساسة قناعا يسترون به مبيت النيات وخفى الأغراض ، وقال له فى لهجة لينة تبعث على الطمأنينة وتنطوى على العتاب الرقيق « كدت أن تمضى قبل أن أفضى اليك بما أريد » فقال أبو مسلم وقد أثر فى نفسه اللقاء الحسن والترحيب الواضح « قد أتيت يا أمير المؤمنين فأمر

بأمرك » فأمره بالانصراف الى منزله لينفض عنه غبار السفر ويرتاح من وعثائه ، وقد حاول كل منهما فى تلك اللحظات القصار التى قضياها معا أن يتغلغل بنظراته الحادة الى سريرة صاحبه وخرج أبو مسلم وقد ذهب به الفكر كل مذهب ، ولعله لم يشعر فى تلك الليلة بما حفلت به المدائن من أصوات البشائر ، وبما أقيم لقواده ورجال حاشيته من الولائم والحفلات ، وآوى الى فراشه مبكرا ، ونستطيع أن نتصور أبا مسلم فى تلك الليلة متململا فوق فراشه لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال ، ولم تستطع مظاهر الحفاوة والتكريم التى قوبل بها أن تبدد مخاوفه وتنفى عنه الأفكار السود ، وأخذت كلمات التحذير التى قالها له صديقه أبو نصر وصاحبه نيزك تدوى فى أذنه دويا متصلا ، وترن رنينا محزنا ، ولعله أخذ يعجب من نفسه ، وكيف جاء الى المدائن يسعى الى حتفه ، وكيف خذلته شجاعته ، وخانته عزيمته ، والتوى عليه الرأى ، وهو الجندى الباسل ، والقائد البارع ، والسياسى الخطير ، وكان يشعر بعزلته ، وانه وحيد فى عالم غريب ، وقد اشتبهت عليه أموره ، وضل فيه تفكيره ، وأن الخطر الذى يهدد حياته قد صار على كثب منه ، ولما مضى الهزيع الأول من الليل هدأت الحركة فى المدائن ، وهمدت الأصوات ، وران الكرى على الجفون ، ولكن بقى رجلان ساهرين ، أحدهما أبو مسلم الذى كان يفكر فى مصيره وما تخبئه له الأقدار ، ويخشى أن يغدر الخليفة بأقدر رجاله ، وأبرع وزرائه ، والآخر المنصور ، وقد أخذ يلوم نفسه لأنه لم يهتبل الفرصة ويقتل أبا مسلم عندما ملأ عينيه منه كما سبق أن قال لكاتبه أبى أيوب الموريانى ويريح نفسه ويشفى غلته ، وصار يستطيل الليل ويرقب تباشير الصباح فى قلق وحذر .

ولما أقبل الصباح استدعى المنصور أربعة من رجال حرسه الأشداء ، وعرفهم بالمهمة الموكولة اليهم ، فهالهم الأمر ، ولكنهم لم

يجترئوا على المخالفة ، وأوصاهم بالوقوف خلف الرواق حاملين سيوفهم ، وأن يبرزوا اذا ارتفع صوته ، وصفق بيديه ، ويقتلوا أبا مسلم .

وأصبح أبو مسلم متعبا حزينا لما عاناه من أرق وتسهيد ، وما ساوره من أفكار وهموم ، وكانت بينه وبين عيسى بن موسى ابن أخي المنصور وولي عهده صداقة ومودة فأتى منزله ، وتناول عنده الغداء ، وفي خلال الحديث أنشد عيسى :

سيأتيك ما أفنى القرون التي مضت

وما حـــل في أكناف عاد وجرهم

ومن كان أنأى منك عـــزا ومفخرا

وأنهد بالجيش اللهام العـرمـرم

فالتفت اليه أبو مسلم وقد امتقع وجهه وقال له « هذا مع الأمان الذي أعطيت ؟ » .

فقال له عيسى « اعتق ما أملك أن كان هذا لشيء من أمرك ، وما هو الا خاطر أبداه لساني » .

فقال أبو مسلم « فبئس الخاطر والله اذن » .

وبعد قليل وافاه رسول الخليفة يدعوه الى الحضور ، فقال له عيسى « لا تعجل بالدخول حتى أحضر وأدخل معك » .

فأبطأ عيسى بالوضوء ، ومضى أبو مسلم ، فلما هم بالدخول على الخليفة جرده البواب من سلاحه ، فدهش لذلك ، ولما مثل بين يدي الخليفة شكا اليه ما صنع به ، فطيب المنصور خاطره ، وأقبل بعد ذلك عليه يعاتبه ويحصي عليه ذنوبه ، وينعى عليه زلاته ، وشدد النكير على سلوكه نحوه ، وكيف كان يتقدمه في

طريق الحج ، وكيف كان يكتب اليه فيبدأ بنفسه ، وكيف أقدم على قتل سليمان بن كثير مع حسن بلائه فى الدعوة العباسية ، وكان أبو مسلم يرد على ذلك بكياسته المعهودة ، ولما أكثر عليه المنصور أخذته العزة فقال له « لا يقال لى هذا بعد بلائى فى دولتكم وما كان منى » .

فغضب المنصور وقال له « لو كانت أمة مكانك لأجزت ناحيتها ، انما عملت ما عملت فى دولتنا وبريحنا ، ولو كان ذلك اليك ما قطعت فتيلا » .

وسبه بعد ذلك وذكره كيف تطاول الى خطبة عمته ، وادعى أنه من ولد سليط ، وعلت مراجل غضب المنصور ، وانفتقت فى نفسه شهوة الانتقام ، ولاحت فى عينيه بوارق الحقد ولوائح الغدر ، وأدرك أبو مسلم خطورة الموقف ، فأخذ يعرك يده ويقبلها ويحاول تهدئة ثائرته ، وتزايد غضب المنصور ، وصفق بيديه ، فبرزت الرجال بالسيوف ، ولم تزد أول ضربة على أن قطعت حمائل سيفه فقال « يا أمير المؤمنين استبقنى لعدوك » فقال له المنصور « لا أبقانى الله اذن ، وأى عدو أعدى لى منك » وصاح برجال الحرس « اضربوا قطع الله أيديكم » .

ولما توالت على أبى مسلم الطعنات خارت البقية الباقية من شجاعته ، وطوى اباؤه ، وارتجف من الموت هذا الرجل الذى أذاق الألوف طعم الموت وجرعهم مرارته ، وصار يلتمس العفو فى ذلة وضراعة حتى عجب المنصور وقال له « العفو وقد اعتورتك السيوف » .

ووقف المنصور أمام فريسته كالوحش الضارى ينشد ، —

زعمت أن الدين لا يقتضى
فاستوف بالكيل أبا مجرم

سقيت كأسا كنت تسقى بها
أمـر فى الحلق من العلقـم

ودخل بعد ذلك عيسى بن موسى ، وسأل عن أبى مسلم ، فقال له المنصور « ها هو ذاك فى البساط » .

فأبدى عيسى أسفه وتفجعه ، وذكر اخلاص أبى مسلم وطاعته، فقال له المنصور « خلع الله قلبك ، وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ؟ » .

ودعا المنصور بجعفر بن حنظلة فقـال له « ما تقول فى أبى مسلم ؟ » .

فقال « يا أمير المؤمنين ان كنت أخذت شعرة من رأسه فاقتل ثم اقتل ثم اقتل » .

فقال له المنصور « وفقك الله » ثم أمره بالقيام والنظر الى أبى مسلم مقتولا ، فقال « يا أمير المؤمنين ، عد من هذا اليوم لخلافتك » ثم استؤذن لاسماعيل بن على فقال « يا أمير المؤمنين اننى رأيت فى ليلتى هذه كأنك ذبحت كبشا واننى توطأته برجلى » فقال « نامت عينك يا أبا الحسن ، قم فصدق رؤياك فقد قتل الله الفاسق » . فقام اسماعيل الى الموضع الذى فيه أبو مسلم فتوطأه .

وهم المنصور بقتل أبى اسحق صاحب حرس أبى مسلم ، فكلمه أبو الجهم وقال له « يا أمير المؤمنين ، جنده جندك ، أمرتهم بطاعته فأطاعوه » .

ودعا المنصور بأبى اسحاق ، فلما دخل عليه ولم ير أبا مسلم قال له أبو جعفر « أنت التابع لعدو الله أبى مسلم على ما كان أجمع عليه » فجعل يتلفت يمينا وشمالا خوفا من أبى مسلم ،

فقال له المنصور « تكلم بما أردت ، فقد قتل الله الفاسق » وأمر باخراجه اليه مقطعا ، فلما رآه أبو اسحاق خر ساجدا وأطال السجود ، فقال له المنصور « ارفع رأسك وتكلم » .

فرفع رأسه وهو يقول « الحمد لله الذى أمننى منك اليوم ، والله ما أمنته يوما واحدا منذ صحبته ، وما جئته يوما قط الا وقد أوصيت وتكفنت وتحنطت » ثم رفع ثيابه الظاهرة فاذا تحتها ثياب كتان جدد وقد تحنط .

فلما رأى المنصور ذلك قال له « استقبل طاعة خليفتك واحمد الله الذى أراحك من الفاسق » .

وخرج المنصور الى الناس بعد أن عرض عليهم رأس أبى مسلم وخطب قائلا « أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة الى وحشة المعصية ، ولا تمشوا فى ظلمة الباطل بعد سعيكم فى ضياء الحق ، ان أبا مسلم أحسن مبتدأ وأساء معقبا ، وأخذ من الناس أكثر مما أعطانا ، ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره ، وعلمنا من حيث سريرته وفساد نيته ما لو علمه اللائمون لنافية لعذرنا فى قتله ، وعنفنا فى امهاله ، وما زال ينقض بيعته ، ويخفر ذمته حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه ، فحكمنا فيه حكمه لنا فى غيره ، ولم يمنعنا الحق له من امضاء الحق فيه » .

وأمر المنصور فحملت بقايا أبى مسلم ورمى بها فى دجلة ، وبعث الى عدة من قواده بجوائز سنية وأعطى جميع جنده حتى رضوا ، ورجع أصحابه وهم يقولون « لقد بعنا مولانا بالدراهم » .

ومرت على هذه الحادثة أعوام ، وبينما كان المنصور ذات ليلة يسمر مع جماعة من خاصته قال لهم فى خلال الحديث « ثلاثة كن فى صدرى شفى الله منها ، كتاب أبى مسلم الى وأنا خليفة الذى قال فيه « عافانا الله واياك من السوء » ودخول

رسوله الينا وقوله « أيكم ابن الحارثية » وضرب سليمان بن حبيب ظهرى بالسياط » .

وقد كان قتل أبى مسلم ضرورة سياسية ومحاولة جبارة قام بها المنصور لصد تيار النفوذ الفارسى واستفحال أمره ، وأعادها بعده الرشيد بايقاعه بالبرامكة ، وكررها المأمون باغتياله الفضل بن سهل ، ولكنهم لم يوفقوا فى تلك المحاولة التوفيق كله لأن تغيير مجرى الحوادث فى كثير من الأحوال من وراء قدرة الرجال ولو كانوا من طراز المنصور والرشيد والمأمون .

حينما سار أبو مسلم الى المدائن خلف صديقه أبا نصر مالك ابن الهيثم على ثقله وأمتعته وخزائنه وقال له « أقم حتى يأتيك كتابى » فقال له أبو نصر « اجعل بينى وبينك آية أعرف بها كتابك » فقال له أبو مسلم « ان أتاك كتابى مختوما بنصف خاتم فأنا كتبته ، وان أتاك بالخاتم كله فلم أكتبه ولم أختمه » . فلما كتب اليه أبو جعفر على لسان أبى مسلم يأمره أن يحمل أثقاله وما خلف عنده من أموال ويأتى بها الى المدائن ورأى الكتاب وعليه ختم أبى مسلم كاملا أدرك أن الرجل قد قتل ، فحمل متاعه واتجه نحو همذان قاصدا خراسان ، وكان أبو جعفر قد احتاط للأمر فأرسل الى عامله على همذان زهير بن التركى يأمره بالقبض على مالك بن الهيثم وارساله اليه مكبلا بالحديد ، فلما رآه أبو جعفر قال له « يا عدو الله كيف أشرت على أبى مسلم صاحبك بالتمرد على أمرى والخروج الى خراسان وقلت له ما قلت » فأجاب أبو نصر « يا أمير المؤمنين كانت له عندى أياد فنصحت له ، وان اصطنعتنى وعفوت عنى شكرت لك ونصحت» فعفا عنه أبو جعفر وكان يعرف ماضى جهاده فى الدعوة العباسية منذ نشأتها وحسن بلائه فى هذا الصدد ، وكان للمنصور حسن فراسة فى الرجال الأكفاء الذين تجدى فيهم الصنيعة .

ولم يكن من المنتظر أن تطوى صفحة أبى مسلم دون أن يكون لذلك دوى فى خراسان بوجه خاص فقد وطد فيها أبو مسلم مكانته ، وكان يتصرف بها تصرف الحاكم بأمره ، فلما نمى خبر قتل أبى مسلم الى خراسان ومنطقة الجبال اضطربت الخرمية ،

وهى الطائفة التى تدعى بالمسلمية ، وكانوا يقولون بامامة أبى مسلم ، واختلفوا بعد قتله ، فمنهم من رأى أنه لم يمت ولن يموت وانه سيظهر ليقيم العدل ويمنع الجور ، وفرقة قطعت بموته وقالت بامامة ابنته فاطمة وهؤلاء كانوا يدعون بالفاطمية ، وهاتان الفرقتان أكبر فرق الخرمية ، وكان أكثر الخرمية بخراسان والرى وأصبهان واذربيجان وغيرها من الجهات الملاصقة لها ، وكان أكثر أفرادها فى القرى والضياع .

وحينما علمت طائفة الخرمية بقتل أبى مسلم تجمعت حشودها بزعامة رجل يدعى سنباذ وتقدم فى عسكر عظيم من خراسان الى الرى فغلب عليها ، واستولى على ما كان بها من خزائن أبى مسلم ، وتكاثرت جموعه واستفحل أمره ، فلما اتصل خبره بالمنصور سرح اليه جمهور بن مرار العجلى فى عشرة آلاف رجل وأمده بالامدادات ودارت معركة شديدة بين الجيشين وصبر الفريقان ، وانجلت المعركة عن قتل سنباذ وهزيمة جيشه، وذلك بعد قتل أبى مسلم بأشهر سنة ١٣٧ هجرية .

وفى السنة نفسها خرج ملبد بن حرملة الشيبانى فحكم بناحية الجزيرة ، فسارت اليه روابط الجزيرة فقاتلهم ملبد وهزمهم ، وأرسل اليه أبو جعفر جيشا بقيادة يزيد بن حاتم المهلبى فهزمه ملبد بعد قتال شديد ، ووجه اليه أبو جعفر بعد ذلك مولاه المهلهل بن صفوان فى ألفين من نخبة الجند فتغلب عليهم ملبد وهزمهم واستباح عسكرهم ، وسار اليه حميد بن قحطبة وهو يومئذ على الجزيرة فلقيه الملبد وهزمه وتحصن منه حميد وأعطاه مائة ألف درهم على أن يكف عنه ، ووجه اليه أبو جعفر عبد العزيز بن عبد الرحمن فهزمه الملبد وقتل عامة أصحابه ، وأخيرا أرسل اليه القائد القدير خازم بن خزيمة فى نحو ثمانية آلاف من المروروزية ، فتقدم خازم حتى نزل الموصل

ودارت رحى معركة فاصلة انتهت بقتل ملبد وصفوة أصحابه وأتباعه ، وهكذا انتهت ثورة ملبد بعد أن أزعجت المنصور وشغلت باله حينا من الزمن .

وفى سنة ١٣٨ خلع جمهور بن مرار العجلى ، وهو القائد الذى تغلب على جموع سنباذ وأخمد ثورته ، وكان سبب خروجه على المنصور انه حوى ما فى عسكر سنباذ بعد هزيمته ، وكان فيه خزائن أبى مسلم التى خلفها بالرى ، ولم يوجهها الى أبى جعفر، فأرسل اليه أبو جعفر محمد بن الأشعث الخزاعى فى جيش كبير، ولقيه محمد واقتتلوا قتالا شديدا ومع جمهور نخبة من فرسان العجم ، وهزم جمهور وأصحابه وقتل منهم خلق كثير ، وهرب جمهور ولحق بأذربيجان ، وقبض عليه بعد ذلك وقتل .

وبعد أن أخمد المنصور هذه الثورات أخذ يفكر فى مشكلة عمه عبد الله بن على ، فقد كان شديد القلق من ناحيته ، فهو يعرف جرأته وطموحه واقدامه على الكبائر ، وقد خرج عليه مرة وحاول تنحيته عن الخلافة ، وليس هناك ما يكفل له عدم العودة الى هذه المحاولة اذا واتته الظروف ، وكان سليمان بن على أخو عبد الله واليا على البصرة فعزله المنصور عنها سنة ١٣٩ وأدرك عبد الله ما قصده أبو جعفر من وراء هذا العزل فتوارى هو وأصحابه خوفا على أنفسهم ، وولى المنصور البصرة سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب وأمره بالضغط على سليمان والتضييق عليه حتى يشخص بعبد الله بن على الى حضرته ، وكتب الى سليمان وعيسى بن على فى أشخاص عبد الله ، وكاتب سليمان وعيسى أبا جعفر فى أن يؤمن عبد الله ، واستقر الأمر على اعطائه الأمان ، وكان عبد الله بن المقفع يكتب لعيسى بن على ولسليمان بن على ، فأمره عيسى بعمل نسخة للأمان لعبد الله ، وأوصاه أن يحترز فيها من كل تأويل يجوز أن يقع عليه فيها ، وترددت بين

أبى جعفر وبينهم فى النسخة كتب الى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط ، ولم يتهيأ لأبى جعفر ايقاع حيلة فيها لفرط احتياط ابن المقفع ، ويقول (١) الجهشيارى « ان الذى شق على أبى جعفر أن قال فى النسخة « يوقع بخطه فى أسفل الأمان » وان أنا نلت عبد الله بن على أو أحدا ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلت الى أحد منهم ضررا سرا أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحا أو كناية أو بحيلة من الحيل ، فأنا نفى من محمد بن على بن عبد الله ، ومولود لغير(٢) رشدة ، وقد حل لجميع أمة محمد خلعى وحربى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ، ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى واعانة من ناوأنى من جميع الخلق ، ولا موالاة بينى وبين أحد من المسلمين ، وهو متبرى من الحول والقوة ، ومدع ، أن كان ، أنه كافر بجميع الأديان ، ولقى ربه على غير دين ولا شريعة، محرم المأكل والمشرب والمناكح والمركب والرق والملك والملبس على الوجوه والأسباب كلها ، وكتبت بخطى ، ولا نية لى سواه ، ولا يقبل الله منى الا اياه والوفاء به » وفى رواية أخرى أنه مما كتبه ابن المقفع فى فصول هذا الأمان قوله « ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن على فنساؤه طوالق ودوابه حبس وعبيده أحرار والمسلمون فى حل من بيعته » .

وأنكر أبو جعفر هذه الصيغة الشديدة التى تحراها ابن المقفع فى كتابة الأمان ، وسأل عن كاتبه فقيل له « ابن المقفع » كاتب عيسى بن على ، فقال أبو جعفر « فما أحد يكفينيه ؟ » .

ولم تعجز أبا جعفر الحيلة فى التخلص من قيد هذا الأمان الذى بلغت فيه شدة الاحتراس أقصى مدى ، وقد رأى أنه اذا طلب

---

(١) صفحة ١٠٤ من كتاب تاريخ الوزراء والكتاب للجهشيارى .

(٢) لغير رشدة أى ولد سفاح وزنى .

الى عميه أن يخففا من حدة شروطه أثار فى نفسيهما الشك ، واذا رفضه جملة اتسعت شقة الخلاف بينه وبين عميه ، وأحدث ذلك فرقة فى صفوف الأسرة العباسية ، فتظاهر بأنه راض عن هذا الأمان ، وانه يقر ما به من شروط ، ولكنه لا يستطيع أن يختمه بختمه الا اذا قدم عليه عبد الله ، ووقعت عينه عليه ، خشية أن يحمل هذا الأمان ويخرج عن طاعته ويؤلب عليه .

واطمأن عماه الى هذا الوعد ، وقدما على أبى جعفر ، وأعلماه حضور عبد الله ، وسألاه الاذن له ، فأجابهما الى ذلك ، وشغلهما بالحديث ، وكان قد هيأ لعبد الله مكانا فى قصره وأمر أن يصرف اليه بعد دخول سليمان وعيسى ، ففعل ذلك ، ونهض أبو جعفر من مجلسه وقال لسليمان وعيسى « سارعا بعبد الله » فلما خرجا افتقدا عبد الله من المجلس الذى كان فيه فعلما أنه قد حبس ، فرجعا الى المنصور فمنعا عنه ، وحيل بينهما وبين الوصول اليه، وأخذت سيوف من حضر مع عبد الله من أصحابه ، وكان أحدهم — وهو خفاف بن منصور — قد حذرهم ذلك ، وندم على مجيئه معهم ، وقال لهم « ان أطعتمونى شددنا شدة واحدة على أبى جعفر فوالله لا يحول بيننا وبينه حائل حتى نأتى عليه ، ولا يعرض لنا أحد الا قتلناه ونجونا بأنفسنا » فعصوه ، فلما أخذت سيوفهم وحبسوا جعل خفاف يسخر منهم ويعبث بهم ، ثم أمر المنصور بقتل بعضهم بحضرته ، وبعث الباقين الى أبى داود خالد بن ابراهيم بخراسان فقتلهم بها ، وبقى عبد الله فى سجنه حتى تحين فرصة للخلاص منه .

ويعزو بعض مؤرخى حيـــاة ابن المقفع مصرعه الى غضب المنصور عليه لكتابة أمان عبد الله ، فقد استغل ذلك سفيان بن معاوية وكان ناقما على ابن المقفع لاستخفافه به الذى وصل الى حد الاقذاع فى السب ، وشجعه ما عرفه من نقمة المنصور على ابن المقفع على أن يغتاله فى سنة ١٤٢ بعد أن ضاق ذرعا باستطالته

عليه وتنقصه له ، وقد كانت كتابة الأمان فى سنة ١٣٩ « ولو كانت كتابة الأمان السبب الرئيسى (١) لقتله لما استطالت المدة التى أعقبت الأمان وهى على أقل تقدير تتراوح بين عامين وثلاثة أعوام » والأرجح أن علم سفيان بسخط المنصور على ابن المقفع جعله يقدم على قتله وهو مطمئن برغم علمه بصلة ابن المقفع بسليمان وعيسى عمى المنصور .

وفى سنة ١٤٠ هجرية خرج المنصور من الهاشمية حاجا ، فأحرم من الحيرة ، ثم رجع بعد ما قضى حجه الى المدينة فتوجه منها الى بيت المقدس ، ولما قدم بيت المقدس صلى فى مسجدها ، ثم سلك الشام منصرفا حتى انتهى الى مدينة الرقة فنزلها ، ثم شخص منها فسلك الفرات حتى أتى الهاشمية ، وبعد عودته من هذه الرحلة بزمن يسير ظهر أمر الراوندية ، وهم قوم من أهل خراسان — كما يقول الطبرى وابن الأثير — وكانوا يجمعون بين الاعتقاد بتناسخ الأرواح والايمان بمذهب الحلول ، فهم يزعمون أن روح آدم فى عثمان بن نهيك ، كبير حرس المنصور ، وأن المنصور هو ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم ، وأن الهيثم بن معاوية هو جبرائيل ، وجمعوا جموعهم وأتوا قصر المنصور فجعلوا يطوفون به ويقولون وقد أخذتهم الحماسة . « هذا قصر ربنا ، هذا قصر رب العزة الذى يطعمنا ويسقينا » وظلوا على ذلك بضعة أيام .

وكان المنصور رجلا سياسيا مطبوعا ، فهو ينظر الى الأمور أول ما ينظر من الناحية السياسية ، فلم ير فى بادىء الأمر كبير بأس ، ولا عظيم خطر ، فيما تقول به الراوندية ، وكان يؤثر الاغضاء عنهم والصبر عليهم حتى تفتر دعوتهم ، فلما دخل عليه

---

(١) راجع صفحة ١٠٠ من كتاب « عبد الله بن المقفع » للأستاذ محمد غفرانى الخراسانى .

احد أعوانه وحدثه فى أمرهم مستنكرا مقالتهم قال له المنصور « يدخلهم الله النار فى طاعتنا ويقتلهم أحب الى من أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا » ولكن أمرهم استفحل ، ودعوتهم اشتدت ، وأخذ رجال الدين وعامـــة الشعب يتذمرون من مسلكهم ، ويتحدثون عن سكوت الخليفة عنهم وتهاونه فى أمرهم ، فاستدعى المنصور رؤساءهم ، وحبس منهم مائتين ، وأمرهم أن لا يجتمعوا، وكان لهذا العمل نتيجة غريبة ، فانهم بدلا من أن يعتـــدلوا فى دعوتهم ، ويكفوا عن المغالاة فى تمجيد المنصور ، اعتقدوا أن المنصور غير أهل لتلك المنزلة الشماء التى رفعوه اليها ، وعقدوا العزم على مجاهدته وقتله ، ليتجسم الله فى أقصر وقت ممكن فى شخصية أكمل وأتم من شخصية المنصور ، وهو منطق غريب ! ولكنه يتفق مع نقائض الطبيعة الانسانية ، وكأن الانسان يألف من الطاعة والخضوع لانسان آخر مثله ، يعادله فى الانسانية ويشاركه فى ضعفها وفنائها . فيأبى الا أن يسمو بهذا الانسان الى مرتبة الأرباب لتطيب نفسه بأن يقدم له الطاعة والخضوع ، ولم يجد هؤلاء المتعصبون بدأ من محاربة المنصور لأن الحرب من أحب الأشياء الى المتعصبين لاعتقادهم أنها خير سبيل للدفاع عن معتقداتهم ، وتمكينهم من اظهار اخلاصهم لها ، وتفانيهم فى العمل على نصرتها ، والاستشهاد فى تأييدها .

وعمـــدوا الى الحيلة ، فأعدوا نعشا ، وحملوا السرير ــ وليس فى النعش أحد ــ ثم مروا فى المدينة حتى صاروا على أبواب السجن ، فرموا بالنعش ، وشدوا على الناس ، ودخلوا السجن فأخرجوا أصحابهم ، وقصدوا نحو المنصور وهم يومئذ ستمائة رجل ، فاشتد الهرج ، وتعالت الأصـــوات ، وساد الاضطراب وتنادى الناس ، وأغلقت أبواب المدينة ، وأسرع اليهم عثمان بن نهيك كبير الحرس لينهاهم ويكبح من جماحهم ، فلم يجد معهم كلامه ، فلما انصرف عنهم رموه بنشابة وقعت بين

كتفيه فمرض أياما ومات منها ، واستدعى المنصور بعض بطانته ومن يثق بهم من رجاله واستشارهم فى الموقف كدأبه فى معضلات الأمور وطوارىء الأحداث الجليلة ، وكان المنصور اذا عرضت له خطة قلبها على جميع وجوهها ، ونظر اليها من زوايا مختلفة ، وتحت أضواء متباينة ، وكان يزن كل الممكنات والمحتملات ، وينظر الى التفاصيل والدقائق ، ويحسن الانتقال من منطقة التفكير الى منطقة العمل ، وقليل من يجمع بين اجادة التفكير واجادة العمل ، وهو من هؤلاء الأشخاص النوادر الذين تعادلت فيهم القوتان ، والزعامة فى حاجة الى الشجاعة وقوة الارادة ثم العقل الراجح والبداهة الغامرة ، وكان المنصور يعهد فى نفسه هذه الصفات ، ويثبت للحوادث ، فيوحى ذلك الثقـــة به الى نفوس رجاله ، وأدرك المنصور أن الموقف يحتاج الى سرعة البت واتخاذ خطوة جريئة ، فلما قال له أحد أعوانه « ان خير علاج للموقف هو أن تنادى فى الناس وتأمر لهم بالأموال » خالفه فى ذلك وقال له « وأين الناس والأموال ؟ ومن يقدم على أن يعرض نفسه لهؤلاء العلوج ؟ » وأجمع على الخروج اليهم بنفسه والتعرض للخطر ، لاعتقاده أن الناس اذا رأوه قاتلوا وتشجعوا وأبلوا ، وانه اذا ظل مختبئا فى قصره أغراهم ذلك بالتهاون والتخاذل ، وأقبل مولاه أبو الخصيب — أحد حجابه — وحاول منعه من الخروج ابقاء على حياته ، فاجتذب ثوبه منه ، ثم دعا بدابته ووثب عليها من غير ركاب ، ثم سوى ثيابه وخرج ، وكان لخروجه التأثير المطلوب، فان الناس لما رأوا المنصور بقامته الفارعة وطلعته المهيبة وما يبدو عليه من امارات العزم والثبات ثاب اليهم رشدهم وأخـــذوا فى مقاومة الراوندية ، وتكاثرت الراوندية على المنصور حتى كادوا يقتلونه ، واذا برجل ملثم يشق اليهم الجموع ، ويثخن فيهـــم اثخانا ، حتى رد عاديتهم عن المنصور ، وأخذ بعد ذلك بلجام دابته ، وكان يشد على كل من حدثته نفسه بالاقدام على المنصور ويقتله .

ثم فتحت أبواب المدينة ودخلت الناس ، وكانت أنباء الثورة والاضطراب قد ترامت الى أسماع القائد القدير خازم بن خزيمة، فأقبل فى جنده على فرس (١) محذوف ، واستأذن المنصور فى قتالهم واستئصال شأفتهم ، فأذن له ، فحمل عليهم حتى هزمهم وقتلوا جميعا بعد أن أبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن أنفسهم .

ولما هدأت الحالة اختفى الرجل الملثم فى غمار الجموع ، فسأل عنه المنصور ، وعلم أنه معن بن زائدة ، وكان مختفيا من أبى جعفر لما كان منه من قتاله المسودة مع ابن هبيرة مرة بعد مرة ، فلما تغيب أعلن المنصور أنه قد غفر له قديم ذنبه ، وأمر باستدعائه ، ولما قتل الراوندية جميعهم وصلى المنصور الظهر دعا بالعشاء وقال « اطلعوا معن بن زائدة » وأمسك عن الطعام حتى جاء معن ، فقال المنصور لقثم بن العباس « تحول الى هذا الموضع » واجلس معنا مكان قثم ، ولما فرغوا من العشاء التفت المنصور الى عيسى بن على وقال له « يا أبا العباس ! أسمعت بأسد الرجال ؟ » قال « نعم » فقال له المنصور « لو رأيت اليوم معنا علمت أنه من تلك الآساد » .

فأجابه معن « والله يا أمير المؤمنين ! لقد أتيتك وانى لوجل القلب ، فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم ، وشدة الاقدام عليهم رأيت أمرا لم أره من خلق فى حرب ، فشد ذلك من قلبى ، وحملنى على ما رأيت منى » وأمر المنصور له بعد ذلك بعشرة آلاف درهم ، وقربه وولاه اليمن .

وثورة الراوندية أظهرت للمنصور أن نظام الجيش والحرس فى حاجة الى الاصلاح السريع ، وكشفت له عن رغبة أهل العراق الدائمة فى ذلك الحين الى الثورة وجنوحهم الى الشغب ، وتعرضهم للانفعالات الدينية والتأثيرات المذهبية ، وأقنعته

(١) أى قصير الذنب

بضرورة ايجاد عاصمة جديدة لحفظ كيان الأسرة ، والمحافظة على حياة الخلفاء ، وكانت العراق هى قاعدة الحكم ومركز التدبير السياسى ، ولذا رأى المنصور أنه يحسن أن يكون موقع العاصمة الجديدة على حدود العراق ، ووقع اختياره بعد ذلك على الموقع الذى بنيت فيه مدينة بغداد .

وتركت هذه الحادثة فى نفس المنصور أثرا قويا وصورة باقية ، فقد تشعب به الحديث مرة مع أحد أعوانه فقال له المنصور « انى أخطأت ثلاث خطيات وقانى الله شرها ، قتلت أبا مسلم وأنا فى خرق ومن حولى يقدم طاعته ويؤثرها ، ولو هتكت الخرق لذهبت ضياعا ، وخرجت يوم الراوندية ولو أصابنى سهم غرب لذهبت ضياعا ، وخرجت الى الشام ولو اختلف سيفان بالعراق ذهبت الخلافة ضياعا » .

وكان معن بن زائدة معروفا بالكرم كما عرف بالشجاعة ، فلما ولى اليمن قصده الشاعر « مروان بن أبى حفصة » ومدحه بالقصيدة النونية المشهورة فأعطاه ألف دينار ، وقدم معن عقب ذلك فدخل على المنصور ، فتجهم له المنصور ولم يرحب بمقدمه ودارت بينهما هذه المحاورة : —

المنصور : لقد بلغ أمير المؤمنين عنك شىء لولا مكانك عنده ورأيه فيك لغضب عليك ! .

معن : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ .

المنصور ، اعطاؤك مروان بن أبى حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معن بن زائدة الذى زيدت به — شرفا الى شرف بنو شيبان
ان عد أيام الفعال فيومه — يومان يوم ندى ويوم طعان

معن : والله يا أمير المؤمنين ما أعطيته ما بلغك لهذا الشعر . وانما أعطيته لقوله : —

ما زلت يوم الهاشمية معلنا   بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه   من وقع كل مهند وسنان

المنصور : ـ وقد غلبه الحياء ـ اذن انما أعطيته ما أعطيته لهذا القول !

معن : نعم يا أمير المؤمنين ، والله لولا مخافة الشنعة عندك لأمكنته من مفاتيح بيوت الأموال وأبحته اياها .

المنصور : لله درك من اعرابى ، ما أهون عليك ما يعز على الرجال وأهل الحرم .

وفى السنة نفسها ـ سنة ١٤١ التى حدثت فيها ثورة الراوندية خلع عبد الجبار بن عبد الرحمن عامل خراسان لأبى جعفر ، وسبب ذلك أن المنصور لما استعمله عمد الى القواد فقتل بعضهم وحبس بعضهم ، وبلغ ذلك المنصور ، فقال لوزيره أبى أيوب الموريانى « ان عبد الجبار قد أفنى شيعتنا ، وما فعل ذلك الا وهو يريد أن يخلع » فقال له أبو أيوب « ما أيسر حيلته ، أكتب اليه انك تريد غزو الروم فيوجه اليك الجنود من خراسان وعليهم فرسانهم ووجوههم ، فاذا خرجوا منها بعثت اليه من شئت فليس به امتناع » .

فكتب اليه ، فأجابه بأن الترك قد جاشت وان فرقت الجنود ذهبت خراسان ، فألقى المنصور الكتاب الى أبى أيوب وقال له « ما ترى ؟ » قال « قد أمكنك من قياده ، أكتب اليه أن خراسان أهم من غيرها ، وأنا موجه اليك الجنود من قبلى ، ثم وجه اليه الجنود ليكونوا بخراسان ، فان هم بخلع أخذوا بعنقه » فلما ورد على عبد الجبار الكتاب كتب الى المنصور « ان خراسان لم تكن قط أسوأ حالا منها فى هذا العام ، وان دخلها الجنود هلكوا لضيق ما هم فيه من غلاء السعر » فلما أتاه الكتاب ألقاه الى أبى أيوب

فقال له أبو أيوب « لقد أبدى صفحته ، وقد خلع فلا تناظره » .

ووجه المنصور ابنه المهدى وأمره بنزول الرى ، ووجه خازم ابن خزيمة بين يديه لحرب عبد الجبار ، وسار المهدى فنزل نيسابور ، فلما بلغ ذلك أهل مروالروز ساروا الى عبد الجبار وحاربوه وقاتلوا قتالا شديدا ، فانهزم وهرب ، وأسر بعد ذلك، وحمل الى المنصور ومعه ولده ، وأصحابه ، فبسط عليهم العذاب حتى استخرج منهم الأموال ، ثم أمر المسيب فقطعت يدا عبد الجبار ورجلاه وضرب عنقه .

ولما ظفر محمد المهدى وقائد جيشه بعبد الجبار دون بذل مجهود كبير كره المنصور أن تذهب سدى النفقات التى أنفقت على اعداد هذه الحملة ، فكتب الى المهدى بفتح بلاد طبرستان ، وكان ملكها يدعى الأصبهد ، وطالت الحرب بين الطرفين لوعورة جبال طبرستان وشدة أهلها فى القتال ، فوجه المنصور جيشا آخر بقيادة عمر بن العلاء وكان عارفا بتلك المنطقة ، وتم الاستيلاء على طبرستان كلها وأصبحت طبرستان جزءا من الدولة العباسية وبقى محمد المهدى مقيما فى مدينة الرى بوصفه أميرا على خراسان وما حولها ، وساعد ذلك على تهدئة الأحوال فى خراسان ، وقد ظل المهدى أميرا على خراسان من سنة ١٤١ الى سنة ١٥١ وأكسبه ذلك خبرة سياسية وحربية ولعل ذلك كان من بواعث اتجاه تفكير المنصور الى ترشيحه لولاية العهد وتنحية عيسى ابن موسى .

المنصور والعلويون

كانت الدعوة العباسية قبل استعلانها مبهمة ، لأنها كانت تدعو الى الرضا من آل محمد ، وتخفى ما استطاعت اسم الامام الذى تدعو له ، وكان هذا الابهام مقصودا للمحافظة من ناحية على حياة الامام وتجنيبه خطر التعرض لاضطهاد الأمويين من ناحية ولأن العباسيين كانوا من ناحية أخرى يرون أن حق العلويين فى المطالبة بالخلافة أقرب الى عقول الناس وقلوبهم من مطالبتهم بهذا الحق ، فلما نجحت الدعوة العباسية بحسن تدبير دعاتها من ناحية ومساعفة الظروف لهم من ناحية أخرى ولأن الأمويين كانوا أشد اهتماما بمراقبة العلويين ووضعهم بغير انقطاع تحت المجهر منهم بالاهتمام بمراقبة العباسيين أثار ذلك النجاح بطبيعة الحال حسد العلويين ذوى السابقة فى خدمة الاسلام ومقاومة الدولة الأموية ، وعدوا بينهم وبين أنفسهم العباسيين مغتصبين للخلافة مثل الأمويين من قبلهم ، وكان أبرز شخصيات الطالبين حينما ظهرت الدولة العباسية هما جعفر الصادق ومحمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية ، أما جعفر الصادق وهو امام الشيعة الامامية فكان منصرفا الى بحوثه الفقهية والتبحر فى الدراسات الاسلامية وكان يرى أن الظروف غير ملائمة للمطالبة بحقوقه السياسية ، أما محمد بن عبد الله فكان يرى أن له من فضل النسب والحسب والعلم والمعرفة والخلق السرى والسمعة الحسنة والمكانة فى النفوس ما يجعله أهلا لمنصب الخلافة ، وكان يشجعه على المطالبة بهذا الحق أبوه عبد الله بن الحسن وأخوه ابراهيم ، وفى احدى الروايات أن بنى هاشم حينما اضطرب أمر

الخلافة الأموية ودب فيها الضعف وبدت فيها عوامل الانحلال عقدوا اجتماعا سريا بمكة واختاروا محمدا وكان يلقب بالمهدى للخلافة وبايعوه على ذلك ، وكان ممن بايعه أبو العباس وأبو جعفر وغيرهما من أعيان الهاشميين ، ويقال ان هذا هو سبب امتناع محمد عن مبايعة أبى العباس حين ولى الخلافة وامتناعه عن مبايعة أبى جعفر حينما خلف عليها أبا العباس .

وقد حرص أبو العباس فى مستهل خلافته على أن يقرب العلويين لأنه كان يعلم ما تنطوى عليه نفوسهم من تأثير اعتقادهم أنهم أولى من غيرهم بوراثة الخلافة ، ويقول صاحب العقد الفريد (١) « حدث عبد العزيز بن عبد الله البصرى عن عثمان بن سعيد بن سعد المدنى قال « لما ولى الخلافة أبو العباس السفاح قدم عليه بنو الحسن بن على بن أبى طالب ، فأعطاهم الأموال ، وقطع لهم القطائع ، ثم قال لعبد الله بن الحسن « احتكم على » قال « يا أمير المؤمنين بألف ألف درهم ، فانى لم أرها قط ، فاستقرضها أبو العباس من ابن مقرن الصيرفى وأمر له بها — قال عبد العزيز لم يكن يومئذ بيت مال — ثم أن أبا العباس أتى بجوهر مروان ، فجعل يقلبه ، وعبد الله بن الحسن عنده ، فبكى عبد الله، فقال له أبو العباس « ما يبكيك يا أبا محمد ؟ » قال « هذا عند بنات مروان وما رأت بنات عمك مثله قط » قال فحباه به ، ثم أمر ابن مقرن الصيرفى أن يصل اليه ويبتاعه منه ، فاشتراه منه بثمانين ألف دينار ، ثم حضر خروج بنى حسن فأرسل معهم رجلا من ثقاته وقال له « قم بانزالهم ولا تأن فى الطافهم ، وكلما خلوت معهم فاظهر الميل اليهم والتحامل علينا وعلى ناحيتنا ، وانهم أحق بالأمر منا ، واحص لى ما يقولون وما يكون منهم فى مسيرهم وتقدمهم » .

---

(١) صفحة ٧٤ من الجزء الخامس من العقد الفريد طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

وبرغم عمل أبى العباس على ترضى العلويين وتهدئة خواطرهم وانتزاع ما فى نفوسهم كان ما يخالجهم يبدو فى فلتات لسانهم ، ويروى صاحب العقد أنه مما خش قلب أبى العباس حتى أساء بهم الظن أنه لما بنى مدينة الأنبار دخلها مع أبى جعفر أخيه وعبد الله بن الحسن ، وهو يسير بينهما ويريهما بنيانه ، وما أقام فيها من المصانع والقصور ، فظهرت من عبد الله بن الحسن فلتة ، فجعل يتمثل بهذين البيتين : —

ألم تر حوشبا قد صار يبنى   قصورا نفعها لبنى نفيله

يؤمل أن يعمر عمر نوح   وأمر الله يحدث كل ليله

فتغير وجه أبى العباس ، فقال له أبو جعفر « أتراهما ابنيك أبا محمد والأمر اليهما صائر لا محالة » فقال « لا والله ما ذهبت هذا المذهب ولا أردته ، ولا كانت الا كلمة جرت على لسانى لم ألق لها بالا » فأوحشت تلك الكلمة أبا العباس .

ولما قدم المدينة عبد الله بن حسن اجتمع اليه الفاطميون ، فجعل يفرق فيهم الأموال التى بعث بها أبو العباس ، فعظم بها سرورهم ، فقال لهم عبد الله بن الحسن « أفرحتم ؟ » قالوا « وما لنا لا نفرح بما كان محجوبا عنا بأيدى بنى مروان حتى أتى الله بقرابتنا وبنى عمنا فأصاروه الينا ؟ » فقال لهم « أفرضيتم أن تنالوا هذا من تحت أيدى قوم آخرين ؟ » .

فخرج الرجل الذى وكله أبو العباس بأخبارهم فأخبره بما سمع من قولهم وقوله ، فأخبر أبو العباس أبا جعفر بذلك فزادت الأمور شرا .

ولما مات أبو العباس وخلفه أبو جعفر وهو على بينة من كل ما حدث بعث بعطاء الى أهل المدينة ، وكتب الى عامله « أن أعط

الناس فى أيديهم ، ولا تبعث الى أحد بعطائه ، وتفقد بنى هاشم ومن تخلف منهم ممن حضر ، وتحفظ بمحمد وابراهيم ابنى عبد الله بن الحسن » ففعل عامله ما أمره به ، وكتب اليه « انه لم يتخلف أحد عن العطاء الا محمد وأبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن ، فانهما لم يحضرا » .

فكتب أبو جعفر الى عبد الله بن الحسن وذلك مبتدأ سنة تسع وثلاثين ومائة (١٣٩) يسـألـه عنهما ، ويأمره باظهارهما ، ويخبره انه غير عاذره ، فكتب اليه عبد الله « انه لا يدرى أين هما ولا أين توجها وأن غيبتهما غير معروفة » .

وكان أبو جعفر قد أذكى العيون ووضع الأرصاد ، حتى جاءه كتاب من بعض ثقاته يخبره أن رسولا لعبد الله ومحمد وابراهيم خرج بكتب الى رجال بخراسان يستدعيهم اليهم ، فأمر أبو جعفر برسولهم ، فأتى به وبكتبه ، فردها الى عبـد الله بن الحسن بطوابعها لم يفتح منها كتابا ، ورد اليه رسوله ، وكتب اليـه « انى أتيت برسولك والكتب التى معه ، فرددتها اليك بطوابعها كراهية أن أطلع منها على ما يغير لك قلبى ، فلا تدع الى التقاطع بعد التواصل ، ولا الى الفرقة بعد الاجتماع ، وأظهر لى ابنيك فانهما سيصيران بحيث تحب من الولاية والقرابة وتعظيم الشرف » فكتب اليه عبد الله يعتذر اليه ويتنصل فى كتابه ويعلمه أن ذلك من عدو أراد تشتيت ما بينهم بعد التئامه ، ثم جاءه كتاب ثقة من ثقاته يذكر أن الرسول بعينه خرج بالكتب بأعيانها على طريق البصرة ، وانه نازل على فلان المهلبى ، فان أراد أمـير المؤمنين فليضع عليه رصده ، فوضع عليه أبو جعفر رصده ، فأتى به اليه ومعه الكتب ، فحبس الرسول وأمضى الكتب الى خراسان مع رسول من عنده من أهل ثقاته ، فقدمت عليه الجـوابات

بما كره ، واستبان له الأمر ، فكتب المنصور الى عبد الله بن الحسن يقول :

« أريد حياءه ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد

أما بعد ، فقد قرأت كتبك ، وكتب ابنيك ، وأنفذتها الى خراسان ، وجاءتنى جوابات بتصديقها ، وقد استقر عندى أنك مغيب لابنيك تعرف مكانهما ، فأظهرهما الى ، فان لك على أن أعظم صلتهما وجوائزهما وأضعهما بحيث وضعتهما قرابتهما ، فتدارك الأمور قبل تفاقمها » .

فكتب اليه عبد الله بن الحسن : ــ

« وكيف أريد ذاك وأنت منى
وزندك حين تقدح من زنادى
وكيف أريد ذاك وأنت منى
بمنزلة النياط من الفؤاد

وكتب اليه : ــ انه لا يدرى أين توجها من بلاد الله ، ولا يدرى أين صارا ، وانه لا يعرف الكتب ولا يشك أنها مفتعلة » .

وأراد أبو جعفر أن يتبين حقيقة الأمر ويكشف المخبأ فبعث سلم بن قتيبة الباهلى وبعث معه بمال ، وأمره بأمره وقال له « انى انما أدخلك بين جلدى وعظمى ، فلا توطئنى العشواء ، ولا تخف عنى أمرا نعلمه » .

فخرج سلم حتى قدم المدينة ، وكان عبد الله يبسط له فى زحام المنبر فى الروضة ، وكان مجلسه فيه ، فجلس اليه وأظهر له المحبة والميل الى ناحيته ، ثم قال له حين أنس به ، ان نفرا من أهل خراسان وهم فلان وفلان ــ وسمى له رجالا

يعرفهم ممن كان يكاتب مما استقر عند أبى جعفر أمرهم ، قد بعثوا اليك معى مالا ، وكتبوا اليك كتابا ، فقبل الكتاب والمال ، وكان المال عشرة آلاف دينار ، ثم أقام معه ما شاء الله حتى ازداد انسا به واليه استنامة ، ثم قال له « انى قد بعثت بكتابين الى أمير المؤمنين محمد والى ولى عهده ابراهيم ، وأمرت أن لا أوصل ذلك الا فى أيديهما ، فان أوصلتنى اليهما وأدخلتنى عليهما أوصلت اليهما الكتابين والمال ، ورحلت الى القوم بما يثلج صدورهم ، وتقبله قلوبهم ، فأنا عندهم بموضع الصدق والأمانة ، وان كان أمرهما مظلما ، ولم تكن تعرف مكانهما لم نخاطر بدينهم وأموالهم ومهمتهم » .

فلما رأى عبد الله أن الأمور تفسد عليه من حيث يرجو صلاحها الا بايصاله اليهما ، واظهارهما له أوصله ، فدفع الكتابين مع أربعين ألف درهم ، ثم قال « هذا محمد وهذا ابراهيم » فقال لهم « ان من ورائى لم يبعثونى ولهم ورائى غاية ، وليس مثلى ينصرف الى قوم الا بجملة ما يحتاجون اليه ، ومحمد انما صار الى هذه الخطة ، ووجبت له هذه الدعوة لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وها هنا من هو أقرب من رسول الله رحما وأوجب حقا منه » قال « ومن هو ؟ » قال « أنت ، الا أن يكون عندك ابنك محمد أثر ليس عندك فى نفسك » فقال عبد الله « فكذلك الأمر عندى » فقال له « ان القوم يقتدون بك فى جميع أمورهم ولا يريدون أن يبذلوا دينهم وأموالهم وأنفسهم الا بحجة يرجون بها لمن قتل منهم الشهادة ، فان أنت خلعت أبا جعفر وبايعت محمدا اقتدوا بك ، وان أبيت اقتدوا بك أيضا فى تركك ذلك ثقة بك لقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموضعك الذى وضعك الله فيه » .

فقال عبد الله « فانى أفعل » فبايع محمدا وخلع أبا جعفر ، وبايعه سلم من بعده ، وأخذ كتبه وكتب ابراهيم ومحمد وخرج ،

فقدم على أبى جعفر وقد حضر الموسم فأخبره حقيقة الأمر ويقينه .

فلما دخل أبو جعفر المدينة أرسل الى بنى حسن فجمعهم ، وقال لسلم « اذا رأيت عبد الله عندى فقم على رأسى وأشر الى بالسلاح » ففعل ، فلما رآه عبد الله سقط فى يده وتغير وجهه ، فقال له أبو جعفر « مالك أبا محمد أتعرفه ؟ » قال « نعم يا أمير المؤمنين ، فأقلنى وصلتك رحم » فقال له أبو جعفر « هل علمت أنك تعرف موضع ولديك وانه لا عذر لك وقد باح السر ، فاظهرهما لى ولك أن أصل رحمك ورحمهما ، وان أعظم ولايتهما ، وأعطى كل واحد منهما ألف ألف درهم » فتراجع عبد الله حتى انكفأ على ظهره ، وبنو حسن اثنا عشر رجلا فأمر بحبسهم جميعا .

وخرج أبو جعفر فعسكر من ليلته على ثلاثة أميال من المدينة، وعبأ على القتال ، ولم يشك أن أهل المدينة سيقاتلونه فى بنى حسن، فعبأ ميمنة وميسرة وقلبا وتهيأ للحرب ، وأجلس فى مسجد النبى عشرين معطيا يعطون العطايا ، فلم يتحرك عليه منهم أحد ، ثم مضى بهم الى مكة .

وكان المنصور قد غضب على زياد بن عبيد الله عامله على الحجاز لتقصيره فى أمر متابعة محمد وابراهيم ابنى عبد الله ، وأرسل محمد بن خالد بن عبد الله القسرى واليا سنة ١٤١ وأوصاه بالجد فى طلب محمد وأخيه ، وأنفق محمد أموالا كثيرة فى سبيل القبض عليهما ولكنه لم يوفق فى ذلك واستبطأه المنصور واتهمه ، واستشار المنصور رجلا من خاصته فأشار بأن يستعمل على الحجاز رجلا من ولد الزبير أو طلحة لما كان بينهما وبين الأسرة العلوية من خلاف ومنافسة ، فقال له المنصور « ما أجود ما رأيت ، والله ما خفى على هذا ، ولكنى أعاهد الله أن لا أنتقم من بنى عمى وأهل بيتى بعدوى وعدوهم ، ولكن ابعث عليهم

صعلوكا من العرب يفعل بهم ما قلت » واستشار يزيد بن اسيد السلمى وقال له « دلنى على فتى عقل من قيس أعينه وأشرفه وأمكنه » وتحرى المنصور أن يكون الرجل الذى يختاره مدينا له بكل شيء ، واستقر رأيه على تعيين رياح بن عثمان المرى ، فسار الى الحجاز فى رمضان سنة ١٤٤ ، ولما وصل رياح المدينة قال لحاجبه « خذ بيدى ندخل على هـــذا الشيخ ، يعنى عبد الله ابن الحسن ، فدخـــلا عليه ، فقال له رياح « أيها الشيخ أن أمير المؤمنين والله ما استعملنى لرحم قريبة ولا ليد سبقت منى اليه ، والله لا تتلعب بى كما تلعبت بزياد وابن القسرى ، والله لأزهقن نفســـك ، أو لتأتينى بابنيـــك محمد وابراهيم » وأرهق رياح محمد بن عبد الله طلبا حتى لقى منه شدائد ما كان يراها فى عهد أسلافه من الولاة فى المدينة ، وكان المنصور قد أمر باعتقال عبد الله بن حسن وجماعة من بنى حسن ، ولما علم بذلك محمد جاء الى أمه هند ، وقال لها « انى قد حملت أبى وعمومتى ما لا طاقة لهم به ، ولقد هممت أن أضع يدى فى أيديهم فعسى أن يخلى عنهم » فتنكرت هند ولبست الأطمار ثم جاءت السجن كهيئة رسول فأذن لها ، فلما رآها عبد الله أبو محمد أثبتها فنهض اليها فأخبرته بما قال محمد ، فقال « كلا بل يصبر ، فوالله انى لأرجو أن يفتح الله به خيرا ، قولى له فليدع الى أمره وليجد فيه فان فرجنا بيد الله » ، فانصرفت وظل محمد على اختفائه .

وخطب رياح أهل المدينة يهددهم قائلا « أنا الأفعى بن الأفعى، أنا ابن عثمان بن حيان وابن عم مسلم بن عقبة المبيد خضراءكم المفنى رجالكم ، والله لأدعنها بلقعا لا ينبح فيها كلب » فوثب عليه قوم منهم وقالوا له « والله يا ابن المجلود حدين لتكفن أو لنكفنك عن أنفسنا » فكتب الوالى الى المنصور يخبره بسوء طاعة أهل المدينة ، فأرسل المنصور الى رياح رسولا وكتب معه كتابا يقول فيه « وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن لم تنزعوا ليبدلنكم بعد أمنكم خوفا ، وليقطعن البر والبحر عنكم ، وليبعثن عليكم رجالا غلاظ

الأكباد بعاد الأرحام » فلما قرأ عليهم هذا الكتاب نادوه من كل جانب « كذبت يا ابن المجلود حدين » ورموه بالحصى ، فبادر الى المقصورة فأغلقها ، ودخل عليه أيوب بن سلمة المخزومى فقال له « أصلح الله الأمير انما يصنع هذا رعاع الناس » وقال له بعض من حضر من وجوه بنى هاشم « لا نرى هذا ، ولكن أرسل الى وجوه الناس وغيرهم من أهل المدينة واقرأ عليهم كتاب المنصور » فجمعهم وقرأ عليهم الكتاب فقالوا « ما أمرتنا فعصيناك ولا دعوتنا فخالفناك » وانقضى الأمر بسلام ، وكان ذلك من أسباب مسارعة أبى جعفر الى الحج فى سنة ١٤٤ هجرية ليتناول المشكلة بنفسه.

ولما رجع المنصور من الحج لم يدخل المدينة ومضى الى الربذة، وتلقاه بها ، فرده الى المدينة وأمره بأشخاص بنى الحسن اليه ، ومعهم محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان أخو بنى الحسن لأمهم فاطمة بنت الحسين ، فرجع رياح فأخذهم وسار بهم الى الربذة ، وجعلت القيود والسلاسل فى أرجلهم وأعناقهم ، وحملهم فى محامل بغير غطاء ، ولما أدخل محمد بن عبد الله العثمانى على أبى جعفر وكانت ابنته زوجة لابراهيم بن عبد الله بن الحسن سبه المنصور وبسط فيه لسانه ، وقال له « لقد أعطيتنى الايمان أن لا تغشنى ولا تمالىء على عدوا » فقال للمنصور انه لم يدخل فى أمر غش له ، ولكن المنصور لم يقتنع بحديثه واعتذاره وأمر به فضرب خمسين ومائة سوط ، وأصاب سوط منها وجهه فقال لضاربه « اكفف عن وجهى فان له حرمة برسول الله » فأغرى المنصور الجلاد قائلا « الرأس الرأس » فضرب على رأسه نحوا من ثلاثين سوطا وأصاب احدى عينيه سوط فسالت ، ثم أخرج وكأنه زنجى من الضرب ، وكان من أحسن الناس وجها ، وكان يسمى الديباج لحسنه ، وكان سبب أخذه أن رياحا قال للمنصور أما أهل خراسان فشيعتك، وأما أهل العراق فشيعة آل أبى طالب، وأما أهل الشام فوالله ما على عندهم الا كافر ، ولكن محمد بن

عبد الله العثمانى لو دعا أهل الشام ما تخلف عنه منهم أحد » فوقعت فى نفس المنصور ، فأمر به فأخذ معهم فكان حسن الرأى فيه قبل ذلك .

وأرسل أبو عون الى المنصور كتابا قال فيه « ان أهل خراسان قد تعاشوا عنى وطال عليهم أمر محمد بن عبد الله » فأمر المنصور بمحمد بن عبد الله العثمانى فقتل ، وأرسل رأسه الى خراسان ، وأرسل معه من يحلف أنه رأس محمد بن عبد الله ابن الحسن وأن أمه فاطمة بنت رسول الله ، فلما قتل قال أخوه لأمه عبد الله بن الحسن « انا لله وانا اليه راجعون ، ان كنا لنأمن به فى سلطانهم ثم قد قتل بنا فى سلطاننا » .

وأخذهم المنصور وسار بهم من الربذة ، ومر بهم المنصور على بغلة شقراء ، فناداه عبد الله بن الحسن « يا أبا جعفر ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر » فأخسأه أبو جعفر وثقل عليه ، ولما قدموا الكوفة أودعهم المنصور بقصر ابن هبيرة شرقى الكوفة وأحضر محمد بن ابراهيم بن الحسن ، وكان أحسن الناس صورة ، فقال له « أنت الديباج الأصفر » فقال له « نعم هكذا يقولون » فقال له المنصور « لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحدا » ثم أمر فبنى عليه اسطوانة وهو حى فمات فيها ، وكان ابراهيم بن الحسن أول من مات منهم ، ومات بعده عبد الله بن الحسن وعلى بن الحسن ، وقيل ان المنصور أمر بهم فقتلوا ، وقيل انه أمر بهم فسقوا السم ، وقيل انه أرسل الى عبد الله من قال له ان ابنه محمدا قد خرج فقتل فانصدع قلبه فمات .

ولم يكن المنصور بطبيعته رجلا لين العريكة دمث الأخلاق ، ولكنه فى معاملته لأبناء عمه العلويين تجاوز حدود ما عرف عنه من الشدة ، وأسرف فى التنكيل بهم ، وقد كانت الدولة العباسية فى مستهل أمرها تعتمد على تأييد الخراسانيين ، ولذلك كان

اقدام المنصور على الفتك برجلهم المحبوب غاية فى الاقدام ، وكانت مشكلة العلويين تشغل بال المنصور منذ ولى الخلافة ، ولكنه لم يكن يستطيع البت النهائى فيها الا بعد أن يلتئم الجرح الذى خلفه مصرع أبى مسلم فى نفوس الخراسانيين ويرأب الصدع ، وكان لادامة التفكير فى هذه المسألة تأثيره فى أعصاب أبى جعفر الذى لم يكن غافلا عن متابعة أخبار العلويين ومراقبتهم مراقبة دقيقة ، وطول تفكيره فى هذه المسألة واضطراره تحت ضغط الظروف الى المطاولة فى الانتهاء منها كانا حسب ما أرى باعث هذه الشدة المتناهية التى عاملهم بها ، وقد يحدث هذا للرجال الذين يضطلعون بأعباء شديدة دون أن يتيحوا لأنفسهم فرصة للترفيه عنها ، وقد كان المنصور رجلا عالما مثقفا واسع المعرفة جم التجربة ، وهذا من شأنه أن يصقل النفس ويقلل من القسوة ، وحقيقة أن بعض المثقفين المتعلمين قد يكونون قساة القلوب نزاعين الى الشر ، ولكنهم أقل قسوة وأقرب الى سماحة النفس من الجهلة الجفاة والضيقى العقل ، والسبب فى ذلك أن العلم والثقافة يوسعان آفاق التفكير ويوحيان الى الانسان اهتمامات متنوعة وضروبا مختلفة من مجالات النشاط وشغل النفس ، وألوانا مختلفة من طرائق تأكيد الشخصية وفرض الارادة ، وفى طليعة ما يصبو اليه الناس طلب القوة ، والحصول على الاعجاب والتقدير ، والجاهل المحدود التفكير قد يظفر بذلك عن طريق الاشتهار بالقسوة والعنف والظهور بمظهر الطاغية الجبار ، أما العالم المثقف فيمكن أن يفرض شخصيته ، ويصل الى المكانة اللائقة بطرائق أقل قسوة ، وأنأى عن الاضرار بالغير ، والاساءة اليه ، وكان المنصور فى مختلف أعماله وشتى مواقفه يصدر عن روية تدل على سبق تفكير ، ومراجعة للنفس لا بدافع حيوانى وغريزة عمياء هوجاء .

وكان المنصور واثقا من أن محمد بن عبد الله ينوى الخروج عليه ، ويعد العدة لذلك ، وكان المنصور يغرى بعض قواده بأن

يكتبوا الى محمد بالدعوة الى الظهور ويؤكدوا له أنهم سيكونون فى جانبه ، ولذلك كان يقول « لو التقينا مال الى القـواد » وأخشى ما كان يخشاه المنصور أن يغتنم محمد فرصة حدوث ثورة ، أو وقوع فتق ، ويعلن الثورة ، ولذلك كان يهمه ارغام محمد على اعلان الثورة ، والمبادرة الى الخروج قبل أن يستكمل استعداده ، وتتاح له الفرصة الملائمة ، وقد نجح المنصور فى ذلك ، فان الشدة المتناهية التى عامل بها أعمام محمد وسائر آله من العلويين أرغمته على الظهور ، مما بعث أبا جعفر على أن تأخذه نشوة الاعجاب باحكام سياسته وتبعثه على أن يقول « أنا أبو جعفر أستخرج الثعلب من وكره » .

وكان محمد قد واعد أخاه ابراهيم على الوقت الذى يخرجان فيه معا ليهول ذلك أبا جعفر ، ولكن اشتداد الطلب عليه جعله يخرج قبل وقته الذى اتفق مع أخيه على الخروج فيه ، وظهر فى المدينة ، فأتى السجن ومعه مائة وخمسون رجلا ، فكسر بابه وأخرج من فيه ، وكان فيهم محمد بن خالد القسرى ، وأتى دار الامارة وهو يقول لأصحابه « لا تقتلوا الا أن تقتلوا » وأخذوا رياحا أسيرا ، وخرج محمد الى المسجد فصعد المنبر وخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعد فانه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندة لله فى ملكه وتصغيرا للكعبة الحرام ، وانما أخذ الله فرعون حين قال « أنا ربكم الأعلى » وان أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين ، اللهم انهم قد أحلوا حرامك ، وحرموا حلالك ، وأمنوا من أخفته وأخافوا من أمنت ، اللهم فاحصهم عـــددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا ، أيها الناس انى والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ولا شدة ، ولكننى اخترتكم لنفسى ، والله

ما جئت هذه وفى الأرض مصر يعبد الله فيه الا وقد أخذت لى فيه البيعة » .

واستولى محمد على المدينة ، واستعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ، واستفتى أهل المدينة مالك بن أنس فى الخروج مع محمد وقالوا له ان فى أعناقنا بيعة لأبى جعفر فقال لهم مالك « انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين » فأسرع الناس الى محمد ولزم مالك بيته ، ولما سمع محمد بن خالد القسرى دعوة محمد التى دعا اليها على المنبر قال انها دعوة حق ، وأراد أن يعين محمدا فقال له « يا أمير المؤمنين انك خرجت بهذا البلد ، والله لو وقف على نقب من أنقابه أحد مات أهله جوعا وعطشا ، فانهض معى فانما هى عشرة حتى أضربه بمائة ألف سيف » فأبى محمد عليه ذلك ، وكتب محمد بن خالد الى المنصور بقلة من مع محمد بن عبد الله ، وعلم بذلك محمد فحبسه حتى أطلقه عيسى بن موسى .

وكان رجل من آل أويس اسمه الحسين بن صخر لما ظهر محمد سار من ساعته الى المنصور ، فبلغه فى تسعة أيام ، وقدم ليلا على أبواب المدينة ، فصاح حتى علموا به وأدخلوه ، فقال له الربيع « ما حاجتك هذه الساعة ؟ وأمير المؤمنين نائم ؟ » قال « لابد لى منه » فدخل الربيع على المنصور فأخبره خبره ، وانه قد طلب مشافهته ، فأذن له ، فدخل عليه فقال « يا أمير المؤمنين خرج محمد بن عبد الله بالمدينة » فقال المنصور « قتلته والله ان كنت صادقا ، أخبرنى من معه ؟ » فسمى له من معه من وجوه أهل المدينة وأهل بيته » فقال المنصور « أنت رأيته وعاينته » قال « أنا رأيته وعاينته وكلمته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا » ، فأدخله أبو جعفر بيتا ، فلما أصبح جاء رسول لسعيد بن دينار غلام عيسى بن موسى يلى أمواله بالمدينة ، فأخبره بأمر محمد ، وتواترات عليه أخباره ، فأخرج الأويسى ،

فقال له « لأوطئن الرجال عقبيك ولأغنينك » فأمر له بتسعة آلاف درهم لكل ليلة ألف درهم .

وأرسل المنصور الى عمه عبد الله بن على وهو محبوس عنده « ان هذا الرجل قد خرج ، فان كان عندك رأى فأشر به علينا » وذلك لما كان يعلمه من خبرة عبد الله ورجاحة رأيه ، فأرسل اليه عبد الله يقول « ان المحبوس محبوس الرأى » فراجعه المنصور قائلا « لو جاءنى حتى يضرب بابى ما أخرجتك ، وأنا خير لك منه ، وهو ملك أهل بيتك » فأعاد عليه عبد الله « ارتحل الساعة حتى تأتى الكوفة ، فاجثم على أكتافهم فانهم شيعة هذا البيت وأنصاره ، ثم احففها بالمسالح ، فمن جره منهم الى وجه من الوجوه فاضرب عنقه ، وابعث الى سلم بن قتيبة ينحدر اليك ، وكان بالرى ، واكتب الى أهل الشام فمرهم أن يحملوا اليك من أهل البأس والنجدة ما حمل البريد فأحسن جوائزهم ووجهم مع سلم » ففعل أبو جعفر ما أشار به عبد الله .

ولما جاءت المنصور الأخبار عن خروج محمد كان قد خط مدينة بغداد بالقصب ، وأحضر ابن أخيه عيسى بن موسى ، وأمره بالمسير الى المدينة لقتال محمد ، فقال له عيسى « شاور عمومتك يا أمير المؤمنين » فقال له المنصور « امض أيها الرجل فوالله ما أراد غيرى وغيرك ، وما هو الا أن تشخص أنت أو أشخص أنا » فسار وسرح معه الجنود ، وقال المنصور لما سار عيسى « لا أبالى أيهما قتل صاحبه » وبعث معه محمد بن أبى العباس وابن قحطبة ، وقل له حين ودعه « انى أبعثك الى ما بين هـــذين (وأشار الى جنبيه) فان ظفرت بالرجل فاغمد سيفك ، وأبذل الأمان ، وان تغيب فضمنهم اياه ، فانهم يعرفون مذاهبه ، ومن لقيك من آل أبى طالب فاكتب الى باسمه ومن لم يلقك فاقبض ماله » .

وكتب أبو جعفر الى محمد بن عبد الله بالمدينة قبل أن يسير

اليه الجيش « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين الى محمد بن عبد الله ، انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » ، ولك على عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك واخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم . وأسوغك ما أصبت من دم أو مال ، وأعطيك ألف ألف درهم ، وما سألت من الحوائج ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأن أطلق فى حبسى من أهل بيتك ، وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك أو دخل معك فى شىء من أمرك ، ثم لا اتبع أحدا منهم بشىء كان منه أبدا ، فان أردت أن تتوثق لنفسك توجه الى من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به » .

فكتب اليه محمد بن عبد الله :ـ

« بسم الله الرحمن الرحيم » ، من عبد الله المهدى محمد بن عبد الله الى عبد الله بن محمد « طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت على ، فان الحق حقنا وانما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ،

وحظيتم بفضلنا ، وان أبانا عليا كان الوصى ، وكان الامام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ، ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا ، لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء ، وليس يمت أحد من بنى هاشم بمثل الذى نمت به من القرابة والسابقة والفضل ، وانا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية، وبنو بنته فاطمة فى الاسلام دونكم ان الله اختارنا واختار لنا فولدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم اسلاما ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة وأول من صلى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الاسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وان هاشما ولد على مرتين وأن عبد المطلب ولد حسنا مرتين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين ، وانى أوسط بنى هاشم نسبا وأصرحهم أبا ، لم تعرق فى العجم ، ولم تنازع فى أمهات الأولاد ، فما زال الله يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والاسلام حتى اختار لى فى النار فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة وأهونهم عذابا فى النار ، وأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار ، ولك الله على أن دخلت فى طاعتى وأجبت دعوتى أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته الا حدا من حدود الله ، أو حقا لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد ، لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ما أعطيته رجالا قبلى ، فأى الأمانات تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله أم أمان أبى مسلم » .

فكتب اليه أبو جعفر : ـ

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فقد بلغنى كلامك وقرأت كتابك ، فاذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء ،

ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لأن الله جعل العم أبا وبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختيار الله على قدر قرابتهن كانت آمنة أقربهن رحمـــا وأعظمهن حقا ، وأول من يدخل الجنة غدا ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم واصطفائه لهم ، وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها فان الله لم يرزق أحدا من ولدها الاسلام لا بنتا ولا ابنا ، ولو أن أحدا رزق الاســـلام بالقرابة رزقه عبد الله أولاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة ، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء ، قال الله عز وجل « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » ولقد بعث الله محمدا عليه السلام وله عمومة أربعة فأنزل الله عز وجل « فأنذر عشيرتك الأقربين » فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان أحدهما أبى ، وأبى اثنان أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما الا ولا ذمة ولا ميراثا ، وزعمت انك ابن أخف أهل النار عذابا وابن خير الأشرار ، وليس فى الكفر بالله صغير ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس فى الشر خيار ، ولا ينبغى للمؤمن بالله أن يفخر بالنار ، وسترد فتعلم ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » وأما ما فخرت به من فاطمة أم على وأن هاشما ولد عليا مرتين ومن فاطمـــة أم حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين وأن النبى صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلده هاشم الا مرة ولا عبد المطلب الا مرة ، وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسبا وأصرحهم أما وأبا وأنه لم تلدك الأعاجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا ، فانظر ويحك أين أنت من الله غدا فانك قد تعديت طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفسا وأبا وأولا وآخرا ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والد ولده ، وما خيار بنى أبيك خاصة وأهل الفضل منهم الا بنو أمهات أولاد ، وما ولد فيكم بعد

رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن حسين ، وهو لأم ولد ، ولهو خير من جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن على وجدته أم ولد ولهو خير من أبيك ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد ولهو خير منك ، وأما قولك انكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الله تعالى يقول فى كتابه « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ولكنهم بنو ابنته ، وانها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز بها الامامة ، فكيف تورث بها ، ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ، ومرضها سرا ، ودفنها ليلا ، فأبى الناس الا الشيخين وتفضيلهما ، ولقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون ، وأما ما فخرت به من على وسابقته فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه ، وكان فى السنة فتركوه كلهم دفعا له عنها ، ولم يروا له حقا فيها ، أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له متهم ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعد بيعته ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده ، ثم طلبها بكل وجه ، وقاتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حكم حكمين رضى بهما وأعطاهما عهده وميثاقه فاجتمعا على خلعه ، ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر الى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولاته ولا حله ، فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه ، ثم خرج عمك الحسين بن على على ابن مرجانة فكان الناس معه عليه حتى قتلوه ، وأتوا برأسه اليه ، ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء فى المحامل كالسبى

المجلوب الى الشام ، حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وسنينا سلفكم وفضلناه ، فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت انا انما ذكرنا أباك وفضلناه للتقدمة منا على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين متسلما منهم مجتمعا عليهم بالفضل ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة فاحتججنا له ، وذكرناهم فضله ، وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه ، ولقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهليـــة ســـقاية الحجيج الأعظـــم وولاية بئر زمزم ، فصارت للعباس من بين اخوته ، فنازعنا فيها أبوك ، فقضى لنا عليه عمر ، فلم نزل نليها فى الجاهلية والاسلام ، واقد قحط أهل المدينة فلم يتوسل عمر الى ربه ولم يتقرب اليـــه الا بأبينا حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به ، ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم فلم ينله الا ولده ، فالسقاية سقايته ، وميراث النبى له والخلافة فى ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل فى جاهلية ولا اسلام فى دنيا ولا آخرة الا والعباس وارثه ومورثه ، وما ما ذكرت من بدر فان الاسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله وينفق عليهم للأزمة التى أصابته ، ولولا أن العباس أخرج الى بدر كرها لمات طالب وعقيل جوعا وللحسا جفان عقبة وشيبة ، ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسبة وكفاكم النفقة والمؤونة ، ثم فدى عقيلا يوم بدر ، فكيف تفخر علينا وقد علناكم فى الكفر وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الأباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركوا لأنفسكم والسلام عليك ورحمة الله » .

ولما فصل أبو جعفر من بغداد متوجها نحو الكوفة بعد أن

جاءه البريد بخروج محمد بالمدينة نظر اليه عثمان بن عمارة واسحق بن مسلم العقيلى وعبد الله بن الربيع وكانوا من صحابته وهو يسير على دابته ، وبنو أبيه حوله ، فقال عثمان « أظن محمدا خائبا ومن معه من أهل بيته ، ان حشو ثياب هذا العباسى لمكر ونكر ودهاء ، وانه فيما نصب له محمد من الحرب لكما قال ابن جذل الطعان :

فكم من غارة ورعيل خيل ... تداركها وقد حمى اللقاء

فرد مخيلها حتى ثناها ... بأسمر مارئى فيه التواء

فقال اسحق بن مسلم « قد والله سبرته ، ولمست عوده ، فوجدته خشنا ، وغمزته فوجدته صليبا ، وذقته فوجدته مرا ، وانه ومن حوله من بنى أبيه لكما قال ربيعة بن مكدم :

سما لى فرسان كأن وجوههم
مصابيح تبدو فى الظلام زواهر
يقودهم كيش أخو مصمئلة
عبوس السرى قد لوحته الهواجر

وقال عبد الله بن الربيع « هو ليث خيس ضيغم ، شموس ، للأقران مفترس ، وللأرواح مختلس ، وانه فيما يهيج من الحرب كما قال أبو سفيان بن الحارث :

وان لنا شيخا اذا الحرب شمرت
بديهته الاقدام قبل النوافر

ولما علم محمد بقدوم جيش المنصور وعلى رأسه عيسى بن موسى وحميد بن قحطبة أمر بحفر خندق حول المدينة ، وتقلد

بسيف جده على بن أبى طالب ذى الفقار ، وكان قد أجابه لما ظهر أهل المدينة وأعراضها وقبائل من العرب منهم جهينة ومزينة وسليم وغيرهم واجتمع معه جمع كبير ، فلما قرب عيسى من المدينة خطبهم محمد قائلا « يا أيها الناس ان هذا الرجل قد قرب منكم فى عدد وعدة ، وقد حللتكم من بيعتى ، فمن أحب المقام فليقم ، ومن أحب الانصراف فلينصرف ، فتسللوا حتى بقى فى شرذمة ليست بالكثيرة ، وأرسل عيسى بن موسى كتبا الى رجال من أهل المدينة ، فلما وردت كتبه تفرق كثيرون عن محمد ، وكان أبو جعفر قد كتب كتبا الى رجال من قريش ، وأمر عيسى اذا دنا من المدينة أن يبعث بها اليهم ، فلما دنا منهم بعث بها اليهم .

ولما قرب عيسى أرسل الى محمد القاسم بن الحسن بن زيد يدعوه الى الرجوع مما هو عليه ، ويخبره أن أمير المؤمنين قد أمنه وأهل بيته ، فقال له محمد « لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك لأنى لم أرك منذ كنت غلاما فى فرقتين خير وشر الا كنت مع الشر على الخير » وأرسل محمد الى عيسى « يا هذا ان لك من رسول الله قرابة قريبة ، وانى أدعوك الى كتاب الله وسنة نبيه ، والعمل بطاعته ، وأحذرك نقمته وعذابه ، وانى والله ما أنا بمنصرف عن هذا الأمر الذى ألقى الله عليه ، فاياك أن يقتلك من يدعوك الى الله فتكون شر قتيل ، أو تقتله فيكون أعظم لوزرك وأكثر لمأثمك » ، وقال للقاسم « ارجع لصاحبك فقل له أنه ليس بيننا الا القتال » .

ولما التقيا نادى عيسى بنفسه « أيا محمد ان أمير المؤمنين أمرنى أن لا أقاتلك حتى أعرض عليك الأمان لك على نفسك وأهلك وولدك وأصحابك ، وتعطى من المال كذا وكذا ، ويقضى عنك دينك ، ولا يفعل بك ويفعل » فصاح به محمد « اله عن هذا فوالله لولا انى علمت أنه لا يثنينى عنكم فزع ، ولا يقربنى منكم طمع ما كان هذا »[1] ، ولج القتال ، وترجل محمد ، ولم تدم المعركة سوى

يوم ، ولم يزل محمد يقاتل حتى ضربه رجل دون شحمة أذنه ، فبرك لركبته ، وجعل يذب عن نفسه ، ويقول « ويحكم ابن نبيكم مجرح مظلوم » فطعنه حميد بن قحطبة فى صدره فصرعه ، ثم نزل اليه فأخذ رأسه وأتى به عيسى ، وأرسل عيسى الرأس الى المنصور ، فأمر المنصور فطيف برأس محمد فى الكوفة ، وسيره الى الآفاق ، وأرسل معه رؤوس بنى شجاع الذين ناصروه ، وقد أعجب المنصور بوفائهم لمحمد فقال « هكذا فليكن الناس ، طلبت محمدا فاشتمل عليه هؤلاء ، ثم نقلوه وانتقلوا معه ، ثم قاتلوا معه حتى قتلوا » .

وكان ابراهيم أخو محمد قد قدم البصرة بعد ظهور أخيه محمد بالمدينة ، ودعا الناس الى بيعة أخيه ، وأجابه جماعة كبيرة من الفقهاء وأهل العلم حتى أحصى ديوانه أربعة آلاف ، وشهر أمره ، ولما ظهر أخوه بالمدينة كتب اليه يأمره بالظهور ، ولم يكن فيما يبدو قد أتم استعداده ، فوجم من ذلك واغتم ، وهون عليه الأمر بعض شيعته ، وكان المرض قد عاقه عن الظهور فى الوقت الذى ظهر فيه أخوه ، وكان خروج ابراهيم فى غرة رمضان سنة ١٤٥ ، ولما ظهر استولى على بيت المال فى البصرة ، فوجد فيه ألفى ألف درهم ، فقوى بها أمره ، وفرض الفروض خمسين درهما لكل رجل ، وأرسل أحد أتباعه الى الأهواز ، فأخذ بيعة أهلها بعد أن تغلب على واليها وهزمه ، وصارت الأهواز وفارس والبصرة فى ظل سلطانه ، وأخذ يفرق العمال فى النواحى ويوجه الجيوش الى البلدان ، حتى أتاه نعى أخيه قبل الفطر بثلاثة أيام ، فلما كان يوم الفطر ارتقى المنبر ، وقد بدا عليه الانكسار ، وتمثل بهذه الأبيات : —

أبا المنازل يا خير الفوارس من

يفجع بمثلك فى الدنيا فقد فجعا

الله يعـــلم انى لو خشــيتهم
وأوجس القلب من خوف لهم فزعا

لم يقتـــلوه ولم أســلم أخى لهم
حتى نموت جميعا أو نعيش معا

ثم بكى وقال « اللهم انك تعلم أن محمدا انما خرج غضبا لك ، ونفيا لهذه المسودة ، وايثارا لحقك ، فارحمه واغفر له ، واجعل الآخرة خير مرد له ، ومنقلب من الدنيا » ثم جرض بريقه ، وتلجلج ، وانفجر باكيا منتحبا ، وبكى الناس معه ، واضطر بعض أصحابه أن يعاتبه على ما ظهر من جزعه .

ولم يكن لدى المنصور جند يستطيع أن يسيره الى البصرة لقتال ابراهيم ، فقد كان ابنه المهدى يعسكر فى الرى ومعــه ثلاثون ألفا ، وكان قد أرسل محمد بن الأشعث الى أفريقية يقود أربعين ألفا ، وبقية الجيش كانت بالحجاز تقاتل محمدا .

وأدرك المنصور شدة الخطر المحدق به فقال لخاصته « والله لئن سلمت من هذه لا يفارق عسكرى ثلاثون ألفا » ، وكان يأمر بالحطب فيحزم ثم يوقد بالليل فيراه الرائى فيحسب أن هناك ناسا وما هى الا نار تضرم وليس عندها أحد .

وكتب الى عيسى بن موسى وهو بالمدينة « اذا قرأت كتابى هذا فاقبل ودع كل ما أنت فيه » فلما قدم وجهه الى قتــال ابراهيم ، وكتب الى المهدى بالرى بتوجيه خازم بن خزيمة الى الأهواز ، فوجهه المهدى اليها ، وحارب شيعة ابراهيم بها وانتقم من أهلها لمبايعتهم ابراهيم ومناصرتهم له .

ويروى الحجـــاج بن قتيبة بن مسلم عن المنصور فيقول « دخلت على أمير المؤمنين المنصور فى ذلك اليوم مسلما وما أظنه يقدر على رد السلام لتتابع الفتوق والخروق عليه ، والعساكر

محيطة به ، ومائة ألف سيف كامنة له بالكوفة بازاء عسكره تنتظر به صيحة واحدة فيثبون ، فوجدنه صقرا أحوذيا مشمرا قد قام الى ما نزل به من النوائب يعركها ويمارسها ، فقام بها ولم تقعد به نفسه ، وانه لكما قال الأول :

نفس عصام سـودت عصاما وعلمتـه الكر والاقـداما

وصـيرته ملكا همـاما

ولما عاد عيسى بن موسى على عجل من الحجاز وجهه صوب ابراهيم .

ولما أراد ابراهيم الشخوص نحو أبى جعفر ، دخل عليه جماعة من قواده من أهل البصرة ، فقالوا له « أصلحك الله ، انك قد ظهرت على البصرة والأهواز وفارس وواسط ، فأقم بمكانك ووجه الأجناد ، فان هزم لك جند أمددتهم بجند ، وان هزم لك قائد أمددته بقائد ، فخيف مكانك ، واتقاك عدوك ، وجبيت الأموال ، وثبتت وطأتك ثم رأيك بعد » فقال له الكوفيون « أصلحك الله ان بالكوفة رجالا لو رأوك ماتوا دونك ، وألا يروك تقعد بهم أسباب شتي فلا يأتونك » ولم يزالوا به حتى شخص .

ولم يكن ابراهيم راضيا عن حالة جيشه ، فقد أشير عليه بأن يخندق على نفسه حتى لا يؤتى الا من مأتى واحد أو يتخفف فى طائفة ويأتى أبا جعفر من مؤخرته ، فلما دعا أصحابه وعرض عليهم ذلك قالوا « نخندق على أنفسنا ونحن ظاهرون عليهم ، والله لا نفعل » قال « فنأتيه » فقالوا « ولم وهو فى أيدينا متى أردنا » .

ولما صف جيشه للقاء قال واحد من أصحابه « ان الصف

اذا انهزم بعضه تداعى فلم يكن له نظام ، فاجعلهم كراديس فان انهزم كردوس ثبت كردوس » فرفض أصحابه ذلك .

وروى أحد أنصاره قال « لما نزلنا بأخمرا أتيت ابراهيم فقلت له ان هؤلاء القوم مصبحوك بما يسد عليك مغرب الشمس من السلاح والكراع ، وانما معك رجال عراة من أهل البصرة ، فدعنى أبيته فوالله لأسكتن جمعه » .

فقال ابراهيم « أكره القتل » فقلت له « تريد الملك وتكره القتـــل ! » .

وكانت مثالية على بن أبى طالب العالية تعيش فى نفوس أبنائه وذريته ، ولذلك كانت تغلب عليهم النزعة الروحية ، وايثـــار العدالة ، واتباع الحق ، ومجافاة الدسائس ، واستغلال نواحى الضعف فى الطبيعة الانسانية ، وكانوا يطلبون المجـــد المؤثل ، ويسعون لبلوغ المكانة اللائقة بهم والجديرة بماضيهم ، ولكنهم لا يحاولون أن يسلكوا اليها الطرق الملتوية ، ويتبعوا الأساليب التى تتنافر الأخلاق الكريمة ، وقد تفوق عليهم أبناء عمهـــم العباسيون بحذقهم السياسى وكفايتهم العملية ، وقدرتهم على معرفة الوقت المناسب للحركة والعمل ، واغتنام الفرص العارضة مع مواتاة الظروف ومساعفة الأحوال .

ولما أقبل ابراهيم كان معه جماعة كثيرة من أفناء الناس أكثر من جيش عيسى بن موسى ، فدار القتال بباخمرى ، وهى على ستة عشر فرسخا من الكوفة ، واقتتلوا بها قتالا شديدا ، ورجحت فى أول المعركة كفة رجال ابراهيم ، وانهزم حميد بن قحطبة ، وكان على مقدمة عيسى ، وانهزم معه الناس ، فعرض لهم عيسى يناشدهم الله والطاعة ، ومر الناس كلهم حتى لم يبق منهم أحد ، وثبت عيسى فى مكانه الذى كان فيه ، ولم يتحول عنه وهو فى مائة رجل من خاصته وحشمه ، فقيل له « أصلح

الله الأمير لو تنحيت عن هذا المكان حتى يثوب اليك النـــاس فتكربهم » . فقال « لا أزول عن مكانى هذا أبدا حتى أقتل أو يفتح الله على يدى ولا يقال انهزم » وشاء الحظ الحسن لرجال موسى أنهم لما انهزموا اعترض طريقهم نهر ذو ثنيتان مرتفعتان فحالتا بينهم وبين الوثوب ولم يجدوا مخاضة فكروا راجعين بأجمعهم ، وانهزم أصحاب ابراهيم ، وثبت ابراهيم ومعه جماعة يقاتلون دونه ، وحمى وطيس القتال ، وقتل كثيرون ، ووقع سهم عائر فى حلق ابراهيم فنحره واضطره الى التنحى عن موقفه ، وأنزله أصحابه عن مركبه ، وهو يقول « وكان أمر الله قدرا مقدورا أردنا أمرا وأراد الله غيره » وأنزل الى الأرض وهو مثخن بالجراح واجتمع عليه أصحابه وخاصته يحمونه ، ويقاتلون دونه ، ورأى حميد بن قحطبة جمعهم ، فأمر أصحابه بأن يشدوا عليهم حتى يزيلوهم عن موضعهم ، فشدوا عليهم حتى أفرجوهم عن ابراهيم وخلصوا اليه فحزوا رأسه ، وأتوا به عيسى بن موسى ، وكانت أخبار الهزيمة الأولى قد انتهت الى أبى جعفر فأوصى بكتمانها وأن يعد على كل باب من أبواب الكوفة ابلا ودواب فان أتى من ناحية صار الى ناحية أخرى ، وكان ينوى أن دهمه أمران يأتى الرى ، ولما أتى أبو جعفر برأس ابراهيم فوضع بين يديه بكى حتى قطرت دموعه على خد ابراهيم وقال « أما والله انى كنت لهذا كارها ، ولكنك ابتليت بى وابتليت بك » .

وكان من كبار العلماء الذين عطفوا على حركة ابراهيم الامام أبو حنيفة ، ويروى أنه كتب الى ابراهيم حينما توجه الى عيسى ابن موسى « اذا أظفرك الله بعيسى وأصحابه فلا تسر فيهم سيرة أبيك فى أهل الجمل فانه لم يقتل المنهزم ، ولم يأخذ الأموال ، ولم يتبع مدبرا ، ولم يذفف على جريح ، لأن القوم لم يكن لهم فئة ، ولكن سر فيهم بسيرة يوم صفين ، فانه سبى الذرية ، وذفف على الجريح ، وقسم الغنيمة ، لأن أهل الشام كانت لهم

فئة وكانوا فى بلادهم » وكان هذا الموقف مما أغضب المنصور على أبى حنيفة وأحقده عليه .

وهكذا انتهت ثورة الأخوين محمد وابراهيم بقتلهما واراقة دماء الكثيرين من العلويين وأنصارهم وكان لابد للمنصور من أن يلقى كلمة فى أهل خراسان الذين كان يعرف نزعتهم الشيعية برغم مناصرتهم للعباسيين ، يسوغ به سلوكه ويبرر الشدة التى استعملها مع العلويين فى اخماد حركتهم واطفاء ثورتهم ، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال « يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وان أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم — والله الذى لا اله الا هو — والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير ، فقام على بن أبى طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمان ، فافترقت عنه الأمة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته ، وثقاته فقتلوه ، ثم قام من بعده ابنه الحسن، فوالله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها ، فدس اليه معاوية انى أجعلك ولى عهدى من بعدى فخدعه ، فانسلخ له مما كان فيه ، وسلم اليه ، فأقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلقها غدا ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن على ، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة وأهل الشقاق والنفاق والاغراق والفتن وأهل هذه المدرة السوداء (وأشار الى الكوفة) فوالله ما هى بحرب فأحاربها، ولا سلم فأسالمها ، فرق الله بينى وبينها فخذلوه وأسلموه ، ثم قام من بعده زيد بن على فخدعه أهل الكوفة وغروه ، فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه ، وقد كان أتى والدى محمد بن على فناشده فى الخروج وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال انا نجد فى بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة ، وأنا

أخاف أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عمى داود بن على ، وحذره غدر أهل الكوفة ، فلم يقبل ، وأتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ، ثم وثب علينا بنو أمية ، فأماتوا شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها ، وما كان ذلك كله الا فيهم وبسبب خروجهم عليهم ، فنفونا من البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ، ومرة بالشام ، ومرة بالشراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا ، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ، ودمغ بحقكم أهل الباطل ، وأظهر حقنا ، وأصار الينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقر الحق مقره ، وأظهر مناره ، وأعز أنصاره ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ، فلما استقرت فينا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا ، وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا ، وبغيا لما فضلنا به الله عليهم ، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم .

جهلا على وجبنا عن عدوهم
لبئست الخلتان الجهل والجبن

انى والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغنى عنهم بعض السقم والتعرم ، وقد دسست لهم رجالا ، فقلت قم يا فلان ويا فلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا اليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير الا بايعهم بها بيعة استحلت بها دماءهم وأموالهم ، وحلت لى عند ذلك بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج ، فلا يرون انى أتيت ذلك على غير يقين » .

ثم نزل من على المنبر وهو يتلو على درجه « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل ، انهم كانوا فى شك مريب » .

وقدر المنصور موقف الذين لم يشتركوا فى الخروج عليه من العلويين فلم يعرض لهم بسوء ، فقد روى(١) جعفر بن محمد ـ وهو المعروف بجعفر الصادق ـ قال « لما قتل ابراهيم بن عبد الله ابن الحسن بباخمرى حسرنا عن المدينة ، ولم يترك فيها منا محتلم ، حتى قدمنا الكوفة ، فمكثنا فيها شهرا نتوقع فيهـا القتل ، ثم خرج الينا الربيع الحاجب فقال « أين هؤلاء العلوية ؟ أدخلوا على أمير المؤمنين رجلين منكم من ذوى الحجى ، قال فدخلنا اليه أنا والحسن بن زيد ، فلما صرت بين يديه قال لى « أنت الذى تعلم الغيب ؟ » .

قلت « لا يعلم الغيب الا الله » .

قال « أنت الذى يجبى اليك هذا الخراج ؟ » .

قلت « اليك يجبى ـ يا أمير المؤمنين ـ الخراج » .

قال « أتدرون لم دعوتكم ؟ » .

قلت « لا » .

قال « أردت أن أهدم رباعكم ، وأروع قلوبكم ، وأعقر نخلكم ، وأترككم بالسراة ، لا يقربكم أحد من أهل الحجاز وأهل العراق ، فانهم لكم مفسدة » .

فقلت « يا أمير المؤمنين ، ان سليمان أعطى فشكر ، وأن أيوب ابتلى فصبر ، وأن يوسف ظلم فغفر ، وأنت من ذلك النسل » .

قال « فتبسم المنصور وقال « أعـد على » فأعدت فقال « مثلك فليكن زعيم القوم ، وقد عفوت عنكم ، ووهبت لكم جرم أهل البصرة » .

---

(١) مقاتل الطالبيين صفحة ٣٥٠ .

وسأله المنصور عن حديث سبق له أن سمعه منه فرواه جعفر قائلا « حدثنى أبى عن آبائه عن على عن رسول الله صلى الله عليه وآله ان ملكا من الملوك فى الأرض كان بقى من عمره ثلاث سنين ، فوصل رحمه ، فجعلها الله ثلاثين سنة » .

فقال له المنصور « أى البلاد أحب اليك ؟ فوالله لأصلن رحمى اليكم » .

وفى رواية صاحب العقد الفريد (١) أن المنصور لما أعجب بحديثه وارتاح له قال له « الى أبا عبـــد الله فأنت القريب القـــرابة ، وذو الرحم الواشجة ، السليم الناحية ، القليل الغـــائلة ، ثم صافحه بيمينه ، وعانقه بشماله ، وأجلسه معه على فراشه ، وانحرف له عن بعضه ، وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسائله ، ثم قال « يا ربيع » عجل لأبى عبد الله كسوته وجائزته وأذنه » .

واستعمل أحد من وثق به منهم واليا على المدينة من سنة ١٥٠ الى ســـنة ١٥٥ وهو الحسن بن زيد بن الحسن وذلك برغم اشتراك (٢) ولديه فى ثورة ابراهيم بن عبد الله وهما على وزيد .

ولما أخفقت هذه الثورة العلوية الخطيرة واطمأن بال المنصور من ناحية محمد وابراهيم ابنى عبد الله عاد الى اتمام بناء بغداد ، وكان قد شرع فيه وتوقف عن المضى فيه حينما اضطرته أحداث الثورة الى النزول بالكوفة .

---

(١) الجزء الثانى من العقد الفريد صفحة ١٦٠ .

(٢) مقاتل الطالبيين صفحة ٢٧٨ .

بنـــاء بغـــداد

قضى المنصور على أبى مسلم الذى كان يخشى من طغيان سلطته وتعاظم شأنه ، وفرق شمل خصومه ومنافسيه العاويين واطمأن باله من ناحيتهم بعد أن غربهم وخضد شوكتهم ، وسلم من ثورة الراوندية بعد أن تعرضت حياته للخطر الشديد فأخذ يفكر فى انشاء حاضرة تكون قاعدة لدولته ومستقرا لأسرته يأمن فيها شر الثورات المفاجئة ، والانقلابات غير المنتظرة ، وتخاو بقدر ما يستطاع من العيوب التى وقع عليها فى المدن التى عاش بها ، والحواضر التى زارها خلال أسفاره العديدة وتنقلاته فى أنحاء العالم الاسلامى ، وكان الخليفة السابق أبو العباس قد بويع فى مدينة الكوفة ، واتخذها عاصمة له ، ولكن أكثر سكانها كانوا من الشيعة العلوية ، ولذلك لم يأمن أبو العباس جانبهم ، وانتقل الى الأنبـــار ونزل قصر يزيد بن هبيرة ، ثم بنى قصرا له على الفرات فى الضفة الشرقية ، وأسس ضاحية سماها الهاشمية ، ولكنه توفى قبل اتمامها ، فلما خلفه أبو جعفر اتخذ الهاشمية عاصمة له ، ثم بنى قصره بين الكوفة والحيرة وأقام حولها المبانى وسماها الهاشمية كذلك ، ولكنه لم يكن مطمئنا لقربها من الكوفة خشية أن يفسد الكوفيون عليه جنده وقواده ، وقد زاده نفورا منها وبعثه على المبادرة الى انشاء عاصمة جديدة ثورة الراوندية.

ورأى المنصور أن يتولى بنفسه البحث عن الموقع المناسب لانشاء العاصمة الجديدة ، فتنقل فى أنحاء العراق يرتاد الأمكنة ، وصعد نحو الموصل ، واتجه الى بعض جبالها ، ولكنه لم يجـد

طلبته فعاد أدراجه متابعا البحث والتنقيب ، ووصف له بعض الرواد مكانا رأوه صالحا ، فخرج اليه بنفسه حتى ينظر اليه ، وبات فيه وكرر نظره فى أنحائه فرآه موضعا طيبا ، فقال لجماعة من أصحابه « ما رأيكم فى هذا الموضع ؟ » قالوا « ما رأينا مثله هو طيب صالح موافق » فقال « صدقتم ، هو هكذا ولكنه لا يحمل الجند والناس والجماعات ، وانما أريد موضعا يرتفق الناس به ويوافقهم مع موافقته لى ولا تغلو عليهم فيه الأسعار ، ولا تشتد فيه المؤونة فانى ان أقمت فى موضع لا يجلب اليه من البر والبحر شيء غلت الأسعار ، وقلت المادة ، واشتدت المؤونة وشق ذلك على الناس ، وقد مررت فى طريقى على موضع فيه مجتمعة هذه الخصال فأنا نازل فيه وبائت به ، فان اجتمع لى فيه ما أريد من طيب الليل والموافقة مع احتماله الجند والناس ابتنيته » .

وأتى ذلك المكان الذى وقع عليه اختياره وبات فيه ليلة حتى أصبح فبات أطيب مبيت فى الأرض وأرفقه ، وأقام يومه فلم ير الا ما يحب ، فقال لمن معه « هذا موضع أبنى فيه فانه تأتيه المادة من الفرات ودجلة وجماعة من الأنهار ، ولا يحمل الجند والعامة الا مثله » ، ثم دعا بطارقة تلك الجهات وأعيان أصحابها فسألهم عن مواضعهم وكيف هى فى الحر والبرد والأمطار والوحول والبق والهوام ، فأخبره كل منهم بما عنده ، وكان هذا المكان قرية تسمى بغداد ، وشاور المنصور صاحبها فقال له « يا أمير المؤمنين سألتنى عن هذه الأمكنة وما تختار منها وانى أرى أن تنزل هنا ، فتكون على أربعة طساسيج(1) ، فى الجانب الغربى طسوجان ، هما قطربل وبادوريا ، وفى الجانب الشرقى طسوجان أيضا هما نهر بوق وكلواذا ، وأنت بقرب الماء والشجر ، فان أجدب طسوج وتأخرت عمارته ، كان فى الطسوج الآخر

(1) الطسوج أى الناحية .

العمار ، وأنت يا أمير المؤمنين على نهر الصراة تجيئك الميرة بالسفن من الصين والهند عن طريق البصرة وواسط ومن ديار بكر والروم والموصل وغيرها فى دجلة ، وأنت بين الشام ومصر فى الغرب ، وبين خراسان وغيرها فى الشرق ، وتكون بين أنهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر أو قنطرة ، فاذا قطعت هذا ، وخربت تلك لم يصل اليك ، ودجلة والفرات والصراة خنادق هذه المدينة ، وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد وأنت قريب من البر والبحر والجبل » فازداد المنصور عزما على النزول فى ذلك المكان وأعجب بأصالة هذا الرأى ، ودقة هذا الوصف .

وأرسل المنصور الى الشام والجبل والكوفة وواسط والبصرة فى انفاذ الصناع والفعلة ، وأمر باختيار جماعة من ذوى الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة ، وكان ممن أحضر لذلك الحجاج بن ارطاة وأبو حنيفة النعمان .

وأمر المنصور بخط المدينة ، وحفر الأساسات ، وضرب اللبن ، وطبخ الآجر ، فبدىء بذلك كله ، وكان أول الابتداء فى البناء سنة ١٤٥ ، وأراد المنصور أن ينظر اليها عيانا فأمر أن يخط بالرماد ، ثم أقبل يدخل من كل باب ويمر فى فصلاتها وطاقاتها ودرجاتها وهى مخطوطة بالرماد ، وطاف بالعاملين فى انشاء المدينة ينظر اليهم والى ما خط من خنادقها ، ثم أمر أن يجعل على تلك الخطوط حب القطن ، وينصب عليه النفط ، ونظر اليها والنار تشتعل فيهما ، وعرف رسمها ، فأمر أن يحفر الأساس على الرسم الذى عاينه ، ووكل بها أربعة من القواد كل قائد بربع ، ووكل أبا حنيفة بعد الآجر واللبن ، وكان قبل ذلك قد أراده على القضاء والمظالم فلم يجب ، فحلف المنصور أن لا يقلع عنه أو يعمل له ، فأجابه الى أن ينظره فى عمارة بغداد ، ويعد اللبن والآجر بالقصب ، وجعل المنصور عرض أساس

السور من أسفله خمسين ذراعا ومن أعلاه عشرين ذراعا ، وجعل فى البناء القصب والخشب ، ووضع بيده أول لبنة وقال « بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ثم قال « ابنوا على بركة الله » فلما بلغ السور مقدار قامة جاء الخبر بظهور محمد بن عبد الله فقطع البناء ، ثم أقام بالكوفة حتى فرغ من حرب محمد وأخيه ابراهيم ، ثم رجع الى بغداد فأتم بناءها ، وأقطع فيها القطائع لأصحابه ، وكان المنصور قد أعد جميع ما تحتاج اليه المدينة من خشب وساج وغير ذلك ، واستخلف حين شخص الى الكوفة على اصلاح ما أعد أسلم مولاه ، فبلغه أن ابراهيم قد هزم عسكر المنصور ، فأحرق ما كان خلفه عليه المنصور ، فبلغ المنصور ذلك ، فكتب اليه يلومه ، فكتب اليه أسلم يخبره أنه خاف أن يظفر بها ابراهيم فيأخذه ، فلم يقل له شيئا .

واستشار المنصور خالد بن برمك فى نقض المدائن وايوان كسرى ونقل نقضه الى بغداد ، فقال له خالد « لا أرى ذلك لأنه علم من أعلام الاسلام يستدل به الناظر على أنه لم يكن ليزال مثل أصحابه عنه بأمر دنيا ، وانما هو على أمر دين ، ومع هذا ففيه مصلى على بن أبى طالب » فقال له المنصور « لا ، أبيت يا خالد الا الميل الى أصحابك العجم » وأمر بنقض القصر الأبيض ، فنقضت ناحية منه وحمل نقضه ، فنظر فكان مقدار ما يلزمهم له أكثر من ثمن الحديد ، فدعا خالد بن برمك فأعلمه ذلك فقال خالد « يا أمير المؤمنين قد كنت أرى أن لا تفعل ، فأما اذا فعلت فانى أرى أن تهدم لئلا يقال انك عجزت عن هدم ما بناه غيرك » فأعرض عنه وترك هدمه .

وبنيت المدينة مدورة لئلا يكون الملك اذا نزل فى وسطها الى موضع منها أقرب منه الى موضع ، وأعد للمدينة أربعة أبواب ، كل اثنين منها متقابلان ، ولكل منها باب دون باب بينهما دهليز

ورحبة تدخل الى الفصيل الدائر بين السورين ، فالأول باب الفصيل ، والثانى باب المدينة ، فاذا دخـــل الوافد من باب خراسان عطف على يساره فى دهليز أزج معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعا وطوله ثلاثون ، والمدخل اليه فى عرضه . والمخرج منه من طوله ، يخرج الى رحبة مادة الى الباب الثانى طولها ستون ذراعا وعرضها أربعون ، ولها فى جنبتيها حائطان من الباب الأول الى الباب الثانى فى صدر هذه الرحبـــة وهو باب المدينة ، وعن يمينه وشماله فى جنبتى هذه الرحبة بابان الى الفصيلين .

والأبواب الأربعة على صورة واحدة ، الأبواب والفصـــلان والرحاب والطاقات ، ويحيط بالمدينة سوران عظيمان ، الداخل منهما أعلى من الخارج ، وحول الخارج منهما خندق يجرى فيه الماء يبلغ محيطه عشرين ألف ذراع ، وفى وسطها رحبة واسعة مستديرة بنى بها قصر وجامع للخليفة ، ويتفرع منه أربعـــة شوارع رئيسية عريضة متقاطعة ينتهى كل منها بباب من أبواب المدينة ، وتكون المبانى بين محيط الرحبة والسور الداخلى .

وأقطع المنصور مواليه وقواده القطائع داخل المدينة ، فدروب المدينة تنسب اليهم ، وأقطع آخرين على أبواب المدينة وأقطع الجند أرباض المدينة ، وأقطع أهل بيته الأطراف ، وأقطع ابنه المهدى وجماعة من أهل بيته ومواليه وقواده ، فبنيت القصور وأجريت المياه فيها وغرست الأشجار وازدهرت البساتين .

وبعد أن تم تشييد المبانى الرئيسية فى المدينة والمسجد الكبير ودواوين العمل وغيرها مد المنصور من نهر دجيل أحد فروع دجلة قناة ومن فرع آخر للفرات قناة أخرى ، وسيرهما فى أسفل شوارع المدينة فى عقود وثيقة محكمة البناء ، ولم ينقطع مـــاء

القنوات التى وصلت بجميع الطرقات والأزقة فى الصيف والشتاء .

واختلفت الروايات فى تعيين المدة التى تم فيها بناء المدينة وفى تقدير المال الذى أنفق فى البناء فقيل انه ثمانية عشر مليون درهم ، ويروى أن أبا جعفر أمر بنقل الخزائن والدواوين اليها من الهاشمية فى أواخر سنة ١٤٦ وخرج من قصره هناك فى موكب حافل ، ودخل العاصمة الجديدة من باب البصرة فى يوم جمعة من شهر رمضان ، واتجه نحو المسجد ، فصلى بالناس مستبشرا ببناء العاصمة الجديدة ، وشعر المنصور بعد بناء هذه الحاضرة وتوطيد هذه القاعدة أن ملكه قد دعمت أركانه ، وثبت بنيانه ، فأخذ يفكر فى مشكلة وراثة الخلافة ، ولم يكن من المنتظر بعد أن بذل الجهود الضخمة فى اخماد الثورات ، ورتق الفتوق ، وتوطيد الملك ، أن يترك وراثة الخلافة لأحد من غير أبنائه ، كما سنرى فى الفصل القادم .

ولاية العهد

من المشكلات التى عنيت الحكومات الأوتقراطية بتناولها مشكلة وراثة العرش ، وذلك لأن التجربة أظهرت ان ترك المجال متسعا للمتناظرين يعرض الدولة للأخطار التى تنجم عن التنازع على طلب السلطة ، ولذلك كان يلجأ الحكام الأوتقراطيون اما الى توريث أبنائهم أو اختيار من يرونه جديرا بأن يكون وارثا لهم ، ويمهدون السبيل لنقل السلطة اليه بمختلف الوسائل ، وأهمها الحصول على موافقة الجيش وأعيان الدولة ، وحينما مات النبى كان الأنصار يريدون الخليفة منهم ، وكان بنو هاشم يريدونها لعلى بن أبى طالب، ولكن الأغلبية اختارت أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر بن الخطاب ورضى المسلمون عن هذا الاختيار ، وترك عمر بن الخطاب اختيار الخليفة « لهؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض » وسمى عليا وعثمان والزبير وسعدا وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ، ونال عثمان أغلبية الأصوات ، وخلف عثمان بعد قتله على بن أبى طالب ، فحدث خلاف على خلافته وامتنع معاوية عن الدخول فى بيعته ، ولم يوص على لأحد من أبنائه بعد وفاته ، ولما ولى الخلافة معاوية رأى ان خير سبيل لحسم فوضى النزاع على الخلافة جعلها وراثية واختار ابنه يزيد لوراثة الخلافة وأشاعت هذه السابقة مبدأ وراثة الابن فى الخلافة الاسلامية ، وكان هذا المبدأ معروفا فى الدولة الفارسية والامبراطورية الرومانية وغيرهما من الدول القديمة .

ولما جاءت الدولة العباسية عهد أبو العباس ، أول الخلفاء

العباسيين ، بولاية العهد الى رجلين ، يلى أحدهما الآخر ، وهذان الرجلان هما أخوه أبو جعفر وابن أخيه عيسى بن موسى ، فلما تولى أبو جعفر الخلافة وبذل ما بذل من الجهد فى توطيد أسسها والقضاء على منافسى الأسرة من العلويين وغيرهم وشب ابنه محمد المهدى ورأى فيه من الشمائل والمزايا مايؤهله لأن يكون خليفة له عز عليه أن يخلفه ابن أخيه ، ويحرم ابنه ، وكان من أشق الأمور على رجل شديد الأثرة حريص على السلطة مثل المنصور أن يرث الخلافة أحد من غير أبنائه ، ولذلك أخذ يعمل كل حيلة ليرث ابنه الخلافة ، وذلك لشدة شعوره بأن مآثر الأبناء تكملة وأصداء لحياة الآباء ، ورجل محب للحياة نزاع الى طلب القوة والسلطة مثل المنصور يرى فى تزويد ابنه بالسلطة استمرارا لحياته وابقاء على سيطرته ، لأن مطامع مثله لا تنتهى عند حافة القبر بل تأمل فى البقاء حية فى نفوس أبنائه وحفدته .

وقد ولد المهدى سنة ١٢٦ بالحميمة ، وكانت سنه حين بدأت الخلافة العباسية ست سنوات ، ولما تولى المنصور الخلافة كان قد بلغ العاشرة ، وفى سنة ١٤١ ولاه والده قيادة الجيش الذى ذهب لاخماد ثورة عبد الجبار بن عبد الرحمن والى خراسان ، وأمره أن ينزل الرى ، وبعد انتهاء تلك الثورة أمره المنصور بغزو طبرستان ، وكان معه القائد القدير خازم بن خزيمة . وفى سنة ١٤٤ عاد المهدى من الرى الى العراق ، وقد اكتسب خبرة وتجربة ، وأظهر استعدادا حسنا وكفاية ملحوظة أكسبته ثقة من حوله وشهرة فى الأسرة العباسية ، وقد احتفل بقدومه ، وبنى بريطة ابنة عمه أبى العباس ، وصار المنصور يجلسه على يساره فى الاجتماعات الرسمية ويجلس عيسى بن موسى عن يمينه ، ومن ثم بدأت تتجه اليه الأنظار ، وكان عيسى بن موسى واليا على الكوفة من عهد أبى العباس ، وكان المنصور له مكرما ومجلا ، ولما خرج عليه محمد ابن عبد الله وأخوه ابراهيم أرسل اليهما جيشا يقوده عيسى

ابن موسى وكان يرى ان هذا ربما يتيح له فرصة الخلاص من ارتباطه بقبول ولاية العهد لعيسى بن موسى ولكن عيسى تغلب على الأخوين الثائرين ، وعاد مظفرا ، فلم يكن هناك بد من مصارحته بما كان يعتمل فى نفسه ، فعرض على عيسى فى كلام رقيق ولهجة هادئة لينة تقديم ابنه عليه ، فقال له عيسى « يا أمير المؤمنين فكيف بالايمان والمواثيق التى على وعلى المسلمين لى من العتق والطلاق وغير ذلك من مؤكد الايمان ؟ ليس الى ذلك سبيل يا أمير المؤمنين »

فلما رأى المنصور ذلك منه تغير لونه ، وباعده بعض المباعدة ، وصار يأذن للمهدى بالدخول عليه قبله ، وكان حينما يدخل المهدى يجلسه عن يمينه فى موضع عيسى ، ثم يؤذن لعيسى فيدخل فيجلس دون مجلس المهدى عن يمين المنصور ولا يجلس عن يساره فى المجلس الذى كان يجلس فيه المهدى ، وكان هذا السلوك يضايق المنصور ، ويبلغ منه ، فصار يأمر بالاذن للمهدى ولغيره من أعيان العباسيين ، ويوهم عيسى انه انما يبدأ بهم بعد المهدى لمذاكرتهم فى بعض المسائل الهامة العارضة ، ثم يأذن له بعد ذلك ، واحتمل عيسى بن موسى هذه المعاملة دون أن يشكو أو يتذمر ، ولم يكتف المنصور بذلك ، فكان يحدث أن يكون معه فى مجلس الانتظار بعض ولده ، فيسمع الحفر فى أصل الحائط فيخاف أن يخر عليه الحائط وينتثر عليه التراب ، وينظر الى الخشبة من سقف المجلس قد حفر عند أحد طرفيها لتقلع فيسقط التراب على قلنسوته وثيابه ، فيأمر من معه من أولاده بالتحول ، ويقوم هو فيصلى ، ثم يأتيه الاذن ، فيدخل بهيئته والتراب عليه لا ينفضه ، فيقول له المنصور اذا رآه « يا عيسى ما يدخل على أحد بمثل هيئتك من كثرة الغبار عليك والتراب أفكل هذا من الشارع ؟ » فيقول عيسى « أحسب ذلك يا أمير المؤمنين » ، وفى بعض الروايات انه دس لعيسى بعض ما يتلفه ، فاستأذن عيسى فى المصير الى الكوفة ليعالج بها ، وكان

الذى جرأه على ذلك بختيشوع الطبيب الذى كان يعلم ما يرمى اليه المنصور فانه قال لعيسى « انى والله لا أجترىء على معالجتك بالحضرة وما آمن على نفسى » فأذن له المنصور وقال له « انى أنوى الحج فى سنتى هذه ، فأنا مقيم عليك بالكوفة حتى تفيق ان شاء الله ، وتقارب وقت الحج ، فشخص المنصور حتى صار بظهر الكوفة فى موضع يدعى بالرصافة فأقام بها أياما ثم عاد الى بغداد ولم يحج واعتل بقلة الماء فى الطريق ، واشتدت العلة بعيسى وبلغت منه كل مبلغ ، ولكنه أفاق منها وتغلب عليها .

وقيل للمنصور ان عيسى بن موسى انما يمتنع عن البيعة للمهدى لأنه يريد هذا الأمر لابنه موسى ، فموسى هو الذى يمنعه ، فقال المنصور لعيسى بن على عمه « كلم موسى بن عيسى وخوفه على أبيه ، وعلى ابنه » فكلم عيسى بن على موسى فى ذلك فأيأسه وحذره غضب المنصور ، فخاف موسى أن يقع به المكروه فأتى العباس ابن محمد أخى المنصور فقال له « يا عم انى مكلمك بكلام لا والله ما سمعه منى أحد قط ، ولا يسمعه أحد أبدا ، وانما أخرجه منى اليك موضع الثقة بك والطمأنينة اليك ، وهو أمانة عندك ، فانما هى نفسى انثلها فى يدك » .

فقال له العباس « قل يا ابن أخى فلك عندى ما تحبه »

فقال موسى « أرى ما يسام أبى من اخراج هذا الأمر من عنقه، وتصييره الى المهدى ، فهو يؤذى بصنوف الأذى والمكروه فيتهدد مرة ويؤخر اذنه مرة وتهدم عليه الحيطان مرة ، وتدس عليه الحتوف مرة ، وأبى لا يعطى على ذلك شيئا ، لا يكون ذلك أبدا ، ولكن هاهنا وجها فلعله يعطى عليه ان أعطى والا فلا »

فقال له العباس « فما هو يا ابن أخى فانك أصبت ورفقت » .

قال موسى « يقبل عليه أمير المؤمنين وأنا شاهد فيقول له :

« يا عيسى انى أعلم انك لست تضن بهذا الأمر على المهدى لنفسك لتعالى سنك وقرب أجلك فانك تعلم انه لا مدة لك تطول فيه ، وانما تضن به لمكان ابنك موسى ، افترانى أدعْ ابنك يبقى بعدك ، ويبقى ابنى معه فيلى عليه ؟ كلا ، والله لا يكون هذا أبدا ، ولأثبن على ابنك وانت تنظر حتى تيأس منـــه ، وآمن أن يلى ابنى ، أترى ابنك آثر عندى من ابنى ؟ ثم يأمرنى فاما خنقت واما شهر على سيف ، فان أجاب الى شيء فعسى أن يفعل بهـــذا السبب ، فأما بغيره فلا »

فقــــال له العباس « جزاك الله يا ابن أخى خيرا ، فديت أباك بنفسك ، وآثرت بقاءه على حظك ، نعم الرأى رأيت ، ونعم المسلك سلكت »

وأتى العباس أبا جعفر فأخبره الخبر ، فجزى المنصور موسى خيرا ، وقال « قد أحسن وأجمل ، وسأفعل ماأشار به ان شاء الله »

فلما اجتمعوا أقبل المنصور على عيسى بن موسى فقال « انى لا أجهل مذهبك الذى تضمره ، ولا مداك الذى تجرى اليه فى الأمر الذى سألتك ، انما تريد هذا الأمر لابنك ، هذا المشؤوم عليك وعلى نفسه ، وتهدده ، وقال له اما والله لاعجلن لك فيه ما يسوؤك ويوئسك من بقائه بعـــدك » ونادى قائلا « يا ربيع قم الى موسى فاخنقه بحمائله »

فقام الربيع فضم حمائله عليه فجعل يخنقه بها خنقا رويدا ، وموسى يصيح « الله الله يا أمير المؤمنين فى وفى دمى ، فانى لبعيد مما تظن ، وما يبالى عيسى أن يقتلنى وله بضعة عشر نفرا ذكرا كلهم عنده مثلى أو تتقدمنى »

وأخذ المنصور يقول « أشدد يا ربيع ، ائت على نفسه ، والربيع يوهم انه يريد تلفه ، وهو يراخى خناقه ، وموسى يصيح .

فلما رأى ذلك عيسى قال « والله يا أمير المؤمنين ما ظننت ان الأمر يبلغ منك هذا كله ، فمر بالكف عنه ، فانى لم أكن لأرجع الى أهلى وقد قتل بسبب هـــذا الأمر عبد من عبيدى فكيف بابنى ، فهاأنا أشهدك أن نســـائى طوالق ومماليكى أحـــرار وما أملك فى سبيل الله ، تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين ، وهذه يدى بالبيعة للمهدى » .

فأخذ بيعته له على ما يحب .

وفى رواية أخرى أن المنصور لما أراد البيعة للمهدى كلم الجند، فكانوا اذا رأوا عيسى راكبا اسمعوه ماكره ، فشكا ذلك الى المنصور، فقال المنصور للجند « لا تؤذوا ابن أخى فان جلدة ما بين عينى ، ولو كنت تقدمت اليكم لضربت أعناقكم » فكانوا يكفون ثم يعودون، فمكث بذلك زمانا ، ثم كتب اليه المنصور :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الله المنصور أمير المؤمنين الى عيسى بن موسى ، سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، اما بعد فالحمد لله ذى المن القديم والفضـــل العظيم والبلاء الحسن الجميل الذى ابتدأ الخلق بعلمه وأنفذ القضاء بأمره ، فلا يبلغ مخلوق كنه حقه ولا ينال فى عظمته كنه ذكره ، يدبر ما أراد من الأمور بقدرته ويصدرها عن مشيئته ، لا قاض فيها غيره ، ولا نفاذ لها الا به يجزلها على اذلالها لا يستأمر فيهـــا وزيرا ولا يشاور فيها معينا ، ولا يلتبس عليه شىء أراده ، يمضى قضاؤه فيما أحب العباد وكرهوا لا يستطيعون منه امتناعا ولا عن أنفسهم دفاعا ، رب الأرض ومن عليهـــا له الخـــلق والأمر تبـــارك الله رب العالمين ، ثم انك قد علمت الحال التى كنا عليها فى ولاية الظلمة كيف كانت قوتنا وحيلتنا لما اجترأ عليـــه أهل بيت اللعنة علينا فيما أحببنا وكرهنا فصبرنا أنفسنا على ما دعونا اليه من تسـليم الأمور الى من أسندوها اليه ، واجتمع رأيهم عليه ، نسام الخسف،

ونوطأ بالعسف ، لا ندفع ظلما ، ولا نمنع ضيما ، ولا نعطى حقا ، ولا ننكر منكرا ، ولا نستطيع لهـــا ولا لأنفســـنا نفعـــا ، حتى اذا بلغ الكتاب أجله ، وانتهى الأمر الى مدته ، واذن الله فى هلاك عدوه وارتاح بالرحمة لأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فابتعث الله لهم أنصارا يطلبون بثأرهم ويجاهدون عدوهم ، ويدعون الى حيهم ، وينصرون دولتهم من أرضين متفرقة ، وأسباب مختلفة وأهواء مؤتلفة ، فجمعهم الله على طاعتنا وألف بين قلوبهم بمودتنا على نصرتنا وأعزهم بنصرنا ، ولم نلق منهم رجلا ، ولم نشهر معهم سيفا ، الا ما قذف الله فى قلوبهم ، حتى ابتعثهم الله من بلادهم ببصائر نافذة ، وطاعة خالصة ، يلقون الظفر ، ويعودون بالنصر ، وينصرون بالرعب ، لا يلقون أحدا الا هزموه ولا واترا الا قتلوه ، حتى بلغ الله بنا بذلك أقصى مدانا ، وغاية منانا ، ومنتهى آمالنا ، واظهار حقنا ، واهلاك عدونا ، كرامة من الله عز وجل لنا ، وفضلا منه علينا ، حتى نشأ هذا الغلام ، فقذف الله له فى قلوب أنصار الدين الذين ابتعثهم لنا مثل ابتدائه لنا أول أمرنا ، وأشرب قلوبهم مودته، وقسم فى صدورهم محبته فصاروا لا يذكرون الا فضله ولا ينوهون الا باسمه ، ولا يعرفون الا حقه ، فلما رأى أمير المؤمنين ماقذف الله فى قلوبهم من مودته وأجرى على ألسنتهم من ذكره ، ومعرفتهم اياه بعلاماته واسمه ، ودعاء العامة الى طاعته ، أيقنت نفس أمير المؤمنين ان ذلك أمر تولاه الله وصنعه ، ولم يكن للعبـــاد فيه أمر ولا قدرة ولا مؤامرة ولا مذاكرة الذى رأى أمير المؤمنين من اجتماع الكلمة ، وتتابع العامة ، حتى ظن أمير المؤمنين انه لولا معرفة المهدى بحق الأبوة ، لأفضت الأمور اليه ، وكان أمير المؤمنين لا يمنع ما اجتمعت عليه العامة ولا يجد مناصا عن خلاص مادعوا اليه ، وكان أشـــد الناس على أمير المؤمنين فى ذلك الأقرب فالأقرب من خاصته وثقاته من حرســـه وشرطه ، فلم يجد أمير المؤمنين بدا من استصلاحهم ومتابعتهم ، وكان أمير المؤمنين وأهل بيته أحق من سارع الى ذلك

وحرص عليه ورغب فيه وعرف فضله ، ورجا بركته ، وصدق الرواية فيه ، وحمد الله اذ جعل فى ذريته مثل ماسألت الأنبياء قبله اذ قال العبد الصالح رب هب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله ربى رضيا ، فوهب الله لأمير المؤمنين وليا ثم جعله تقيا مباركا مهديا ، وللنبى صلى الله عليه وسلم سميا ، وسلب من انتحل هذا الاسم ودعا الى تلك الشبهة التى تحير فيها أهل تلك النية وافتتن بها أهل تلك الشقوة ، فانتزع ذلك منهم ، وجعل دائرة السوء عليهم ، وأقر الحق قراره وأعلن للمهدى مناره ، وللدين أنصاره ، فأحب أمير المؤمنين أن يعلمك الذى اجتمع عليه رأى رعيته ، وكنت فى نفسه بمنزلة ولده يحب من سترك ورشدك وزينك مايحب لنفسه وولده ، ويرى لك اذا بلغك من حال ابن عمك ماترى من اجتماع الناس عليه أن يكون ابتداء ذلك من قبلك ، ليعلم أنصارنا من أهل خراسان وغيرهم انك أسرع الى ما أحبوا مما عليه رأيهم فى صلاحهم منهم الى ذلك من أنفسهم ، وان ماكان عليه من فضل عرفوه للمهدى أو أملوه فيه كنت أحظى الناس بذلك ، وأسرهم به ، لمكانه وقرابته ، فاقبل نصح أمير المؤمنين لك تصلح وترشد ، والسلام عليك ورحمة الله »

فكتب اليه عيسى بن موسى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين من عيسى بن موسى ، سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه ما أجمعت عليه من خلاف الحق ، وركوب الاثم ، فى قطيعة الرحم ، ونقض ما أخذه الله عليه من الميثاق من العامة بالوفاء للخلافة ، والعهد لى من بعدك ، لتقطع بذلك ما وصل الله من حبله ، وتفرق بين ما ألف الله جمعه ، وتجمع بين ما فرق الله أمره ، مكابرة لله فى سمائه وحولا على الله فى قضائه ، ومتابعة للشيطان فى

هواه ، ومن كابر الله صرعه ، ومن نازعه قمعه ، ومن ماكره عن شيء خدعه ، ومن توكل على الله منعه ، ومن تواضع لله رفعه ، ان الذى أسس عليه البناء ، وخط عليه الحذاء من الخليفة الماضى عهد لى من الله ، وأمر نحن فيه سواء ، وليس لأحد من المسلمين فيه رخصة دون أحد ، فان وجب وفاء فيه فما الأول بأحق من الآخر ، وان حل من الآخر شيء فما حرم ذلك من الأول ، بل الأول الذى تلا خيره وعرف أثره وكشف عما ظن به وأمل فيه أسرع ، وكان الحق أولى بالذى أراد أن يصنع ، أولا فلا يدعك الى الأمن من البلاء اغترار بالله ، وترخيص للناس فى ترك الوفاء ، فان من أجابك الى ترك شيء وجب لى واستحل ذلك منى لم يخرج اذا أمكنته الفرصة وأفتنته بالرخصة أن يكون الى مثل ذلك منك أسرع ، ويكون بالذى أسست من ذلك أنجع ، فأقبل العاقبة ، وارض من الله بما صنع ، وخذ ما أوتيت بقوة ، وكن من الشاكرين ، فان الله جل وعز زائد من شكره ، وعدا منه حقا لا خلف فيه ، فمن راقب الله حفظه ، ومن أضمر خلافه خذله ، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ولسنا مع ذلك نأمن من حوادث الأمور وبغتات الموت قبل ما ابتدأت به من قطيعتى ، فان تعجل بى أمر كنت قد كفيت مؤونة ما اغتممت له ، وسترت قبح ما أردت اظهاره . وان بقيت بعدك لم تكن أوغرت صدرى ، وقطعت رحمى ، ولا أظهرت أعدائى فى اتباع أثرك وقبول أدبك وعمل بمثالك ، وذكرت ان الأمور كلها بيد الله هو مدبرها ومقدرها ومصدرها عن مشيئته ، فقد صدقت ان الأمور بيد الله ، وقد حق على من عرف ذلك ووصفه العمل به والانتهاء اليه ، واعلم انا لسنا جررنا الى أنفسنا نفعا ، ولا دفعنا عنها ضرا ، ولا نلنا الذى عرفنه بحولنا ولا قوتنا ، ولو وكلنا فى ذلك الى أنفسنا وأهوائنا لضعفت قوتنا وعجزت قدرتنا فى طلب ما بلغ الله بنا ، ولكن الله أراد عزما لانفاذ أمره ، وانجاز وعده ، واتمام عهده ، وتأكيد عقده ،

أحكم ابرامه وأبرم أحكامه ، ونور اعلانه ، وثبت أركانه حين أسس بنيانه ، فلا يستطيع العباد تأخير ما عجل ولا تعجيل ما أخر ، غير ان الشيطان عدو مضل مبين ، قد حذر الله طاعته ، وبين عداوته ، ينزع بين ولاة الحق وأهل طاعته ، ليفرق جمعهم ، ويشتت شملهم ، ويوقع العداوة والبغضاء بينهم ، ويتبرأ منهم عند حقائق الأمور ، ومضايق البلايا ، وقد قال الله عز وجل فى كتابه « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » ووصف الذين اتقوا فقال « اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » فأعيذ أمير المؤمنين بالله من أن يكون بنيته وضمير سريرته خلاف ما زين الله جل وعز من كان قبله ، فانه قد سألتهم أبناؤهم ، ونازعتهم أهواؤهم الى مثل الذى هم به أمير المؤمنين فآثروا الحق على ماسواه وعرفوا ان الله لا غالب لقضائه ولا مانع لعطائه ، ولم يعلموا يأمنوا مع ذلك تغيير النعم وتعجيل النقم فآثروا الآجلة وقبلوا العاقبة ، وكرهوا التغيير وخافوا التبديل فأظهروا الجميل ، فتمم الله لهم أمورهم ، وكفاهم ما أهمهم ، ومنع سلطانهم ، وأعز أنصارهم ، وأكرم أعوانهم ، وشرف بنيانهم ، فعمت النعمة ، وتظاهرت المنن ، فاستوجبوا الشكر ، فتم أمر الله وهم كارهون ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » .

ولما بلغ ذلك الكتاب أبا جعفر أمسك عنه وغضب غضبا شديدا ، وعاد الجند لأشد مما كان يصنعون ، فكانوا يأتون باب عيسى فيمنعون من يدخل اليه ، فاذا ركب مشوا خلفه وقالوا « أتت البقرة التى قال الله فيها ، فذبحوها وما كادوا يفعلون » فعاد فشكاهم ، فقال له المنصور « يا ابن أخى ، والله انى لأخافهم عليك وعلى نفسى ، قد أشربوا حب هذا الفتى ، فلو قدمته بين يديك فيكون بينى وبينك كفوا »

ولم يجد عيسى بعد هذه المضايقات والمنغصات والمشاكسات

المكشوفة سوى النزول على أمر المنصور ، وقبول المبايعة للمهدى وتقديمه ، وفى اليوم الذى بايع فيه أبو جعفر لابنه المهدى كان قد علم ان الشاعر أبا نخيلة الحمانى قد نظم قصيدة من الرجز ضمنها ماعزم عليه المنصور من تولية المهدى العهد ، فأمر المنصور بادخاله والقاء القصيدة على رؤوس الناس ، ويقول فى مطلع هذه القصيدة:

لم ينسن يا ابنة آل معبد ذكراك تكرار الليالى العود

ثم يوجه الخطاب الى المنصور فيقول :

الى أمير المؤمنين فاعمدى سيرى الى بحر البحوز المزبد
الى الذى ان نفدت لم ينفد اذ نمدت اشراعها لم يثمد

ويشير الى البيعة للمهدى فيقول :

انت الذى يا ابن سمى أحمد ويا ابن بيت العرب المشيد
بل يا أمين الواحد المؤبد ان الذى ولاك رب المسجد
أمسى ولى عهدها بالأسعد عيسى فزحلقها الى محمد
من قبل عيسى معهدا عن معهد حتى تؤدى من يد الى يد
فيكم وتفنى وهى فى تزيد فقد رضينا بالغلام الأمرد
بل قد فزعنا غير ان لم نشهد وغير ان العقد لم يؤكد

وأمر له المنصور بألفى درهم ، وأغضبت القصيدة (١) عيسى ، فطلبه فهرب منه ، فبعث فى طلبه مولى له أدركه فى طريق خراسان، فذبحه وسلخ جلده ، ومبالغة فى التنكيل به أقسم لا يريم مكانه حتى تمزق الطير والسباع لحمه ، فأقام حتى لم يبق الا عظامه وانصرف .

---

(١) الجزء الأول من مختارات الأغانى صفحة ٤٥٤ .

وألقى المنصور خطبته فى تقديم المهدى على عيسى ، وخطب عيسى بعد ذلك فقدم المهدى على نفسه ، ولم يكف المنصور بعد ذلك عن محاولة التخلص من عيسى بن موسى فلما أراد الحج سنة ١٤٧ دعا عيسى بن موسى وكان قد عزله عن الكوفة ،وولى مكانه محمد ابن سليمان بن على ودفع لعيسى عمه عبد الله سرا فى جوف الليل وقال له « يا عيسى ان هذا أراد أن يزيل النعمة عنى وعنك ، وانت ولى عهدى بعد المهدى ، والخلافة صائرة اليك ، فخذه اليك فاضرب عنقه ، واياك أن تخور أو تضعف ، فينتقض على امرى الذى دبرت » .

ومضى لوجهه حاجا ، وكتب الى عيسى من طريقه الى الحجاز ثلاث مرات يسأله مافعل فى الأمر الذى أوعز اليه فيه ، فكتب عيسى اليه « قد أنفذت ما أردت » فلم يشك المنصور فى الأمر ،وارتاح باله من ناحية عمه عبد الله ، وكان عيسى حين دفع اليه المنصور عمه عبد الله ستره فى ناحية من نواحى قصره ، ودعا كاتبه يونس ابن فروة ، وقال له « ان هذا الرجل قد دفع الى عمه وأمرنى فيه بكذا وكذا » فقال له « أراد أن يقتلك ويقتله ، أمرك بقتله سرا ثم يدعيه عليك علانية ثم يقيدك به » فقال له « فما الرأى » .

قال « الرأى أن تستره فى منزلك فلا يطلع على أمره أحد ، فان طلبه منك علانية دفعته اليه ، ولا تدفعه اليه سرا أبدا ، فانه وان كان أسره اليك فان أمره سيظهره » .

ففعل ذلك عيسى ، وقدم المنصور من الحج ، ودس الى عمومته من يحركهم الى مسألته هبة عمه عبد الله لهم ، ويطمعهم فى أنه سيفعل ، فجاءوا اليه وكلموه ، ورققوه وذكروا الرحم وأظهروا له رقة ، فقال « نعم على بعيسى بن موسى » .

فأتاه عيسى ، فقال له « يا عيسى ، قد علمت انى دفعت اليك

عمى وعمك عبد الله بن على قبل خروجى الى الحج ، وأمرتك أن يكون فى منزلك » .

فقال عيسى « قد فعلت ذلك يا أمير المؤمنين » .

فقال المنصور « لقد كامنى عمومتك فيه ، فرأيت الصفح عنه وتخلية سبيله فاتنا به » .

فقال عيسى « يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرنى بقتله ؟ فقتلته » .

فقال المنصور : « ما أمرتك بقتله ، انما أمرتك بحبسه فى منزلك » .

فقال عيسى « قد أمرتنى بقتله » .

فقال المنصور « كذبت ، ما أمرتك بقتله » ، ثم قال لعمومته « هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم ، وادعى انى أمرته بذلك وقد كذب »

فقالوا « ادفعه الينا نقتله »

فقال « شأنكم به » .

فأخرجوه الى الرحبة ، واجتمع الناس ، وشهر الأمر ، وقام أحدهم فشهر سيفه وتقدم الى عيسى لضربه ، فقال عيسى « أفاعل أنت ؟ » فقال « أى والله »

فقال عيسى « لا تعجلوا ، ردونى الى أمير المؤمنين »

فردوه اليه ، فقال له « انما أردت بقتله أن تقتلنى به ، هذا عمك حى سوى ، ان أمرتنى بدفعه اليك دفعته »

فقال له المنصور « ائتنا به » .

فأتاه به ، وقال عيسى للمنصور « دبرت على أمرا فخشيته وكان كما خشيت ، شأنك وعمك » .

فقال المنصور « يدخل حتى أرى رأيى » ، ويروى انه أمر به فجعل فى بيت أساسه ملح ، وأجرى فى أساسه الماء ، فسقط عليه ، فمات وهو فى الثانية بعد الخمسين من عمره .

واسترسل أبو جعفر يوما فى الحديث مع بعض خاصته ، فسألهم « أتعرفون جبارا أول اسمه عين قتل جبارا أول اسمه عين وجبارا أول اسمه عين وجبارا أول اسمه عين ؟ » فقال له عبد الله بن عياش « نعم يا أمير المؤمنين ، عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد بن العاص ، وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث » .

فقال المنصور « أفتعرفون خليفة أول اسمه عين قتل جبارا أول اسمه عين وجبارا أول اسمه عين وجبارا أول اسمه عين ؟ » فقال له ابن عياش « أنت يا أمير المؤمنين ، قتلت عبد الرحمن ابن مسلم وعبد الجبار بن عبد الرحمن ، وعمك عبد الله بن على سقط عليه البيت » .

فقال المنصور « فما ذنبى ان كان سقط عليه البيت ؟ » .

فقال ابن عياش « لا ذنب لك » .

وكانت عقوبة من ينازع المنصور سلطانه أو يخرج عليه القتل ممها تكن قرابته منه ، وفى غير ذلك يقتصد فى سفك الدماء ، ويضن بازهاق الأرواح ، ومن قبيل ذلك مؤاخذته الشديدة لعيسى ابن موسى وهو والى الكوفة حينما بلغه أنه قد قتل رجلا من ولد نصر بن سيار حاكم خراسان فى العهد الأموى ، فقد كتب الى عيسى بن موسى ينكر عليه ذلك انكارا شديدا ويقول فى كتابه (أما بعد فانه لولا نظر أمير المؤمنين واستبقاؤه لم يؤخرك عقوبة قتل ابن نصر بن سيار ، واستبدادك به بما يقطع أطماع العمال فى مثله ، فامسك عمن ولاك أمير المؤمنين أمره من عربى وأعجمى وأحمر وأسود ، ولا تستبدن على أمير المؤمنين بامضاء عقوبة فى

أحد قبله تباعة ، فانه لا يرى أن يأخذ أحدا بظنة قد وضعها الله عنه بالتوبة ، ولا بحدث كان منه فى حرب أعقبه الله منها سلما ستر به عن ذى غلة ، وحجز به عن محنة ما فى الصدور ، وليس ييأس أمير المؤمنين لأحد ولا لنفسه من الله من اقبال مدبر كما انه لا يأمن من ادبار مقبل ان شاء الله والسلام » .

وتنحية عيسى بن موسى عن ولاية العهد للمنصور تركت فى نفسه جرحا لم يندمل ، وأسى لا يزول ، فكان يرفه عن نفسه بنظم مقطوعات من الشعر ، من ذلك قوله :

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما
اما صغار واما فتنة عمم

وقد هممت مرارا ان أساجلهم
كأس المنية لولا الله والرحم

وقوله يذكر حسن بلائه فى دولة المنصور وفوده للكتائب واستهدافه النوائب :

أينسى بنو العباس ذبى عنهمو
بسيفى ونار الحرب زاد سعيرها

فتحت لهم شرق البلاد وغربها
فذل معاديها وعز نصيرها

أقطع أرحاما على عزيزة
وأبدى مكيدات لها وأثيرها

فلما وضعت الأمر فى مستقره
ولاحت له شمس تلألأ نورها

دفعت عن الأمر الذى استحقه
وأوسق أوساقا من الغدر عيرها

ورأى المنصور حينما عهد للمهدى بولاية العهد أن يزوده بطائفة من النصائح تكون بمثابة دستور له فى حياته الاجتماعية والسياسية ، منها قوله له « يا أبا عبد الله استدم النعمة بالشكر ، والقدرة بالعفو ، والطاعة بالتألف ، والنصر بالتواضع ، ولا تنس مع نصيبك من الدنيا نصيبك من رحمة الله » وقوله له « يا أبا عبد الله لا يصلح السلطان الا بالتقوى ولا تصلح رعيته الا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل ولا تدوم نعمة السلطان وطاعته الا بالمال ، ولا تقدم فى الحياطة بمثل نقل الأخبار ، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة ، وأعجز الناس من ظلم من هو دونه واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختباره » وقوله « يا أبا عبد الله لا تجلس مجلسا الا ومعك من أهل العلم من يحدثك ، فان محمد بن شهاب الزهرى قال « الحديث ذكر ولا يحبه الا ذكور الرجال ولا يبغضه الا مؤنثوهم » وصدق أخو زهرة » وقوله له « يا أبا عبد الله من أحب الحمد أحسن السيرة ، ومن أبغض الحمد أساءها ، وما أبغض أحد الحمد الا استذم وما استذم الا كره » وقوله له « يا أبا عبد الله ليس العاقل الذى يحتال للأمر الذى وقع فيه حتى يخرج منه ، ولكنه الذى يحتال للأمر الذى غشيه حتى لا يقع فيه » .

وكان المنصور يراقب ولى عهده مراقبة دقيقة ويتعرف أخباره وسلوكه ليقوم منه ويصلح من شأنه ، ويصقل طبيعته حتى يكون أهلا لولاية العهد والنهوض بأعباء الحكم والاشراف على دولة واسعة الرقعة ، مترامية الأطراف ، مكونة من قوم مختلفى الأجناس والعقائد والمذاهب والاتجاهات والمشارب ، وقد روى واضح — أحد موالى المنصور — الرواية الآتية ، قال « انى لواقف على رأس أبى جعفر يوما اذ دخل المهدى وعليه قباء أسود جديد فسلم وجلس ، ثم قام منصرفا ، واتبعه أبو جعفر ببصره لحبه له ، واعجابه به ، فلما توسط الرواق عثر بسيفه فتخرق سواده،

فقام ومضى لوجهه غير مكترث لذلك ولا حافل به ، فقال أبو جعفر « ردوا أبا عبد الله » فرددناه عليه ، فقال له « يا أبا عبد الله استقلالا للمواهب أم بطرا للنعمة أم قلة علم بموضع المصيبة ، كأنك جاهل بما لك وما عليك ، وهذا الذى أنت فيه عطاء من الله ان شكرته عليه زادك ، وان عرفت موضع البلاء منه فيه عافاك » . فقال المهدى « لا أعدمنا الله بقاءك يا أمير المؤمنين ، وارشادك والحمد لله على نعمه وأسأل الله الشكر على مواهبه ، والخلف الجميل برحمته ، ثم انصرف » .

وقدم الشاعر المؤمل بن أميل الرى على المهدى ومدحه بقصيدة فأمر له المهدى بعشرين ألف درهم ، فكتب بذلك صاحب البريد الى المنصور وهو بمدينة السلام يخبره أن المهدى أمر بعشرين ألف درهم ، فكتب المنصور الى المهدى يعذله ويلومه ويقول له « انما كان ينبغى أن تعطى الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم » . وعلم أبو جعفر أن الشاعر قد توجه الى مدينة السلام ، فوجه المنصور قائدا من قواده فأجلسه على جسر النهروان ، وأمره أن يتصفح الناس رجلا رجلا ممن يمر حتى يظفر بالمؤمل ، فلما رآه قال له « من أنت » قال « أنا المؤمل ابن اميل من زوار الأمير المهدى » فقال له « اياك طلبت » قال المؤمل « فكاد قلبى يتصدع من الخوف » فقبض عليه ، ثم أتى باب المقصورة وأسلمه الى الربيع ، فدخل الربيع الى المنصور فقال « هذا الشاعر قد ظفرنا به » فقال المنصور « أدخله على » فأدخل عليه ، فسلم ، فرد عليه المنصور السلام وقال له « أنت المؤمل بن اميل » فقال « نعم أصلح الله أمير المؤمنين » .

فقال له المنصور « هيه ، أتيت غلاما غرا فخدعته » .

فقال المؤمل « نعم أصلح الله أمير المؤمنين ، أتيت غلاما غرا كريما فخدعته فانخدع » .

وأعجب هذا الجواب المنصور ، فقال « انشدنى ما قلت فيه » .

فأنشده القصيدة التى يقول فيها : ـ

هو المهدى الا أن فيه … مشابه صورة القمر المنير

تشابه ذا وذا فهما اذا ما … أنارا مشكلان على البصير

فهذا فى الظلام سراج ليل … وهذا فى الظلام سراج نور

ولكن فضل الرحمن هذا … على ذا بالمنابر والسرير

وبالملك العزيز فذا أمير … وماذا بالأمير ولا الوزير

ونقص الشهر يخمد ذا وهذا … منير عند نقصان الشهور

فيا ابن خليفة الله المصفى … به تعلو مفاخرة الفخور

لئن فت الملوك وقد توافوا … اليك من السهولة والوعور

لقد سبق الملوك أبوك حتى … بقوا من بين كاب أو حسير

وجئت وراءه تجرى حثيثا … وما بك حين تجرى من فتور

فقال الناس ما هذان الا … بمنزلة الخليق من الجدير

لئن سبق الكبير فأهل سبق … له فضل الكبير على الصغير

وان بلغ الصغير مدى كبير … لقد خلق الصغير من الكبير

فقال له المنصور « والله لقد أحسنت ، ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم ، وأين المال ؟ »" فقال له المؤمل « ها هو ذا يا أمير المؤمنين » .

فقال المنصور « يا ربيع انزل معه فاعطه أربعة آلاف درهم وخذ منه الباقى » .

فخرج الربيع وحط ثقله ، ووزن له أربعة آلاف درهم ، وأخذ الباقى .

ونرى من ذلك أن المنصور أراد أن يلقن ولى عهده درسا فى تجنب الاسراف فى العطاء ، بل كان المنصور يتوق الى معرفة مدى ما يجول فى سريرة نجله وولى عهده من التطلع الى الحكم والحرص على السلطة ، فدعاه يوما — حسب رواية (١) الجهشيارى — وقال له « قد عرضت على أن أوليك الأمر ، وأرده اليك ، فقد كبرت وعجزت عن مباشرة الأعمال والنظر فيها ، وأحببت الراحة والدعـــة » .

فخرج المهدى الى أبى عبيد الله كاتبه وموضع ثقته فرحا مستبشرا وعرفه ما عرضه عليه والده ، فقال له أبو عبيد الله « اتق الله ، ولا تظهر لأمير المؤمنين قبولا لما ذاكرك به ، واذا عاودك فقل له « لا والله ، لا أتعرض لهـــذا الأمر ما أبقى الله أمير المؤمنين ، ولا أنهض له ولا أغره من نفسى : فانه انما سبرك بما عرض عليك » .

فلما دخل المهدى على أبى جعفر قال له « يا أبا عبد الله ، هل فكرت فيما قلته لك ، أو شاورت أحدا فيه ؟ » .

فقال له المهدى « ما بى قوة على ذلك ، ويبقى الله أمير المؤمنين، ويمتعنا بحياته ، وما أحب أن أغر من نفسى ! » .

فقال له المنصور « سبحان الله ، من صدك عنه ؟ ومن ناظرت فيه ؟ وكرر عليه القول وأعاد المهدى عليه جوابا واحدا » .

فقال له المنصور « فمن شاورت فى هذا الأمر ؟ » .

فقال له المهدى « شاورت معاوية » .

فقال له « فأى شىء قال لك ؟ » .

---

(١) صفحة ١٢٨ من كتاب « الوزراء والكتاب » للجهشيارى .

فعرفه المهدى ما قاله له معاوية أبو عبد الله .

فأطرق المنصور هنيهة ثم قال « على بمعاوية » .

فلما دخل عليه قال له « ما هذا الذى ناظرك فيه أبو عبد الله؟ ، وكيف رأيت أن لا يقبل ؟ » .

فقال معاوية « أأصدقك وأنا آمن ؟ » .

فقال له « هات ، ولم لا تصدقنى ؟ » .

فقال له « انه والله ما عرضت عليه ما عرضته وأنت تريد أن توليه ، وانما أردت أن تختبر عقله ، وما كنت لتطيب نفسا بترك ما أنت فيه » .

فقال المنصور « وكيف توهمت ذلك ؟ » .

فقال « لأنى سمعتك تقول « انى أستيقظ بالليل فأدعو بالكتب ، فأضعها بين يدى ، وأدعو بالجارية فآمرها أن تمرخ ظهرى بالدهن ، فتفعل ذلك ، وأنا مقبل على كتبى وتدبيرى والنظر فى أمورى » ، فعلمت أنك لا تدع شيئا يكون موقعه منك هـذا الوقع وتؤثر به غيرك » .

فقال المنصور « ما كنت أرى أن أحدا يتفقد ما تفقدته ، وقد أصبت الرأى وأحسنت بارك الله عليك » .

المنصور ووزراؤه

يقول ابن الطقطقى فى كتابه(١) «الفخرى» « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون فى طبعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة ، والأمانة والصدق رأس ماله ، قيل اذا خان السفير بطل التدبير ، وقيل ليس لمكذوب رأى ، والكفاءة والشهامة من مهماته ، والفطنة والتيقظ والدهاء والحزم من ضرورياته ، ولا يستغنى أن يكون مفضالا مطعاما ليستميل بذلك الأعناق ، وليكون مشكورا بكل لسان ، والرفق والاناة والتثبت فى الأمور والحلم والوقار والتمكن ونفاذ القول مما لا بد له منه والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها الا فى دولة بنى العباس ، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فاذا حدث أمر استشار ذوى الحجا والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير ، وكان قبل ذلك يسمى كاتبا أو مشيرا .. وأول وزير وزر لأول خليفة عباسى حفص بن سليمان أبو سلمة الخلال » .

وبعد قتل أبى سلمة وزر لأبى العباس أبو الجهم بن عطية ، فلما أفضت الخلافة الى المنصور كان فى نفسه منه أمور لأن أبا الجهم كان من أصحاب أبى مسلم ، ويروى أنه سمه فى سويق اللوز ، وكان يقوم مقام الوزير بعده خالد بن برمك ، ويقال انه لم يسم

---

(١) صفحة ١٣٤ .

باسم الوزير نظيرا لما جرى لأبى سلمة ، ولم يمكث خالد فى الوزارة طويلا فقد ولاه المنصور اقليم فارس ، واستوزر مكانه أبا أيوب الموريانى ، واسم أبى أيوب سليمان بن مخلد الموريانى نسبة الى موريان احدى قرى الأهواز ، وقد كان أبو أيوب فى العهد الأموى كاتبا لسليمان بن حبيب المهلبى عامل الأهواز ، فلما قبض على أبى جعفر وجلد حماه أبو أيوب استمرار الأذى عليه وسعى فى اطلاق سراحه ، فحفظ له أبو جعفر هذا الجميل ، واستدعاه لما أفضت اليه الخلافة ، ويقول الجهشيارى عن أبى أيوب(١) « كان ظريفا خفيفا على القلب متأنيا لما يريده منه أبو جعفر ، وقد كان أخذ من كل شىء طرفا ، وكان يقول « ليس من شىء الا وقد نظرت فيه الا الفقه ، فلم أنظر فيه قط ، وقد نظرت فى الكيمياء والطب والنجوم والحساب والسحر ، وكانت له بأبى جعفر حرمة رعاها له ، فخف على قلبه ، وقد قلده أبو جعفر وزارته ، وفوض اليه أمره كله ، وكان له أخ يقال له خالد وابنا أخ يقال لهما مخلد ومسعود ، وكانا ظريفين جميلين ، فنالا من الدنيا ونعيمها حظا جسيما ، وقلد المنصور أبا أيوب الدواوين مع الوزارة ، وغلب عليه غلبة شديدة ، وصرف أهله جميعا فى الأعمال حتى قالت العامة انه قد سحر أبا جعفر ، واتخذ دهنا يمسحه على وجهه اذا أراد الدخول عليه ، وضربت المثل بدهن أبى أيوب » .

ويروى الجهشيارى على سبيل شدة ميل أبى جعفر لأبى أيوب وارتياحه لمحضره وحديثه ان احدى زوجات المنصور – وهى فاطمة بنت محمد الطلحية – اتخذت له مجلسا فى الصيف وجعلت فيه الرياحين والثلج وسائر الطيب ، فلما صار اليها أعجب ببرده وحسنه ، ثم قال لها « ما أنتفع بما أنا فيه » فقالت « ولم يا أمير المؤمنين ؟ »

---

(١) صفحة ٩٧ من كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى .

قال « انه ليس معى أبو أيوب فيحدثنى ويؤنسنى »

فقالت « يا أمير المؤمنين انما هيأته لسرورك ، فتبعث اليه »

فبعث اليه فحضر فقال له « يا أبا أيوب ، كما رأيت طيب هذا الوضع ولذته لم أنتفع به حتى تكون معى فيه » فدعا له وأقام معه .

ولكن هذا التقريب الشديد والاعجاب بمواهب أبى أيوب وتقدير آرائه لم ينف عنه الخوف الشديد من المنصور ، فقد روى عنه أحد أصحابه ، قال(١) « كنا يوما جلوسا عند أبى أيوب فى مجلسه، فأتاه رسول أبى جعفر ، فامتقع لونه وتغير ، ومضى اليه ثم رجع ، فقال له بعض أصحابه فى ذلك فقال « سأضرب لكم مثلا تقوله العامة ، وهو أن البازى قال للديك « ما شىء أقل وفاء منك ، لأن أهلك أخذوك فى بيضة فحضنوك ، وخرجت على أيديهم ، فأطعموك فى أكفهم ، ونشأت بينهم ، حتى اذا كبرت جعلت لا يدنو واحد منهم منك الا طرت منه يمنة ويسرة ، وصحت وصوت ، وأنا أخذت من الجبال كبيرا ، فعلمونى وألفونى ، ثم يخلون عنى ، فآخذ صيدى وأجىء الى صاحبى » فقال له الديك « لو رأيت فى سفافيدهم من البزاة مثل الذى رأيت فيها من الديكة كنت شرا منى ، ولكنكم لو كنتم تعلمون ما أعلمه لم تتعجبوا من خوفى مع ما ترون من تمكنى (٢) » .

وحدث أن رخصت الأسعار فى أيام أبى جعفر ، فسولت لأبى أيوب نفسه أن يشترى طعام سواد الكوفة وسواد البصرة ، وطمع فى الربح ، ففعل ذلك ، فكتب المنصور عليه كتابا بذلك ، وقلده الدواوين ، وكان يطالبه بالمال وقتا بعد وقت ، فتحمل منه الشىء

---

(١) صفحة ١٠٢ من كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ..
(٢) ١١٧ الى ١٣١ من كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى .

بعد الشيء ، وتتابع الرخص عليه ، وأرهقـــه المنصور بالمطالبة بالمال ، وكان المنصور يحب ابنا له يقال له صالح ، ويرق عليه ، وكان أقطع أولاده جميعا قطائع خلاه ، وكان يقول « ابنى هـــذا المسكين لا شيء له ! » فلقب بصالح المسكين ، فقال له أبو أيوب « يا أمير المؤمنين ، قد أصبت ضيعة تقرب من الأهواز ، وتشرب من دجلة ، وتفيض فيها ، وهى بلد واسع ، وقد دثرت رسومها وانطمست أنهارها ، فان أقطعته اياها وأطلقت له ثلاث مئة ألف درهم نستخرجها له ، فلا تلبث الا يسيرا حتى تغل جملة وافرة » .

فأقطع المنصور صالحا تلك الضيعة ، وأمر له بالمال ، فأخذه أبو أيوب ، فأدى صدرا من خسارته فى الطعام ، وجاءت السنة ، فحمل أبو أيوب عشرين ألف درهم الى أبى جعفر وقال « هذه غلة الضيعة » فسر المنصور بذلك وأمر أن يتخذ لصالح بيت مال .

وسعى الى أبى جعفر بالضيعة التى اتخذها لصالح وعرف أن أبا أيوب أخذ المال لنفسه ، وغره من هذه الناحية ، فعزم أبو جعفر على الخروج بنفسه الى الناحية ليعاينها ، فلما تجهز للشخوص كتب أبو أيوب الى وكلائه أن يبنوا على دجلة فى طريق الضيعة على طريق أبى جعفر ، قرى من اللبن والقصب ، وأن يغرسوا نخلا وسدرا وكل ما تهيأ أن يحسن به ، ويرى ظاهره ، ليراها أبو جعفر عامرة الظاهر ، فلما فعلوا ذلك وشخص أبو جعفر فرأى الموضع ، وقد كان أبو أيوب عند قربه منها ، أرسل من سكر دجيل الأهواز والمسرفان حتى فاضا على الضيعة فغرقاها ، ثم غاض الى دجلة ، فأرسل أبو جعفر من سكر الماء وأعاده الى جهته ، وأقام أربعين يوما ينتظر جفاف الأرض ، ثم ركب حتى وقف على الضـــيعة ، وتبين كذب أبى أيوب ، وانصرف ولم يقل شيئا الى أن عاد الى بغداد أظهر السخط على أبى أيوب .

وروى أنه قال له « يا خوزى ــ نسبة الى خوزستان ــ أكنت آمنا

من أن يطلع أمير المؤمنين على خيانتك فيكون جزاؤك فى العاجل اراقة دمك ، واستباحة نعمتك ، وفى الأجل حلول دار الفاسقين ، ومأوى الظالمين الناكثين ؟ » فقال له أبو أيوب « يا أمير المؤمنين ان للتهم فلتات ترجع بالندم ، ولك من رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل السياسة وشرف القرابة ، فأقلنى» فقال له المنصور « لا يسعنى مع عظيم جرمك وجليل ذنبك اقالتك ، ولا العفو عنك ، لأنك اقترفت الموبق ، وما لا يسع معه عفو » .

وحبسه وحبس أخاه خالدا وبنى أخيه ، وهم مسعود وسعيد ومخلد ومحمد ، وطولبوا بالأموال ، وعذبوا وضيق عليهم فطلب كل من كان لهم عنده شيء فأخذه وضغط أبو أيوب بالمطالبة بالمال فمات هو وأخوه فى أول سنة ١٥٤ وأمر المنصور بقتل بنى أخيه فقتلوا .

وتروى (١) رواية أخرى تلقى ضوءا على سبب الايقاع بأبى أيوب رواها أبو العيناء قال « الناس يكثرون فى سبب قتل أبى أيوب ، والذى عندنا أن المنصور لما كان مستترا بالأهواز نزل على بعض الدهاقين ، فاستتر عنده ، فأكرمه الدهقان بجميع ما يقدر عليه حتى أخدمه ابنته ، وكانت فى غاية الجمال ، فقال أبو جعفر « لست أستحل استخدامها والخلوة بها وهى جارية حرة ، فزوجنيها ، فزوجه اياها ، فعلقت منه ، وأراد أبو جعفر الخروج الى البصرة ، فودعهم ، ودفع الى الجارية قميصه وخاتمه وقال « ان ولدت فاحتفظى بولدك ، فمتى سمعت انه قد قام فى الناس رجل يقال له عبد الله بن محمد ويكنى أبا جعفر فصيرى اليه بولدك ، وبهذا القميص والخاتم ، فانه يعرف حقك ويحسن الصنع اليك » وفارقهم فولدت الجارية ابنا ، ونشأ الغلام وترعرع ، فكان يلعب

---

(١) صفحة ١٢١ من كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى .

مع أترابه ، وملك أبو جعفر ، فعير الغلام أترابه بأنه لا يعرف له أب ، فدخل الى أمه حزينا كئيبا ، فسألته عن حاله ، فذكر لها ما قاله أترابه ، فقالت « بلى ، والله أن لك أبا فوق الناس ! » فقال لها « ومن هو » قالت « القائم بالملك » قال « فهذا أبى وأنا على هذه الحال ! هل من شيء يعرفنى به ؟ » .

فأخرجت القميص والخاتم .

وشخص الفتى ، فصار الى الربيع ، فقال له « نصيحة » قال « هاتها » .

فقال « لا أقولها الا لأمير المؤمنين » .

فأعلم المنصور الخبر ، فأدخله اليه ، فقال « هات نصيحتك » .

فقال « أخلنى » .

فنحى المنصور من عنده ، وقال « هات » .

قال « أنا ابنك » .

فقال المنصور « ما علامة ذلك ؟ » .

فأخرج القميص والخاتم ، فعرفهما المنصور وقال له « ما منعك أن تقول هذا ظاهرا ؟ » .

فقال « خفت أن تجحد ، فتكون سبة آخر الدهر » .

فضمه اليه وقبله وقال « أنت الآن ابنى حقا » ، ودعا المورياني فقال « يكون هذا عندك ، وما كنت تفعله بولدى لو كان لى عندك فافعله به » .

وتقدم الى حاجبه الربيع فى أن يسقط الاذن عنـــه . وأمره بالبكور اليه فى كل يوم والرواح ، الى أن يظهر أمره ، فان له فيه تدبيرا .

فضمه الموريانى اليه ، وأخلى له منزلا ، وأوسع له من كل شىء ، فكان يغدو ويروح الى المنصور ، وخص به جدا ، وكان الفتى فى غاية من العقل والكمال ، وكان المنصور يخلو معه ، فسأله الموريانى عما يجرى بينهما فلا يخبره ، فيقول له « ان أمير المؤمنين لا يكتمنى شيئا » فيقول له « فما حاجتك الى ما عندى اذن » .

فحسده الموريانى واستوحش منه ، وثقل عليه مكانه ، فأطعمه سما فمات ، وصار الى المنصور فأعلمه أنه مات فجأة ، ثم ولى ، فقال المنصور « قتلته ! قتلنى الله ان لم أقتلك به » فلم يلبث أن فعل به ما فعل ، وأثار مصرع أبى أيوب وأقاربه الشاعر الكوفى ابن حبيبات فقال الأبيات الآتية : ــ

قد وجدنا الملوك تحسد من أعطته طوعا أزمة التدبير

فاذا ما رأوا له النهى والأمر ... أتوه من بأسهم بنكير

شرب الكأس بعد حفص سليما ... ن ودارت عليه كيف المدير

ونجا خالد بن برمك منها ... اذ دعوه من بعدها بالأمير

أسوأ العاملين حالا لديهم ... من تسمى بكاتب أو وزير

وولى أبو جعفر الربيع بن يونس الوزارة بعد نكبة أبى أيوب ، وولى ابنه الفضل الحجابة وكان الربيع راجح الرأى ، جذاب الحديث ، واسع الخبرة ، ولذلك كان المنصور كثير الميل اليه ، والاعتماد عليه ، وقد أخلص للمنصور ولم تشب سلوكه شائبة ، وكان نزاعا الى الخير ، وقد عرف منه المنصور الرغبة فى التيسير ، والميل الى العطف والتساهل ، فكان اذا أراد بانسان خيرا أمر بتسليمه اليه ، واذا أراد بانسان شرا أمر بتسليمه الى المسيب بن زهير والى الشرطة ، وكان معروفا بالميل الى القسوة واستعمال العنف ، وقد أرسل مرة عامل المنصور على فلسطين رجلا وثب

عليه » واستغوى جماعة من الناس فاما مثل الرجل بين يدى المنصور قال له « أنت المتوثب على عامل أمير المؤمنين ؟ لأنثرن من لحمك أكثر مما يبقى على عظمك ! » فقال الرجل وكان شيخا كبيرا بصوت ضئيل :

أتروض عرسك بعد ما هرمت ومن العنـــاء رياضة الهرم

فقال المنصور « يا ربيع ما يقول الرجل ؟ »

فقال الربيع :

العبد عبـدكم والمال مالـكم فهل عذابك عنى اليوم مصروف

فقال المنصور « يا ربيع قد عفوت عنه فخل سبيله ، واحتفظ به وأحسن اليه » ، وقد شغل الربيع منصب الوزارة حتى وفاة المنصور .

(المنصور بين البخل والكرم)

كان أبو جعفر حينما بويع بالخلافة فى الحادية بعد الأربعين من عمره ، وقد استفاضت تجاربه ونضجت شخصيته ، واستكمل اهبته ، وتزود بأسلحته من ممارسة الأمور ومعالجة المشكلات ، قال مرة لأحد خاصته « ان هذا الملك أفضى الى وأنا حنيك السن ، قد حلبت هذا الدهر أشطره ، وزاحمت المشاة فى الأسواق ، وشاهدتهم فى المواسم ، وغازيتهم فى المغازى ، فوالله ما أحب أن أزداد بهم خبرا ، على أنى أحب أن أعلم ما أحدثوا بعدى منذ تواريت عنهم بهذه الجدران ، وتشاغلت عنهم بأمورهم ، مع أنى والله ما لمت نفسى أن أكون قد أذكيت العيون عليهم حتى أتتنى أخبارهم وهم فى منازلهم » .

وكان من دواعى التوفيق والحظ الحسن للدولة العباسية فى مستهل نشأتها وقبل أن تستكمن فى النفوس هيبتها ، وتتوطد مكانتها ، ويستقيم لها السلطان ، وهى عرضة لأعاصير الانقلابات ونواجم الفتن والثورات ، ان يلى أمورها رجل صلب المعجم ناهض العزم ، راجح العقل مثل أبى جعفر ، وحقيقة أن خلف أخاه أبا العباس بعد أن حمل أعباء الخلافة قرابة خمسة أعوام ، الا أن هذه الفترة القصيرة لم تكن كافية لاستتباب الأمور وارساء قواعد الدولة ، ووضع التقاليد الملائمة لها ، كما ترك له أخوه طائفة من المشكلات المعقدة ليتولى هو علاجها بالأسلوب الذى يؤثره ، مثل مشكلة تزايد نفوذ أبى مسلم الخراسانى وموقف العلويين من الخلافة الناشئة وأحكام نظام وراثة العرش وما الى ذلك من المشكلات ، وقد

اضطره هذا الموقف الى أن يصطنع سياسة الشدة للقضاء على قلاقل الفتن وهزاهز الثورات ، وجعل الطاعة أمرا واجبا ، وفرضا لازما ، واستطاع بذلك أن يقود السفينة بين الأنواء والصخور ، وحينما قال له عمه عبد الصمد بن على « لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لا تسمع بالعفو » أجابه أبو جعفر قائلا « لأن بنى مروان لم تبل رممهم ، وآل أبى طالب لم تغمد سيوفهم ، ونحن بين قوم ، رأونا أمس سوقة واليوم خلفاء فليس تتمهد هيبتنا فى صدورهم الا بنسيان العفو واستعمال العقوبة » ولم يكن المنصور بطبيعته سفاكا متعطشا الى الدماء ، وانما الظروف القاسية والأحوال غير المؤاتية التى ولى فيها الخلافة كانت تفرض عليه اتباع سياسة الشدة والقمع .

ويشيد معظم مؤرخى الدولة الاسلامية بقدرة المنصور وكفايته وحسن سياسته ، فابن الطقطقى يقول في الفخرى (١) « المنصور هو الذى أصل الدولة وضبط المملكة ، ورتب القواعد وأقام الناموس ، واخترع أشياء كثيرة » .

والمسعودى فى مروج الذهب يقول (٢) « كان المنصور من الحزم وصواب الرأى وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف » والمستشرق الألمانى نلدكه يختم فصلا عقده للكلام عن المنصور بقوله « لقد رأى الشرق حكاما كثيرين قاربوا المنصور أو فاقوه فى الخداع والاثرة ، ولكن قل أن يوجد بينهم من يوازن به فى قوة العقل المسيطر أو من كان له ـ اذا توسعنا وتبسطنا فى الحديث ـ مثل تأثيره فى انماء الصالح العام لامبراطوريته » .

وهكذا يتبارى المؤرخون من قدامى ومحدثين فى تعديد صفات

---

(١) الفخرى صفحة ١٤١ .

(٢) مروج الذهب الجزء الثالث صفحة ٣١٨ .

المنصور واحصاء مناقبه بيد أن هناك صفة من الصفات التى اتسم بها المنصور تستحق بوجه خاص أن يسلط عليها الضوء ويتناولها التحليل ، وهي صفة البخل ، قال عنــه صاحب الفخرى « كان المنصور مبخلا يضرب بشحه الأمثال » ويتبع ذلك بقوله « وقيل كان كريما ، وأنه لما حج أفضل على أهل الحجاز فكانوا يسمون عامه عام الخصب ، والصحيح أنه كان رجلا حازما يعطى فى موضـــع العطاء ويمنع فى موضع المنع وكان المنع عليه أغلب » .

ويقول الدكتور حسن ابراهيم حسن (١) كان المنصور حريصا على جمع المال ، كما كان أحرص منه على انفاقه ، وكان يغلب عليه الشح حتى ضرب المثل بشحه وحرصه ، فســمى أبا الدوانيق ، والمنصور الدوانيقى لتشدده فى محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق ، وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم ، فانه لما بنى مدينة بغداد كان ينظر فى العمارة بنفسه ، فيحاسب الصناع والأجراء ، فيقول لهذا ، أنت نمت القائلة ، ولهذا أنت لم تبكر الى عملك ، ولهذا أنت انصرفت ولم تكمل اليوم ، فيعطى كل واحد منهم بحسب ما عمل فى يومه ، فلا يكاد يعطى أجرة يوم واحد » .

وروى الطبرى عن الفضل بن الربيع قال (٢) « وذكر عن على ابن محمد الفضل بن الربيع ، حدثه أن المنصور لما فرغ من بنــاء قصره بالمدينة دخله ، فطاف فيه واستحسنه واستنظفه ، وأعجبه ما رأى فيه ، غير أنه استكثر ما أنفق عليه ، ونظر الى موضع فيه استحسنه جدا ، فقال لى « أخرج الى الربيع فقل له أخرج الى المسيب فقل له يحضر فى الساعة بناء فارها » ، فخرجت الى المســيب فأخبرته ، فبعث الى رئيس البنائين ، فدعاه ، فأدخله على أبى جعفر ، فلما وقف بين يديه قال له « كيف عملت لأصحابنا فى هذا القصر ؟

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى صفحة ٤٦ الجزء الثانى .
(٢) الطبرى جزء ٩ صفحة ٢٦٣ .

وكم أخذت من الأجرة لكل ألف آجرة ولبنة ؟ » فبقي البناء لا يقدر على أن يرد عليه شيئا ، فخافه المسيب ، فقال له المنصور « مالك لا تتكلم ؟ » فقال « لا علم لى يا أمير المؤمنين » قال « ويحك ! قل وأنت آمن من كل ما تخافه » قال « يا أمير المؤمنين ، لا والله ما أقف عليه ولا أعلمه » فأخذ بيده ، وقال له « تعال لا علمك الله خيرا » وأدخله الحجرة التى استحسنها ، فأراه مجلسا كان فيها ، فقال له « انظر الى هذا المجلس ، وابن لى بازائه طاقا يكون شبيها بالبيت ، لا تدخل فيه خشبا » قال « نعم يا أمير المؤمنين » وأقبل على البناء وكل من معه يتعجبون من فهمه بالبناء والهندسة » فقال له البناء «ما أحسن أن أجيء به على هذا ، ولا أقوم به على الذى تريد » فقال له « فأنا أعينك عليه » قال « فأمر بالآجر والأجص فجيء به » ، ثم أقبل يحصى جميع ما دخل به فى بناء الطاقة من الآجر والجص ، ولم يزل كذلك حتى فرغ منه فى يوم وبعض اليوم الثانى ، فدعا المسيب ، فقال له « ادفع أجره على حسب ما عمل معك » فحاسبه المسيب فأصابه خمسة دراهم ، فاستكثر ذلك المنصور ، وقال « لا أرضى اليه بذلك » .فلم يزل به حتى نقصه درهما ، ثم أخذ المقادير ، ونظر مقدار الطاق من الحجرة حتى عرفه ، ثم أخذ الوكلاء والمسيب يحملان النفقات ، وأخذ معه الأمناء من البنائين والمهندسين حتى عرفوه قيمة ذلك ، فلم يزل يحسبه شيئا شيئا ، وحملهم على ما رفع فى أجرة بناء الطاق ، فخرج على المسيب مما فى يده ستة آلاف درهم ونيف ، فأخذه بها واعتقله ، فما برح من القصر حتى أداها اليه »

وتروى عن المنصور طرائف كثيرة خاصة بالبخل منها ما رواه صاحبه الوضين بن عطاء ، قال « استزارنى أبو جعفر ، وكانت بينى وبينه خلالة قبل الخلافة ، فصرت الى مدينة السلام ، فخلونا يوما ، فقال « يا أبا عبد الله ما مالك ؟ » .

فقال الوضين « ثلاث بنات والمرأة وخادم لهن » .

فردد المنصور ذلك حتى ظن الوضين أنه سيمنحه هبة تموله وتغنيه ، ثم رفع رأسه وقال له « أنت أيسر العرب ، أربعة مغازل يدرن فى بيتك » .

وكان يعرف المنصور قبل أن يلى الخلافة أزهر السمان المحدث، فلما تقلد الخلافة قصده أزهر فى مدينة السلام ، فأدخل عليه ، ولما مثل بين يديه قال له المنصور « ما حاجتك يا أزهر ؟ »

فقال أزهر « يا أمير المؤمنين ، على دين أربعـــة آلاف درهم ، ودارى مستهدمة ، وابنى محمد يريد البناء بأهله » .

فأمر المنصور باثنى عشر ألف درهم ، وقال له « لا تأتنا بعد هذا طالب حاجة »

فقال أزهر « أفعل » .

ولكنه عاد بعد قليل وطلب لقاء المنصور ، فلما سمح له بذلك قال له المنصور « ما جاء بك يا أزهر ؟ »

فقال « جئت مسلما يا أمير المؤمنين » .

فقال المنصور « انه ليقع فى نفسى انك أتيتنا لما أتيتنا له فى المرة الأولى » وأمر له باثنى عشر ألف درهم آخر ، ثم قال له « يا أزهر لا تأتنا طالب حاجة ولا مسلما » .

فقال أزهر « نعم يا أمير المؤمنين » .

ولكنه لم يلبث أن عاد ، وطلب الاذن بالمقابلة ، فقال له المنصور حينما رآه « يا أزهر ما جاء بك ؟ » .

فقال أزهر « دعاء سمعته منك أحببت أن آخذه عنك » .

فأجاب المنصور « لا ترده فانه غير مستجاب ، لأننى قد

دعوت الله به أن يريحنى من خلقتك فلم يفعل » وصرفه ولم يعطه شيئا ٠

وكان لأبى جعفر أساليب مبتكرة وحيل شتى يتخلص بها من الذين يطمعون فى رفده ، أو يؤملون فى الحصول منه على جوائز سنية ، واتفق مرة أن كان منصرفا من الحج ، ومر بالمدينة ، وطلب حاديا يحدوه بشعر الشاعر طريف العنبرى الذى يقول فيه :

انى وان كان ابن عمى كاشحا   لمـــزاحم من دونه وورائـــه

وممـــده نصرى وان كان أمرا   متنزحزحا فى أرضـــه وسمائه

فلما كان الليل حدا به الحادى بهذه الأبيات ، وأعجب المنصور بحدائه بعد أن حدا به ليلته ، فلما أصبح قال لوزيره الربيع : « أعطه درهما » .

فقال له الحادى « يا أمير المؤمنين ، حدوت بهشام بن عبد الملك فأمر لى بعشرين ألف درهم وتأمر لى أنت بدرهم » ٠

فأجابه المنصور قائلا « انا لله ، ذكرت ما لم نحب أن نذكره ، ووصفت رجلا ظالما ، أخذ مال الله من غير حـــلة ، وأنفقه فى غير حقه » ٠

ثم أشار الى الربيع قائلا « اشدد يديك به حتى يرد المال » ٠

فبكى الرجل وقال « يا أمير المؤمنين قد مضت هذه السنون ، وقضيت به الديون ، وتمزقته النفقات ، ولا والذى أكرمك بالخلافة ما بقى عندى منه شئ » ٠

وتشفع للرجل خاصة المنصور ، وجعلوا يسألونه حتى كف عنه ، وشرط عليه أن يحدوه به ذاهبا وراجعا ولا يأخذ منه شيئا ٠

وكتب مرة اليه زياد بن عبيد الحارثى يسأله الزيادة فى عطائه وأرزاقه وتأنق فى الكتاب وأبلغ ، فوقع المنصور فى الكتاب « أن الغنى والبلاغة اذا اجتمعا فى رجل أبطراه ، وأمير المؤمنين يشفق عليك من ذلك فاكتف بالبلاغة » .

ودخل عليه (١) أبو بكر الهجرى فقال « يا أمير المؤمنين (٢) نقض فمى ، وأنتم أهل البيت بركة ، فلو أذنت فقبلت رأسك ، لعل الله يمسك على ما بقى من أسنانى » .

فقال له المنصور « اختر بينها وبين الجائزة » .

فقال « يا أمير المؤمنين ، أيسر على من ذهاب الجائزة أن لا تبقى فى فمى حاكة » .

فضحك المنصور وأمر له بجائزة .

ودخل عليه مرة قثم بن العباس فكلمه فى حاجة له ، فقال له أبو جعفر « دعنى من حاجتك هذه ، أخبرنى لم سميت قثما ؟ » .

فقال « والله يا أمير المؤمنين ما أدرى » .

فقال المنصور « اسمك ولا تعرف معناه » ، ما القثم ومن أى شىء أخذ ؟ .

فقال قثم « ان رأى أمير المؤمنين أن يفيدنيه » .

فقال المنصور « القثم الذى يأكل ويزل ، أما سمعت قول الشاعر :

وللكبراء أكل كيف شاءوا وللصغراء أكل واقتثام

---

(١) العقد الفريد جزء ٢ صفحة ١٢٧ .

(٢) نقض فى المتحركات أسنانه وفلقت والحاكة هى السن .

ويروى الجهشيارى (١) أنه كان لسوار القاضى بالبصرة من قبل أبى جعفر كاتبان ، رزق أحدهما أربعون درهما ، ورزق الآخر عشرون درهما ، فكتب اليه سوار يسأله التسوية بينهما ، فنقص صاحب الأربعين عشرة دراهم ، وزادها صاحب العشرين ، وانما أراد سوار أن يلحق صاحب العشرين بصاحب الأربعين .

ومما يدل على شدة حرص المنصور أن لا يضيع مال الدولة كثر أو قل أنه كتب الى عامله بالمدينة يقول له « بع ثمـــار الضياع ، ولا تبعها الا من تغلبه ولا يغلبنا ، فانما يغلبنا المفلس الذى لا مال له ، ولا رأى لنا فى عذابه ،فيذهب بمالنا قبله ، ولو أعطاك جزيلا ، وبعها من الممكن بدون ذلك ممن ينصفك ويوفيك » .

ولما عمل للبصرة والكوفة سورا وخندقا وجعل ما أنفق فيه من الأموال على أهلها لأنه انما عمل لحمايتهم من الغارات المفاجئة وضمان الأمن لهم ، وأراد المنصور معرفة عـــددهم ، فأمر أن يقسم فيهم خمسة دراهم ، ولما علم عددهم أمر بجبايتهم أربعين درهما لكل واحد فقال شاعرهم :

يا لقــومى ما لقينــــا   من أمــير المؤمنينــــا

قسم الخمســة فينـــا   وجبـــانا الأربعينـــا

ويروى المسعودى أن المنصور وافق صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والأكارع والجلود وعليه الحطب والتوابل .

وهكذا كان المنصور فى سياسته المالية يعنى بالقليل من المال كما يعنى بالكثير منه ، ولا ينى يحاسب عماله على المبلغ الزهيد الحقير كما يحاسبهم على المبلغ الضخم الوفير ، ولا يتردد فى أن يرسل الى العمال التوجيهات والتوصيات التى من شأنها أن تزيد فى دخول

---

(١) كتاب الوزراء والكتاب صفحة ١١٣ .

الدولة ولو كان ذلك بالقدر الضئيل ، وكان يمقت أى لون من ألوان التضييع مهما قلت نفقته ، روى (١) الجهشياري أن المنصور وقف يوما من الأيام نهارا على سرب فى داره فيه قنـــديل معلق ، وكان الموضع بين المضيء والمظلم ، فكان تعليق القنديل انما يقع استظهارا ، فأمر بأن يطفأ وقال « لا يعاود هذا المصباح الى هذا الموضع الا فى وقت الحاجة من الليل أو من آخر النهار » ، فلما رأى كاتبه الذى يتولى النفقات ذلك قال فى نفسه « اذا كان الخليفة يتفقد النفقـــات الى هذا الحد فهو لغيره أشد تفقدا » ونظر الى فضول الموائد فباعها ، واجتمع له من ذلك جملة وافرة من المال ، ونظر فى أشياء شبيهة بهذا ففعل فيها مثل هذا الفعل ، فلما انتهى الشهر عرض على الخليفة فى رأس الشهر التالى ما وفر من المال ، فسأله الخليفة عن سبب هذا التوفير ، فطلب منه الأمان ليشرح له الخبر ، فلما أمنه صدق الخبر ، فقال له المنصور « ما الذى كنتم تصنعون بما يفضل من هذه الموائد فى كل يوم ؟ » .

فقال كاتب النفقات « كان يأكله خدمك وغلمانك وحشمك ، وما فضل بعد ذلك عنهم نتصدق به على الفقراء والمساكين » .

فقال المنصور « هذا لم يكن يضيع منه شيء ، فاجر الأمور على ما كان جاريا عليه ، وليس سبيل القنديل سبيل ذلك فى ذلك الموضع ، لأن ذلك الموضع الذى كان فيه مضيئا بالنهار وكان الزيت يذهب ضياعا ، ولا وجه للتضييع فى شيء وان قل » .

ووقف (٢) مرة على كثرة القراطيس فى خزانته ، فدعا بصالح صاحب المصلى ، وقال له « انى أمرت باخراج حاصل القراطيس فى خزائننا ، فوجدته شيئا كثيرا جدا ، فتول بيعه ، وان لم تعط بكل طومار الا دانقا ، فان تحصيل ثمنه أصلح منه » .

---

(١) كتاب الوزراء والكتاب صفحة ١٣٩ .

(٢) كتاب الوزراء والكتاب صفحة ١٣٨ .

وانصرف صالح هذا من حضرته على هذا ، فلما كان الغد دعاه المنصور وقال له « فكرت فى كتبنا وانها قد جرت فى القراطيس ، وليس يؤمن حادث بمصر فتنقطع عنا القراطيس بسببه ، فنحتاج الى أن نكتب فيما لم نعوده عمالنا ، فدع القراطيس استظهارا على حالها » .

وبعد فهذه بعض الأخبار والروايات التى تناقلتها كتب الأدب والتاريخ عن بخل المنصور وشدة حرصه على توفير المال وكراهة الاسراف ، وتختلف بعض هذه الأخبار والروايات فى الصورة والشكل ، ولكنها تتفق جميعها فى المضمون ، وقد وجه نفس هذا الاتهام بالبخل الى عبد الملك بن مروان وابنه هشام ، وهما من أقدر ساسة العرب وأرجحهم عقلا ، والواقع أن المنصور كان يقدر أثر المال فى بناء الدولة ، واصطناع الرجال ، والاستكثار من الأنصار ، وكان كثيرا ما يردد قوله « من قل ماله قل رجاله ، ومن قل رجاله قوى عليه عدوه ، ومن قوى عليه عدوه اتضع ملكه ، ومع اتضاع ملكه استبيح حماه » .

وقد تربع المنصور على عرش الخلافة والدولة العباسية فى أوائل أمرها ، والمتربصون بها كثيرون ، وكما رفعت شأن الكثيرين وحققت آمالهم ، كذلك خيبت آمال الكثيرين وسلبتهم السيطرة والنفوذ وبذلك أثارت نقمتهم وأضمروا لها العداء ، فهى فى حاجة الى كسب الأنصار والأولياء ، وايحاء الرغبة من ناحية والرهبة من ناحية أخرى ، وكان لابد للمنصور من توخى الحذر، وتحرى الحرص ليلائم بين نفسه وبين الظروف المحدقة به ، والبخيل حقا الشديد الشح بالمال هو الذى يطلب المال لذاته ويحبه حبا خالصا لوجهه ، والعامل الأصيل فى البخل هو حب الثراء واكتناز المال حبا مستقلا عن المنافع التى يستتبعها الاكثار منه ، والبخيل حقا الشديد الشره الى المال يخلص فى حبه للمال اخلاص المتصوف فى حبه الالهى ، فهو يريد المال

لذاته قبل كل شيء ، ويستمتع بمرآه ، وتحلو له مشاهدته والخلوة به ، ولم يكن المنصور من هذا الطراز المشح الذى وصفه لنا موليير فى تمثيليته المشهورة وعرضه علينا بلزاك فى روايته « يوچينى جرانديه » ووصفه الجاحظ فى كتابه « الفكه المتع عن البخلاء ونوادرهم » ، فالمنصور لم يكن يحرص على المال لمجرد حب المال ، وانما كان يريد المال ليتخذه وسيلة الى القوة والنفوذ وحماية الدولة ورد غائلة الأعداء عنها .

والبخيل الأصيل فى بخله يضن بالمال فى مختلف المواقف ولا يستريح لطريقة انفاق القليل لكسب الكثير ، أما المنصور فكان يخضع انفاق المال لمقتضيات السياسة ، ولذلك يروى عنه الكثير من نوادر الكرم كما روى عنه الكثير من قصص البخل والشح ، ولما قرأ الهيثم بن عدى عنده « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » قال « لولا أن الأموال حصن السلطان ، ودعامة للدين والدنيا وعزهما وزينتهما ما بت ليلة وأنا أحرز منه دينارا ولا درهما ، لما أجد لبذل المال من اللذاذة ، ولما أعلم فى عطائه من جزيل المثوبة » .

وأرجح أن قول المنصور هذا ليس من قبيل الادعاء الكاذب والمفاخرة الجوفاء ، فان الذى يتأمل سيرة المنصور فى مختلف مواقفه ووجوه سياسته وضروب تدبيراته يجد أن الرجل كان شديد الشعور بخطورة المهمة الملقاة على كاهله ، دائم النظر فيما يصلح أمور الرعية ، وكان لا يألو فى ذلك جهدا ، وهو مثل نادر للحكام القادرين لواجبهم الشديدى النهوض بأعبائهم ، روى (١) أنه لما ثقل على كتابه تفقده الأعمال ومراعاته لها قالوا لمتطببه « لو زينت له شرب النبيذ حتى يتشاغل عنا ، لأعظمت المنة عندنا » فوعدهم

(١) كتاب الوزراء والكتاب صفحة ١٤٠ .

بذلك ، ولم يزل يقول فى الوقت بعد الوقت ، « لو سخنت يا أمير المؤمنين معدتك لأصلحت جسمك ، ونفذ طعامك » فيقول له المنصور « بماذا ؟ » فيقول « بشراب العسل » .

فلما ألح عليه بذلك استدعى شيئا منه ، فشربه فى اليوم الأول فاستطابه ، فعاد له فى اليوم الثانى وازداد منه ، فخدره ، ثم عاوده فى اليوم الثالث فأبطأ عن صلاة الظهر والعصر والعشاء ، فلما كان من غد دعا بما عنده من الشراب فهراقه ، ثم قال « ما ينبغى لمثلى أن يشرب شيئا يشغله » .

والمال فى رأى المنصور ليس وسيلة الى اللهو وطلب المتعة ولا مدرجة للتبذير والاسراف والانفاق بغير حساب ، وانما هو آلة من آلات السياسة وحسن التدبير واصطناع الأنصار ، وقد روى الهيثم أنه فرق على جماعة من أهل بيته فى يوم واحد وهم عشرة عشرة آلاف درهم وأمر لرجل من أعمامه بألف ألف واتبع هذا الهيثم بقوله « ولا نعرف خليفة قبله ولا بعده وصل بها أحد من الناس » .

وقد لا تخلو هذه الرواية من مبالغة ولكنها فى جوهرها تبين سياسة المنصور فى استمالة قلوب أعمامه وأقاربه بالمال ليضمن ولاء الأسرة ، ويحتفظ بالعصبية التى تشد أزره ، وتخلص له النصيحة والتأييد وتصفية الود ، وكان يتبع هذه السياسة مع أنصاره وأوليائه فيبرهم ، فى حياتهم ويجزل لهم المثوبة ، ويتعهد أحوال أسرهم بعد مماتهم روى زيد مولى عيسى بن نهيك الذى مات متأثرا من جراح أصيب بها يوم الهاشمية من جماعة الراوندية قال « دعانى المنصور بعد موت مولاى عيسى بن عيسى بن نهيك » وقال « يا زيد » قلت « لبيك يا أمير المؤمنين » .

فقال « كم خلف أبو زيد من المال ؟ » .

– يقصد عيسى بن نهيك – قلت « ألف دينار أو نحوها » .

قال « فأين هى ؟ » .

قلت « أنفقتها الحرة فى مأتمه » .

قال « فاستعظم المنصور ذلك » وقال « أنفقت الحرة فى مأتمه ألف دينار ، ما أعجب هذا ؟ » ثم قال « كم خلف من البنات ؟ » .

فقال زيد « ستة » .

فأطرق المنصور مليا ثم رفع رأسه وقال لزيد « اغد على باب المهدى » .

فلما ذهب الى باب المهدى قيل له « أمعك بغال ؟ »

فقال « لم أومر بتلك ولا بغيره ، ولا أدرى لما دعيت » .

فأعطى ثمانين ومائة ألف دينار ، وأمر بأن يدفع الى كل واحدة من بنات عيسى ثلاثين ألف دينار .

ودعاه المنصور بعد ذلك ، وقال له « اقتضيت ما أمرنا به لبنات أبى زيد ؟ » .

فقال « نعم يا أمير المؤمنين » .

فقال « أعد على باكفائهن حتى أزوجهن منهم » .

فقال « فغدوت عليه بثلاثة من ولد العلى وثلاثة من آل نهيك من بنى عمهن ، فتزوج كل واحدة منهن على ثلاثين ألف درهم ، وأمر أن تحمل اليهن صدقاتهن من ماله ، وأمرنى أن أشترى لهن ضياعا يكون معاشهن منها ففعلت ذلك » .

وقد سبق أن ذكرت ما أعطاه للاويسى الذى وافاه بخبر خروج محمد بن عبد الله بالمدينة ، والمعروف عن المنصور أنه كان قليل الرغبة

فى مدائح الشعراء قليل الثواب لهم ، وكان لا يتأخر عن اغتنام الفرصة للتخلص منهم (١) ، فلما دخل عليه الشاعر طريح ، قال له المنصور « لا حياك الله ولا بياك ، أما اتقيت الله ويلك حيث تقول للوليد بن يزيد .

لو قلت للسيل دع طريقك والموج عليه كالهضب يعتلج

لساخ وارتد أو لكان له فى سائر الأرض عنك متعرج

فقال له طريح « قد علم الله عز وجل انى قلت ذاك ويدى ممدودة اليه عز وجل واياه تبارك وتعالى عنيت » .

فقال المنصور « يا ربيع أما ترى هذا التخلص ! » ولم يذكر صاحب الأغانى أنه أجازه بشيء ولكنه كان لا يمسك عن الاعطاء اذا تناول الشاعر موقفا من المواقف السياسية التى يهم المنصور تناولها ، فحينما نظم الشاعر الفكه أبو دلامة قصيدته فى مدح المنصور وأشار فيها الى مصرع أبي مسلم قائلا : —

أبامسلم خوفتنى القتل فانتحى عليك بما حوفتنى الأسود الورد

أبا مسلم ما غير الله نعمة على عبده حتى يغيرها العبد

وأنشدها المنصور فى جمع حافل من الناس قال له المنصور « احتكم » فقال الشاعر « عشرة آلاف درهم » فأمر له بها ، وتبسط معه بعد ذلك فى الحديث فقال له لما خلا به « ايه أما والله لو تعديتها لقتلتك » .

---

(١) الجزء الرابع من الأغانى صفحة ٨٠ .

ودخل (١) حماد عجرد على أبى جعفر بعد موت أبى العباس أخيه فأنشده :

أتوك بعد أبى العبـاس اذ بانا — يا أكرم الناس اعراقا وعبدانا
لو مج عود على قوم عصـارته — لمج عودك فينا الشهد والبانا

فأمر له المنصور بخمسة آلاف درهم .

ولما دخل عليه ابراهيم بن على بن هرمة أنشده قصيدته التى يقول فيها : ـ

كريم له وجهان وجه لدى الرضا — طليق ووجه فى الكريهة باسل
وليس بمعطى الحق من غير قدرة — ويعفو اذا ما أمكنته المقـاتل
له لحظات من حفـا فى سريره — اذا كرها فيهـا عقاب ونائل
فأم الذى أمنت آمنـة الردى — وأم الذى حاولت بالثكل ثاكل

رفع له الحجاب ، وأقبل عليه المنصور ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ثم قال « يا ابراهيم لا تتافها طمعا فى مثلها ، فما كل وقت تصل الينا ، ولا يصلك منا مثلها » .

فقال له ابن هرمة « ألقاك بها يا أمير المؤمنين يوم العرض بختم الجهبذ » .

فضحك المنصور ، وقال « اذكر حوائجك » .

فقال « تكتب لى الى عامل المدينة ألا يحدنى اذا أتى به اليه وأنا سكران » .

فقال له المنصور « هذا حد من حدود الله لا يمكن تعطيله » .

فقال « تحتال لى يا أمير المؤمنين » .

---

(١) الجزء الأول من العقد الفريد صفحة ٣٦٥

ويروى صاحب (١) « جمع الجواهر » أن المنصور كتب الى عامل المدينة « من أتاك بابن هرمة وهو سكران فاضربه الحد ، واضرب الذى يأتيك به مائة » فتحاماه الشرط ، فكانوا يمرون به مطروحا فى سكك المدينة فيقولون من يشترى ثمانين بمائة !

وكان المنصور كسائر العرب تعجبه الكلمات البليغة والاجابة التى تدل على حضور البديهة وتوقد القريحة ، روى صاحب (٢) « عيون الأخبار » أن رجلا دخل عليه فقال له المنصور « سل حاجتك » .

فقال الرجل « يبقيك الله يا أمير المؤمنين » .

فأعاد عليه المنصور قوله « سل حاجتك ، فلست تقدر على مثل هذا المقام فى كل حين » فقال الرجل « والله يا أمير المؤمنين ما أستقصر عمرك ، ولا أخاف بخلك ، ولا أغتنم مالك ، وان عطاءك لشرف ، وان سؤالك لزين ، وما بامرىء بذل اليك وجهه نقص ولا شين » .

فوصله المنصور وأحسن اليه .

وسأل المنصور رجلا « ما مالك ؟ »

فأجاب « ما يكف وجهى ويعجز عن بر الصديق » .

فقال له المنصور « لقد تلطفت للسؤال » ووصله .

وفى « جمع الجواهر » ان الربيع بن يونس حاجب المنصور ووزيره قال « كنا وقوفا على رأس المنصور فى يوم عيد ، وقد طرحت وسادة بين يديه ، فجلس المهدى عليها ، والناس سماطان على

---

(١) جمع الجواهر للحصرى القيروانى صفحة ١٠٣ .

(٢) الجزء الثالث من عيون الأخبار صفحة ١٢٧ .

مراتبهم ، اذ أقبل صالح بن المنصور الملقب بالمسكين ، وهو حدث ، فوقف بين السماطين فسلم وأحسن ، ثم استأذن فى الكلام ، فأذن له فتكلم ، قال الربيع « فلم يبلغه ذلك اليوم خطيب ، فمد المنصور يده فقال « الى يا بنى » فلما دنا منه اعتنقه وأقعده قدامه، ثم نظر فى وجوه القوم هل منهم أحد يصف كلامه وما كان منه ! فكلهم هاب المهدى ، فقام عقال بن شبة فقال « لله در خطيب قام عندك يا أمير المؤمنين ، ما أفصح لسانه وأبين بيانه ، وأمضى جنانه ، وأبل ريقه ، وأغمض عروقه ، وأسهل طريقه ! وحق لمن كان أمير المؤمنين أباه والمهدى أخاه ، أن يكون كما قال زهير :

هو الجواد فان يلحق بشأوهما   على تكاليفه فمثله لحقا

أو يسبقاه على ما كان من مهل   فبالذى قدما من صالح سبقا

قال الربيع « فقال لى أبو عبد الله ، وكان الى جانبى ، ما رأيت مثل عقال بن شبة قط ، أرضى أمير المؤمنين ، ومدح الغلام ، وسلم من مذمة المهدى » .

وأعجب به المنصور فقال للربيع « لا ينصرف التميمى الا بثلاثين ألف درهم » ، وقال (١) المنصور مرة لوزيره الربيع بن يونس « سلنى ما تريد ، فقد سكت حتى نطقت ، وخففت حتى أثقلت ، وأقللت حتى أكثرت » .

فقال الربيع « والله يا أمير المؤمنين ما أرهب بخلك ، ولا استقصر عمرك ، ولا استصغر فضلك ولا أغتنم مالك ، وان يومى بفضلك على أحسن من أمسى ، وغدك فى تأميلى أحسن من يومى ، ولو جاز أن يشكرك مثلى بغير الخدمة والمناصحة لما سبقنى لذلك أحد » .

---

(١) زهر الآداب صفحة ٥٤٤ .

فقال له المنصور « صدقت ، علمى بهذا منك أحلك هذا المحل فسلنى ما شئت » .

فقال الربيع « أسألك أن تقرب عبدك الفضل وتؤثره وتحبه » .

فقال المنصور « يا ربيع ، ان الحب ليس بمال يوهب ، ولا رتبة تبذل ، وانما تؤكده الأسباب » .

فقال الربيع « فاجعل له طريقا اليه ، بالتفضل عليه » .

فقال المنصور « صدقت ، وقد وصلته بألف ألف درهم ، ولم أصل بها أحدا غير عمومتى ، لتعلم ما له عندى ، فيكون منه ما يستدعى محبتى » .

واتبع ذلك بقوله « كيف سألت له المحبة يا ربيع » .

فقال الربيع « لأنها مفتاح كل خير ، ومغلاق كل شر ، تستر بها عندك عيوبه ، وتصير حسنات ذنوبه » .

قال « صدقت ، وأتيت بما أردت فى بابه » .

وقال (١) أسد بن عبد الله لأبى جعفر « يا أمير المؤمنين ، فرط الخيلاء ، وهيبة العزة ، وظل الخلافة ، يكف عن الطلب من أمير المؤمنين الا عن اذنه » .

فقال له المنصور « قل ، فقد والله أصبت مسلك الطلب » .

فسأله حوائج كثيرة قضيت له .

وكما كان المنصور يعجب بالحديث الذى يدل على الزكانة وحسن الفهم ، وكان كذلك يعجب بمتـــانة الأخلاق والرجولة

(١) زهر الآداب صفحة ٨٢٣ .

الصحيحة وصحيح الولاء ،وصادق الوفاء ، روى عنه المسعودى انه ذكر له تدبير هشام فى حرب كانت ، فبعث الى رجل كان ينزل برصافة هشام يسأله عن تلك الحرب ، فقدم عليه فقال له « أنت صاحب هشام ؟ » .

فقال الرجل « نعم يا أمير المؤمنين ؟ » .

قال « فأخبرنى كيف فعل فى حرب دبرها فى سنة كذا وكذا » .

فأجاب الرجل « فعل رضى الله عنه فيها كذا وكذا ، وفعل رحمه الله كذا وكذا » .

فأغاظ ذلك المنصور فقال له « قم عليك غضب الله ! تطأ بساطى وتترحم على عدوى ؟ » .

فقام الرجل وهو يقول « ان لعدوك قلادة فى عنقى ومنة فى رقبتى لا ينزعها الى غاسلى » .

وأحدثت هذه الكلمات أثرها فى نفس المنصور ، فهدأ غضبه ، وأمر برد الرجل وقال له « كيف قلت ؟ » .

فقال الرجل « انه كفانى الطلب ، وصان وجهى عن السؤال ، فلم أقف على باب عربى ولا أعجمى منذ رأيته ، أفلا يجب لى أن أذكره الا بخير واتبعه بثنائى » .

فقال له المنصور « بلى ، لله در أم نهضت عنك ، أشهد أنك نهيض حرة وغراس كريم » .

ثم استمع منه ، وأمر له بجائزة .

فقال الرجل « يا أمير المؤمنين ما آخذها لحاجة ، وما هو الا أن أتبجح بحبائك ، وأتشرف بصلتك » .

وأخذ الصلة .

فقال له المنصور « مت اذا شئت ، لله أنت ! لو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجدا » .

وقال لجلسائه بعد خروجه من عنده « فى مثل هذا تحسن الصنيعة ويوضع المعروف ويجاد بالمصون ، وانى فى عسكرنا مثله » .

وقدم (١) عليه وفد من الشام بعد انهزام عبد الله بن على ، وفيهم الحارث بن عبد الرحمن الغفارى ، فتكلم جماعة منهم ، ثم قام الحارث فقال « يا أمير المؤمنين ، انا لسنا وفد مباهاة ، ولكنا وفد توبة استخفت حليمنا ، فنحن بما قدمنا معترفون ، وبما سلف منا معتذرون ، فان تعاقبنا فبما أجرمنا ، وان تعف عنا فطالما أحسنت الى من أساء » .

فقال المنصور « أنت خطيب القوم » ورد عليه ضياعه بالغوطة .

والذى يمكن أن نستخلصه من هذه الروايات والأخبار المختلفة عن بخل المنصور وكرمه أن الرجل كان يعرف قيمة المال ويحسن معرفة وجوه انفاقه ، قال عنه المسعودى «كان يعطى الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزما ، ويمنع الحقير واليسير ما كان عطاؤه تضييعا ، وكان كما قال زياد « لو أن عندى ألف بعير وعندى بعير أجرب لقمت عليه قيام من لا يملك غيره » .

والرجل الذى يعجب بمكارم الأخلاق ، ويقدر محمود الشيم والخلال ، وتستميله المواقف المشرفة ، والكلمات الدالة على قوة النفس ورجاحة العقل وسمو الخلق ، قد نجد صعوبة فى الحاقه بزمرة البخلاء الأشحاء ، وهم فى أغلب الأوقات صغار النفوس ،

---

(١) زهر الآداب صفحة ٧٨٣ .

ضيقو الأفق ، محدودو الذكاء ، لا يطربون لغير جمع المال وادخاره ، ولا تعنيهم فى كثير ولا قليل نبالة النفس ، وفراهة الطبع ، والمواقف الدالة على الاريحية والبطولة .

وهناك مسألة ذكرها المؤرخ المعروف « اليعقوبى » فى عرض كلامه عن أيام أبى جعفر فى صورة موجزة ايجازا شديدا وغامضة وأعنى بها قوله « وأخذ (١) أبو جعفر أموال الناس حتى ما ترك عند أحد فضلا ، وكان مبلغ ما أخذ لهم ثمانمائة ألف درهم » ولم يذكر لنا اليعقوبى الطريقة التى أخذ بها أبو جعفر هذه الأموال ، وهل هى طريقة المصادرة والاغتصاب أو طريقـة فرض الضرائب والجعالات ، ولم يذكر لنا أمثلة من هذا الأخذ لأموال الناس أو شيئا من ظروفه وملابساته .

وكان المنصور فى أكثر أموره يميل الى احترام القانون وقبول أحكام الشريعة ، وقد ذكر الأتليدى(٢)عنه قصة ان لم يكن لها سند من التاريخ الصحيح فهى شبيهة بتصرفاته وسلوكه ، وقد تدلنا على الأثر العام الذى تركه أبو جعفر فى نفوس معاصريه ودارسى سيرته ، ومضمون هذه الرواية أنه رفع الى المنصور بأن رجلا عنده أموال لبنى أمية ، فأمر المنصور الربيع باحضاره ، فلما مثل بين يديه قال له المنصور « رفع الينا أن عندك ودائع وأموالا وسـلاحا لبنى أمية ، فأخرجها لنا لنجمع ذلك الى بيت المال » .

فقال الرجل « يا أمير المؤمنين أنت وارث لبنى أمية ؟ » .

فقال المنصور « لا » .

فقال الرجل « فلم تسأل اذن عما فى يدى من أموال بنى أمية ولست بوارث لهم ولا وصى ؟ » .

---

(١) الجزء الثالث من اليعقوبى صفحة ١٢١ .

(٢) صفحة ٥٨ من كتاب اعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس .

فأطرق المنصور ساعة ثم قال « ان بنى أمية ظلموا الناس وغصبوا أموال المسلمين » .

فقال الرجل « يحتاج أمير المؤمنين الى بينة يقبلها الحاكم تشهد أن المال الذى لبنى أمية هو الذى فى يدى ، وانه هو الذى غصبوه من الناس ، وان أمير المؤمنين يعلم أن بنى أمية كانت لهم أموال لأنفسهم غير أموال المسلمين التى اغتصبوها على ما يتهم أمير المؤمنين » .

فسكت المنصور ساعة ثم قال « يا ربيع صدق الرجل ، ما يجب لنا على الرجل شىء » .

ثم قال للرجل ـ جريا على عادته فى الاعجاب بالذين يحسنون الكلام واقامة الحجة ـ « ألك حاجة ؟ » .

فقال الرجل « نعم » .

فقال المنصور « ما هى ؟ » .

فقال الرجل « أن تجمع بينى وبين من سعى فى اليك ، فوالله يا أمير المؤمنين ما لبنى أمية عندى مال ولا سلاح ، وانما أحضرت بين يديك ، وعلمت ما أنت فيه من العدل والانصاف واتباع الحق واجتناب المظالم ، فأيقنت أن الكلام الذى صدر منى هو أنجح لما سألتنى عنه » .

فقال المنصور « يا ربيع اجمع بينه وبين الذى سعى به »

فجمع الربيع بينهما ، فقال الرجل « يا أمير المؤمنين ، هذا أخذ لى خمسمائة دينار وهرب ، ولى عليه مسطور شرعى » .

فسأل المنصور الرجل ، فأقر بالمال .

فقال له « فما حملك على السعى كاذبا ؟ »

قال « أردت قتله ليخلص لى المال » .

فقال الرجل « قد وهبتها له يا أمير المؤمنين لأجل وقوفى بين يديك وحضورى مجلسك ، ووهبته خمسمائة دينار أخرى لكلامك لى » .

فاستحسن المنصور فعله وأكرمه ورده الى بلده مكرما ، وظل حينا من الزمن يبدى اعجابه بثبات جنان الرجل وقوة حجته وحلمه ومروءته .

وقد كان المنصور بوجه عام أعرف بقيمة العدالة فى بناء الدولة وسياسة الملك من أن يعمد الى الاستيلاء على أموال الناس بغير وجه حق ، ولم يذكر لنا اليعقوبى حالة واحدة من حالات أخذ المنصور للمال تدعم قوله ، ولو أنها كانت حالات كثيرة شاملة كما توهم عبارته لما خفى أمرها ولقللت من بهاء الصورة التى يرسمها المؤرخون الاسلاميون لعدالة المنصور ويقظته وحسن سياسته ، وعند الموازنة بين بخل المنصور وكرمه يجمل بنا أن نستحضر فى بالنا الظروف الحرجة والأزمات التى كانت تعانيها الأسرة العباسية قبل استيلائها على الخلافة ، مما كان يضطر المنصور الى التجول فى البلاد والتنقل فى الأمصار ومصاحبة العلماء الزاهدين وتحرى الاقتصاد فى الانفاق والتقشف .

سياسة المنصور وادارته

لم يكن المنصور بطبيعته ولوعا باثارة الحروب ، لأنه كان بناء ماهرا يريد أن يوطد الدولة ويدعم بنيانها ، ولم يكن يحارب الا مضطرا نازلا على حكم الظروف القاهرة ، فهو لا يحاول أن يكسب شيئا فى هبوب الرياح وزمجرة العواصف ، وكان يحاول جهده أن يقضى على عوامل الفوضى ويوفر أسباب الاستقرار .

ولم يتخذ المنصور تسنم الخلافة وسيلة للعيشة الرافهة ، والانغماس فى اللهو ، والاستمتاع بالسلطة ، وواسع النفوذ ، وانما كان رجل عمل وجد ، يستغرق النظر فى شؤون الدولة معظم وقته ، ويستأثر بالنصيب الأكبر من جهده ، ولم يكن المنصور مبالغا حين أوصى ابنه وولى عهده قائلا « انظر فى أمر النزاع اليك، ووكل بهم عينا غير نائمة ونفسا غير لاهية ولا تنم فان أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ، ولا دخل عينه الغمض الا وقلبه مستيقظ » .

وكان يقول « ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم ، هم أركان الدولة ولا يصلح الملك الا بهم ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه آه ، فقيل له ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال « صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة » .

وكان شغل المنصور فى صدر نهاره بالأمر والنهى ، والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر فى الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية ، فاذا صلى العصر جلس لأهل بيته أو لمن أحب أن يسامره ويبادله الحديث ، فاذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق ، وشاور سماره فيما يعرض من الأمور ، ويقع من الأحداث ، فاذا مضى الثلث الثانى قام من فراشه فأسبغ وضوءه ، وصف فى محرابه حتى يخرج الفجر ، ثم يخرج فيصلى بالناس ثم يدخل فيجلس فى ايوانه ، والوارد فى أخبار سيرته أنه كان لا يظهر لنديم أبدا ، ولا رآه أحد يشرب غير الماء ، فاذا أراد أن يستمتع بسماع الغناء كان بينه وبين الندماء والمغنين ستارة بينه وبينها عشرون ذراعا وبين الستارة وبين الندماء والمغنين مثلها ، فاذا راقه الغناء وأطربه حركت الستارة بعض الجوارى واقترب الخادم الموكول اليه أمر الستارة ، فيقول له المنصور قل للمغنى « أحسنت بارك الله فيك » ، وربما أراد أن يصفق بيديه فيقوم من مجلسه ويدخل بعض حجر نسائه فيكون ذاك هناك ، وكان لا يثيب أحدا من الندماء وغيرهم ، ولهم رسم فى ديوانه ، ولم يقطع أحدا ممن كان يضاف الى ملهية أو ضحك أو هزل موضع قدم من الأرض ، وكان يعرف ما أعطى لكل واحد منهم ويذكره له .

وبعض الناس تزدهر حياتهم ، ويزداد نشاطهم ، وتنبعث هممهم ، تحت تأثير عاطفة قوية طارئة ، ثم تنطفىء الجذوة ، وتفتر الحماسة ، وتهدأ السورة ، أما المنصور فكان طوال حياته ملتزما خطة واحدة ، متابعا نهجا بعينه ، لا يحيد عنه ولا ينحرف ، وقد كان أخوه أبو العباس يصغره بسنوات ، ولكنه سبقه الى الخلافة عملا بوصية ابراهيم الامام أخيهما الأكبر ، وكان سبب هذا الايثار أن العباس كان ابن الحارثية وهى عربية ، فى حين أن المنصور كان ابن سلامة الجارية المجلوبة من المغرب ويقال انها

من قبيلة صنهاجة المغربية المعروفة ، وقد كان ابراهيم الامام نفسه ابن احدى الجوارى ، ولكنه مع ذلك آثر أخاه أبا العباس بالأسبقية الى الخلافة نزولا على التقاليد المتبعة ، وبطبيعة الحال كان هذا الايثار يحز فى نفس أبى جعفر ، الذى كان يأنس فى نفسه القدرة على الاضطلاع بأعباء الخلافة وتدبير سياسة الدولة ، وكان مما أحقده على أبى مسلم قول مندوبه القادم من خراسان لتهنئة الخليفة أبى العباس « أيكم ابن الحارثية » وقد كان هذا الشعور بالغبن يدفع أبا جعفر الى الاستزادة من العلم ، واكتساب الخبرة ، وانماء الكفاية ، وقد يغرى مثل هذا الايثار ذوى الطبائع الضعيفة بالاستكانة والاستسلام ولكنه يحفز ذوى الشخصيات القوية الى بذل الجهد لتعويض النقص واستدراك العيب ، والرجال من طراز أبى جعفر يستمدون القوة من داخل نفوسهم قبل أن يستمدوها من الظروف المواتية ، والمصادفات الحسنة ، وكان أبو جعفر يعجب بالقوة فى مختلف صورها وأشكالها ، سواء فى الذكاء اللماح ، والجواب البارع ، والشعر الجيد ، والكلمة البليغة والخلق القويم ، والرجولة الحقة ، ويتسامح مع من يلمح فيهم هذه المزايا ، ويعمل على تقريبهم ، وكسب مودتهم ، وولائهم ، وغيره من الضعفاء يفسدهم اقبال الحظ والوصول الى السلطة ، ويسلط عليهم الغرور ، ويغريهم بالاعتقاد أن عطايا الحظ دليل على قدرتهم ، فتطيش أحلامهم ، ولا يعرفون قدر أنفسهم .

وقد مر المنصور فى تجواله الدائم قبل الخلافة بكثير من التجارب المرة ، وكان يضطر من الحين الى الحين الى الاستخفاء ، وغير غريب أن تترك التجارب القاسية فى نفسه ميلا الى سوء الظن بالطبيعة الانسانية ، ولذلك كان يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة خشية أن يخدع ، وكان يساعده على ذلك فرط شغفه بالعمل الدائب وشدة اقباله على النهوض بواجباته نحو رعيته

مما حمل صاحب الفخرى على أن يقول عن حالة الوزارة فى أيامه(١) « لم تكن الوزارة فى أيام المنصور طائلة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته ، مع أنه كان يشاور فى الأمور دائما ، وانما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء ، وكانوا لا يزالون على وجل منه وخوف فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق » .

والواقع أنه كان يستشير وزراءه وخاصته ، ولكنه يعرض آراءهم بعد ذلك على محك تفكيره الخاص ولا يتقيد بها ، وكانت أعمال وزرائه وولاته خاضعة لرقابته اليقظة الشديدة التى لا تتيح لهم فرصة للتلاعب واساءة استعمال السلطة المخولة لهم، وكان هذا التوفر الشديد على العمل يجعل منه ناسكا فى رداء خليفة متقشفا فى مأكله وملبسه وسائر عاداته وضروب سلوكه ، وكان فى استشارته لا يكتفى بآراء وزرائه وصحابته ، بل يختار الى جانبهم العالمين بالأمور وذوى التجربة والكفاية ، ولم تمنعه الخصومة التى قامت بينه وبين عمه عبد الله بن على من استشارته حينما ثار به محمد بن عبد الله وأخوه ابراهيم .

وكانت الطريقة التى اتبعها المنصور فى تنظيم الادارة مشابهة للطريقة التى سار عليها الأمويون فى خلال توليهم الخلافة ، ففى كل ولاية وال يختاره الخليفة وفى طليعة أعماله اقامة الصلاة للمسلمين ، ومجاهدة العدو ، ودفع العدوان ، وجباية الخراج ، وحفظ الأمن ، والفصل فى الخصومات بين الناس ، وفى بعض الأحيان كانت تسند اليه هذه الأمور الخمسة فيكون امام القوم وقائد الجند ، وينتدب للخراج والشرطة والقضاء من يراه أهلا للقيام بها . وأحيانا يكون اليه الصلاة والشرطة والجهاد والخراج، ويكون للحرب أمير آخر مستقل عن أمير الصلاة ، ويعين القاضى من قبل الخليفة رأسا .

---

(١) الفخرى صفحة ١٥٥ .

ولم تكن الولايات متعينة العدد ، بل تارة تضم ولايتان الى وال واحد ، وتارة يفصل بينهما حسب ما يراه الخليفة فى مقدرة الوالى ، فأبو مسلم كان واليا لخراسان كلها وبلاد الرى والجبل وعليها ولاة من قبله .

وكان أكثر الولاة فى عهد المنصور من أهل بيته ، وممن اصطنعهم من العرب والموالى فاسماعيل بن على كان على فارس ، وسليمان بن على كان على البصرة ، وعيسى بن موسى كان على الكوفة ، وصالح بن على كان على قنسرين والعواصم ، والعباس ابن محمد كان على الجزيرة ، وعبد الله بن صالح على حمص ، والفضل بن صالح على دمشق ، ومحمد بن ابراهيم على الأردن وعبد الوهاب بن ابراهيم على فلسطين ، والسرى بن عبد الله ابن تمام بن العباس على مكة وجعفر بن سليمان على المدينة ويحيى ابن محمد على الموصل ثم صرفه وولى ابنه جعفر .

وبلغ المنصور أن صالح بن على الذى يتولى قنسرين والعواصم قد كثر عدد مواليه وحاشيته فخافه فكتب اليه فى القدوم عليه ، فكتب أنه شديد العلة فلم يقبل المنصور منه ذلك وكان مرضه السل ، فصار الى بغداد فلما رآه أبو جعفر صرفه ، ولم يأمر له بجائزة ، فقال « ان أمير المؤمنين يئس منى ففعل هذا والله يحيى العظام وهى رميم » فلما صار الى عانات من كور العراق مات ، وكان نظيرا لأبى جعفر فى السن .

وعماله من العرب(١) يزيد بن حاتم المهلبى ، ومحمد بن الأشعث الخزاعى ، وزياد بن عبيد الله الحارثى ، ومعن بن زائدة الشيبانى ، وخازم بن خزيمة التميمى ، وعطية بن أسلم الهنائى ، ويزيد بن أسيد السلمى ، وروح بن حاتم المهلبى ، والمسيب بن زهير الضبى ، وعمر بن حفص المهلبى والحسن بن قحطبة الطائى ،

---

(١) اليعقوبى صفحة ١١٨ الجزء الثالث .

وسلم بن قتيبة الباهلى ، وجعفر بن حنظلة البهرانى ، والربيع ابن زياد الحارثى ، وهشام بن عمرو التغلبى .

وكان ينقل هؤلاء فى عمله لثقته بهم ، واعتماده عليهم ، وكان عماله من مواليه عمـــارة بن حمزة ، ومرزوق أبا الخصيب ، وواضح ومنارة والعلاء ورزين وغزوان وعطية وصاعد ومريد وأسد والربيع .

وكان البت النهائى فى جميع أمور الولايات يرجع الى الخليفة صاحب الأمر المطاع ، والكلمة الحاسمة ، وكان المنصور يؤمن بنظرية حق الملوك الالهى التى سادت فى العصر الوسيط وقد أوضح ذلك فى احدى خطبه فقال وهو يخطب بمكة(١) « أيها الناس ، انما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقــــه وتسديده وتأييده وتبصيره ، وخازنه على فيئـــه ، أعمل فيه بمشيئته ، وأقسمه بارادته ، وأعطيه باذنه ، قد جعلنى عليه قفلا اذا شاء أن يفتحنى لاعطائكم وأقســـم أرزاقكم فتحنى ، واذا شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى ، فارغبوا الى الله واسألوه فى هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم فى كتابه اذ يقول « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » أن يوفقنى للصواب والرشاد ، ويلهمنى الرأفة بكم والاحسان اليكم ، ويفتحنى لاعطائكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم » .

وكان ولاة البريد فى الآفاق كلها يكتبون الى المنصور أيام خلافته فى كل يوم بسعر القمح والحبوب والادم وبســعر كل مأكول ، وبكل ما يقضى به القاضى فى نواحيهم ، وبما يعمل به الوالى وما يرد بيت المال من المال ، وكل حدث يقع ، وكانوا اذا

(١) الجزء الثانى من عيون الأخبار صفحة ٢٥١ .

صلوا المغرب يكتبون اليه بما كان فى كل ليلة اذا صلوا الغداة ، فاذا وردت كتبهم نظر فيها ، فاذا رأى الأسعار على حالها أمسك ، وان تغير شيء منها عن حاله كتب الى الوالى والعامل هناك وسأله عن العلة التى نقلت ذاك عن سعره ، فاذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك حتى يعود السعر الى حاله ، وان شك فى شيء مما قضى به القاضى كتب اليه فى ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فان أنكر شيئا عمل به كتب اليه يوبخه ويلومه .

وكان اتباعه هذا الأسلوب يجعله على بينة من أحوال الولاة ، فاذا ساوره الشك فى سلوك أحد هؤلاء الولاة وارتاب فى أمره لجأ الى الحيلة ليقطع الشك باليقين ، روى الوضاح بن حبيب ـ أحد أصحاب المنصور ـ(١) « كنا اذا خرجنا من عند المنصور صرنا الى المهدى ، وهو يومئذ ولى عهده ، ففعلنا ذلك يوما فأبرز الى يده ، ولم يكن ذلك من عادته ، فأكببت عليها فقبلتها ، وضرب بيدى الى يده ، ثم علمت أنه لم يفعل ذلك الا لشيء فى يده ، فوضع فى يدى كتابا صغيرا تستره الكف ، فلما خرجت فتحته فاذا فيه « يا وضاح ، اذا قرأت كتابى فاستأذن الى ضياعك بالرى » فرجعت فقلت للربيع « استأذن لى » فدخل واستأذن ، فأذن لى ، فدخلت فقلت « يا أمير المؤمنين ضياعى بالرى قد اختلت وبى حاجة الى مطالعتها » فقال « لا ولا كرامة » .

فخرجت ثم عدت اليه اليوم الثانى والقوم معى ، فدخلنا فاستأذنته ، فرد الى مثل الجواب الأول ، فقلت « يا أمير المؤمنين ما أريد اصلاحها الا لأقوى بها على خدمتك » .

فسرى عنه ، ثم قال « اذا شئت فودع » .

فقلت « يا أمير المؤمنين ولى حاجة أذكرها » .

قال « قل » .

---

(١) الجزء الأول من عيون الأخبار صفحة ٢٠٩ .

قلت « أحتاج الى خلوة » .

فنهض القوم وبقى الربيع ، قلت « اخلنى » .

قال « ومن الربيع وبينكما ما بينكما ؟ » .

قلت « نعم » .

فتنحى الربيع ، فقال المنصور « قد خلوت فقل ان جدت لى بمالك ودمك » .

فقلت « يا أمير المؤمنين وهل أنا ومالى الا من نعمتك ، حقنت دمى ، ودم أبى ، ورددت على مالى وآثرتنى بصحبتك » .

فقال « انه يهجس فى نفسى أن جهورا على خلع ، وليس له غيرك لما أعرفه بينكما ، فأظهر اذا صرت اليه الوقيعة فى ، والتنقص لى حتى تعرف ما عنــــده ، وان رأيتــه يهم بخلع فاكتب الى ، ولا تكتبن على بريد ولا مع رسول ، ولا يفوتنى خبرك فى كل يوم ، فقد نصبت لك فلانا القطان فى دار القطن ، فهو يوصل كتبك فى كل يوم الى » .

قال « فمضــيت حتى أتيت الرى ، فدخلت على جهـــور ، فقال « أفلت » فقلت نعم والحمد لله ، ثم أقبلت أوانسه بالوقيعة فيه حتى أظهر ما ظن به المنصور ، فكتبت اليه بذلك .

وكان المنصور لا يلين للولاة مهما تكن قرابتهم له أو أياديهم عنده ، وقد أعجب المنصور بموقف معن بن زائدة فى يوم الهاشمية فقربه وأمنه ، واستعمله على اليمن لما بلغه من الاختــلاف بها ، فأصلح معن شؤونها ، وقصده الناس من شتى النواحى لاشتهاره بالكرم ، ففرق فيهم الأموال ، وكان المنصور شديد الحساسية من هذه الناحية ، وأزعجه اسراف معن فى الكرم ، فنقم على معن ، وخالجه الشك فى أمانته ، وعلم معن بذلك ، فأعد وفدا ليرسله

الى المنصور ليستعطف قلبه ، ويستل سخيمته ، وقال لأصحابه « قد أفنيت عمرى فى طاعته ، وأتعبت نفسى ، وأفنيت رجالى فى حرب اليمن ثم يسخط على ان أنفقت المال فى طاعته » ، وانتخب جماعة من عشيرته من أفناء ربيعة ، وكان فيهم مجاعة بن الأزهر ، وجعل معن يدعو الرجال واحدا واحدا ويقول « ماذا أنت قائل لأمير المؤمنين اذا وجهتك اليه ؟ » فيقول أقول وأقول ، حتى جاءه مجاعة بن الأزهر فقال « أعز الله الأمير ، تسألنى عن مخاطبة رجل بالعراق وأنا باليمن أقصد لحاجتك حتى أتأتى لها كما يمكن وينبغى » .

فقال له معن « أنت صاحبى » .

ثم التفت الى عبد الرحمن بن عتيق المزنى فقال له « شد على عضد بن عمك ، وقدمه أمامك فان سها عن شيء فتلافه » .

واختار من أصحابه ثمانية نفر معهما حتى تموا عشرة ، وودعهم ومضوا حتى صاروا الى أبى جعفر ، فلما صاروا بين يديه ، تقدموا ، فابتدأ مجاعة بن الأزهر بحمد الله والثناء عليه والشكر له، حتى ظن القوم أنه انما قصد لهذا ، ثم كر على ذكر النبى صلى الله عليه وسلم وكيف اختاره الله من بطون العرب ونشر من فضله حتى تعجب القوم ، ثم كر على ذكر أمير المؤمنين المنصور وما شرفه الله به وما قلده ، ثم كر على حاجته فى ذكر صاحبه ، فلما انتهى كلامه قال المنصور « أما ما وصفت من حمد الله فالله أجل وأكبر من أن تبلغه الصفات ، وأما ما ذكرت من النبى صلى الله عليه وسلم فقد فضله الله بأكثر مما قلت ، وأما ما وصفت به أمير المؤمنين فانه فضله الله بذلك ، وهو معينه على طاعته ان شاء الله ، وأما ما ذكرت من صاحبك فكذبت ولؤمت ، أخرج فلا يقبل ما ذكرت » .

فقال « صدق أمير المؤمنين ، والله ما كذبت فى صاحبى » .

فأخرجوا ، ولكن سرعان ما راجع المنصور نفسه ، فلما صاروا بآخر الأبواب ، أمر برده مع أصحابه .

فقال له « ما ذكرت ؟ » .

فكر عليه الكلام حتى كأنه يقرؤه فى صحيفة ، وأخرجوا ، ثم أمر بهم فأوقفوا ، ثم التفت الى من حضر من مضر فقال « هل تعرفون فيكم مثل هذا ؟ والله لقد تكلم حتى حسدته ، وما منعنى أنَ أتم على رده الا أن يقال حسده لأنه من ربيعة ، وما رأيت مثله رجلا أربط جأشا ، ولا أظهر بيانا ، رده يا غلام » .

فلما صار بين يديه قال له « أقصد لحاجتك ، وحاجة صاحبك » .

فقال « يا أمير المؤمنين معن بن زائدة عبدك وسيفك وسهمك ، رميت به عدوك فضرب ، وطعن ورمى حتى سهل ما حزن ، وذل ما صعب ، واستوى ما كان معوجا من أمر اليمن ، فأصبحوا من حول أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، فان كان فى نفس أمير المؤمنين هنة من ساع أو واش أو حاسد فأمير المؤمنين أولى بالتفضل على عبده ، ومن أفنى عمره فى طاعته » .

فقبل المنصور العذر من معن ، وأمر بصرفهم اليه .

وفى سنة(1) ١٥١ كتب المنصور الى معن أن يقدم ، فاستخلف معن ابنه زائدة على اليمن وقدم على أبى جعفر ، وكان معن قد أسن ، فقال له أبو جعفر « كبرت سنك يا معن » فقال « فى طاعتك يا أمير المؤمنين » .

فقال له المنصور « وانك لتتجلد » .

---

(1) الجزء الثالث من اليعقوبى صفحة ١١٨

فقال معن « على أعدائك يا أمير المؤمنين » .

فقال المنصور « وان فيك لبقية » .

فقال معن « هى لك يا أمير المؤمنين » .

فانفذه الى خراسان ، والمهدى بها ، فانصرف المهدى ،وأقام معن لقتال من هناك من الخوارج حتى قتل منهم خلقا عظيما وأفناهم ، فلما رأوا أنهم لا قوة لهم بمحاربته استعملوا الحيلة ، وكان يبنى دارا له ببست ، فدخل بعضهم فى هيئة البنائين ، ثم صيروا السيوف فى أطنان القصب ، فأقاموا أياما ، فلما توسطوا الدار أخرجوا السيوف ، ثم حملوا عليه وهو فى داره فقتلوه ، وهكذا كانت خاتمة هذا الرجل المشهود له بالكرم البالغ والبطولة الخارقة ، وقد رثاه مروان بن أبى حفصة الشاعر المعروف بلاميته المشهورة التى يقول منها :

أقمنا باليمامة بعد معن ... مقاما لا نريد به زوالا

وقلنا أين نذهب بعد معن ... وقد ذهب النوال فلا نوالا

وكان الناس كلهم لمعن ... الى أن زار حفرته عيالا

ورثاه الحسين بن مطير بالأبيات التى اختارها أبو تمام فى حماسته ومنها قوله : ـ

ألما على معن وقولا لقبره ... سقتك الغوادى مربعا ثم مربعا

فيا قبر معن أنت أول حفرة ... من الأرض خطت للسماحة مضجعا

فتى عيش فى ومعروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

وكتب الى المنصور عامله على أرمينيا يقول ان الجند قد شغبوا وكسروا أقفال بيت المال وأخذوا ما فيه فاستخلص المنصور من ذلك عجز هذا العامل عن النهوض بأعباء عمله ، كما ساوره الشك فى أمانته ، فكتب اليه موقعا على كتابه « اعتزل عملنا مذموما ، فلو عقلت لم يشغبوا ، ولو قويت لم ينتهبوا » .

وفى بعض الأحيان كان يكتب الى عماله ناصحا فى رفق ولين حينما لا يجد بينة واضحة على ما يوجه اليهم من اتهام ، فقد رفع اليه رجل يشكو عامله لأنه أخذ حدا من ضيعته فأضافه الى ماله ، فوقع المنصور الى عامله فى رقعة المتظلم « ان آثرت العدل صحبتك السلامة ، فأنصف هذا المتظلم من هذه الظلامة » .

وكتب(١) أبو جعفر لسلم بن قتيبة الباهلى يأمره بهدم دور من خرج مع ابراهيم وعقر نخاهم ، فكتب اليه « بأى ذلك نبدأ أبالنخل أم بالدور » ولم يعجب هذا الرد أبا جعفر ، وبرغم اصطناعه لسلم بن قتيبة فانه كتب اليه ساخرا « أما بعد فانى لو أمرتك بافساد ثمرهم لكتبت الى تستأذن فى أية تبدأ أبالبرنى أم بالشهريز ؟ » وعزله ، وولى مكانه محمد بن سليمان .

وولى المنصور رجلا من العرب حضرموت ، فكتب اليه والى البريد أنه يكثر الخروج فى طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها ، فعزله المنصور وكتب اليه موبخا « ثكلتك أمك ، وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التى أعددتها للنكاية فى الوحش ؟ انا انما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحوش ، فسلم ما كنت تلى من عملنا الى فلان بن فلان والحق بأهلك ملوما مدحورا » .

وأدخل عليه سهيل بن سالم البصرى وقد ولى عملا له

(١) عيون الأخبار الجزء الأول صفحة ٤٤ .

فعزل ، فأمر بحبسه واستئدانه ، فقال سهيل « عبدك يا أمير المؤمنين » فقال له المنصور « بئس العبد أنت » فقال « لكنك يا أمير المؤمنين نعم المولى » فأجابه المنصور « أما لك فلا » .

ولم يكن المنصور يغض الطرف عن عماله اذا شك فى أمانتهم من الناحية المالية بوجه خاص ، لأنه كان يرى أن المحافظة على أموال الدولة الواجب الأول للحاكم .

وكان المنصور يحتمل من ولاته وقواده وسائر رجاله الأجوبة المسكتة اذا تبين له أنهم على حق ، قال مرة « أجع كلبك يتبعك ، وسمنه يأكلك » فقال له أبو العباس الطوسى « أما تخشى يا أمير المؤمنين ان أجعته أن يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك » .

وكان يزيد بن أسيد عند عزل العباس بن محمد اياه عن الجزيرة شكا الى أبى جعفر العباس ، وقال « يا أمير المؤمنين ان أخاك أساء عزلى ، وشتم عرضى » فقال له المنصور « اجمع بين احسانى اليك واساءة أخى يعتدلا » .

فقال يزيد بن أسيد « يا أمير المؤمنين ، اذا كان احسانكم جزاءا باساءتكم كانت طاعتنا تفضلا منا عليكم » .

وكان يقدر الولاة الذين أخلصوا فى خدمة الخلفاء الذين عملوا معهم ، ويود أن يكون ولاته من هذا الطراز الذى يحسن الاضطلاع بالأعباء ، قال ابراهيم بن صالح « كنا فى مجلس ننتظر الاذن فيه على المنصور ، فتذاكرنا الحجاج ، فمنا من حمده ومنا من ذمه ، فكان ممن حمده معن بن زائدة ، وممن ذمه الحسن بن زيد ، ثم أذن لنا ، فدخلنا على المنصور ، فانبرى الحسن بن زيد فقال « يا أمير المؤمنين ما كنت أحسبنى أبقى حتى يذكر الحجاج فى دارك وعلى بساطك فيثنى عليه » .

فقال أبو جعفر « وماذا استنكرت من ذلك ؟ رجل استكفاه

قوم فكفاهم ، والله لوددت انى وجدت مثل الحجاج حتى أستكفيه أمرى ، وأنزل أحد الحرمين » .

فقال له معن « يا أمير المؤمنين ، ان لك مثل الحجـــاج عدة لو استكفيتهم كفوك » .

فقال المنصور « ومن هم ؟ كأنك تريد نفسك » .

فقال معن « وان أردتها فلم أبعد من ذلك » .

فقال المنصور « لست كذاك ، ان الحجاج ائتمنه قوم فأدى اليهم الأمانة ، وائتمناك فخنتنا » لأن اسراف معن فى الكريم كان يثير الشبهة فى نفس المنصور من ناحية أمانة معن المالية وكان المنصور يحتمل المراجعة ويقبلها عن طيب خاطر اذا كانت قائمة على الاستمساك بالعدالة التى ينشدها ، كتب(١) الى سوار بن عبد الله قاضيه على البصرة « انظر الى الأرض التى اختصم فيها فلان القائد وفلان التاجر ، فادفعها الى القائد » .

فكتب اليه سوار « أن البينة قد قامت عندى انها للتاجر ، فلست أخرجها من يده الا ببينة » .

فكتب اليه المنصور « والله الذى لا اله الا هو لتدفعنها الى القـــائد » .

فلم يتردد سوار فى أن يكتب اليه « والله الذى لا اله الا هو لا أخرجها من التاجر الا بحق » .

فلما جاءه الكتاب سر به وقال متفاخرا « ملأتها والله عدلا ، وصار قضاتى تردنى الى الحق » .

وبلغته وشاية عن هذا القاضى النزيه فاستقدمه ليختبر الأمر

---

(١) تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطى صفحة ٢٦٥ .

بنفسه ، واتفق فى أثناء وجـوده معه أن عطس المنصور ، فلم يشمته سوار ، فقال له المنصور « ما يمنعك من التشميت ؟ » .

فأجابه سوار « لأنك لم تحمد الله » .

فقال له المنصور « قد حمدت الله فى نفسى » .

فقال له سوار « شمتك فى نفسى » .

وأدرك المنصور أن ما بلغه عن الرجل كان وشاية ، فقال له « ارجع الى عملك فانك اذا لم تحابنى لم تحاب غيرى » .

ولما قدم المنصور المدينة (١) ومحمد بن عمران الطلحى على قضائه ، استعدى الحمالون على المنصور فى شىء ، فأمر القاضى كاتبه أن يكتب الى المنصور الى الحضور بين يديه وانصاف الحمالين ، وحاول الكاتب أن يستعفى القاضى من كتابة هـذا الكتاب ، فأصر القاضى على رأيه ولم يعفه ، وختم الكتاب بعـد كتابته وقال لكاتبه « والله لا يمضى به غيرك » ومضى الكاتب بالكتاب الى الربيع ، فدخل عليه ، ثم خرج فقال للناس « ان أمير المؤمنين يقول لكم « انى قد دعيت الى مجلس الحكم فلا يقومن معى أحد » .

وأقبل أبو جعفر الى مجلس الحكم هو والربيع ، فلم يقم له القاضى ، بل حل رداءه واحتبى ، ثم دعا بالخصوم ، فادعوا ، فقضى لهم القاضى على الخليفة ، فلما فرغ قال له المنصور : « جزاك الله عن دينك أحسن الجزاء ، قد أمرت لك بعشرة آلاف دينار » .

وكان المنصور يتقبل النقد لسياسته وأحوال دولته اذا اطمأن الى حسن نية الناقد ، وأصـالة رأيه ، ودقة ملاحظته ، وفد عليه وهو خليفة(٢) عبد الرحمن بن زياد الأفريقى وكان قد صحبه فى

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى صفحة ٢٦٦ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى صفحة ٢٦٧ .

طلب العلم قبل أن يلى الخلافة فى العهد الأموى ، وأدخله المنصور منزله ذات يوم وهو يعانى الضيق المالى الذى ألفه فى تجواله ، وقدم أبو جعفر لضيفه طعاما لا لحم فيه ، ثم قال « يا جارية أعندك حلواء ؟ » .

فقالت « لا » .

فقال « ولا تمر » ، قالت « لا » .

فاستلقى وقرأ الآية الكريمة « وقالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربى أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم فى الأرض ، فينظر كيف تعملون » .

وكان عبد الرحمن قاضيا فى أفريقية ، فلما زار المنصور وهو يعرف فيه الصلاح والصراحة منذ كانا يطلبان العلم معا ، أراد أن يعرف رأيه فى سياسته ويفيد من مشاهداته وملاحظاته ، فسأله قائلا « كيف رأيت سلطانى من سلطان بنى أمية ؟ وكيف ما مررت به من أعمالنا حتى وصلت الينا ؟ » .

فأجابه القاضى الافريقى قائلا « يا أمير المؤمنين ، رأيت أعمالا سيئة وظلما فاشيا ، والله يا أمير المؤمنين ما رأيت فى سلطانهم شيئا من الجور والظلم الا رأيته فى سلطانك ، وكنت ظننته لبعد البلاد منك ، فجعلت كلما دنوت كان الأمر أعظم » .

فنكس أبو جعفر رأسه طويلا ثم رفعـــه وقال « كيف لى بالرجال ؟ » .

فقال القاضى « أليس عمر بن عبد العزيز كان يقول ان الوالى بمنزلة السوق يجلب اليها ما ينفق فيها ، فان كان برا أتوه ببرهم وان كان فاجرا أتوه بفجورهم » .

وأتى المنصور بخارجى قد هزم جيوشا له فأراد ضرب رقبته،

ولما نظر اليه ازدراه ، واستهان به ، وقال له « يا ابن الفاعلة ، مثلك يهزم الجيوش ؟ » .

فجبهه الخارجى قائلا « ويلك ، وسوأة لك ، أمس بينى وبينك السيف واليوم القذف والسب ؟ وما كان يؤمنك أن أرد عليك وقد يئست من الحياة فلا تستقيلها أبدا » .

وقدر المنصور شجاعة الرجل وثباته وقوة حجته ، وأدرك خطأه فاستحيا من الرجل وأطلق سراحه .

وكان(١) يتقلد لأبى جعفر بيت المال الفرج بن فضالة التنوخى ، وكان قد عمل لعبد الملك ، فسمعه رشيد خادم المنصور يخطىء المنصور فى قتل أبى مسلم ، ومعاجلته اياه ، فنقل كلامه اليه ، فتغيظ المنصور منه ودعا به ، فسأله عن ذلك ، فأقر به ، فقال له « كيف لم تخطىء صاحبك فى قتله عمرو بن سعيد معاجلا له ؟ » .

فقال الفرج « لأنه قتل عمرا وحوله اثنا عشر ألفا من عبيده ومواليه ، وقتلت أنت أبا مسلم وأنت فى خرق من الأرض ، وكل من حولك له ومنه واليه » .

واقتنع المنصور بوجاهة الرد وصدق النقد فلزم الصمت .

وأبطأ المنصور عن الخروج الى الناس والركوب على خلاف مألوف عادته ، فكثرت الأقاويل وشاعت الاشاعات ، وقال الناس انه عليل وأكثروا ، فدخل عليه الربيع وقال له « يا أمير المؤمنين لأمير المؤمنين طول البقاء ، والناس يقولون » .

فقال له المنصور « وما يقولون ؟ » .

فقال الربيع « يقولون انك عليل » .

---

(١) كتاب الكتاب والوزراء للجشهيارى صفحة ١١٢ .

فأطرق قليلا ثم قال « يا ربيع ، ما لنا وللعامة ، انما تحتاج العامة الى ثلاث خلال ، فاذا فعل ذلك بها فما حاجتهم اذا أقيم لهم من ينظر فى أحكامهم فينصف بعضهم من بعض ، ويؤمن سبلهم حتى لا يخافوا فى ليلهم ولا نهارهم ، ويسد ثغورهم وأطرافهم حتى لا يجيئهم عدوهم ، وقد فعلنا ذلك بهم » .

ثم مكث أياما ، وقال يا ربيع « اضرب الطبل » وركب ورآه العامة .

وحدث الربيع قال(١) « اجتمع عند المنصور عيسى بن على وعيسى بن موسى ومحمد بن على وصالح بن على وقثم بن العباس وغيرهم من الأسرة العباسية ، ودار الحديث حول خلفاء بنى أمية وسيرهم وتدبيرهم ، والسبب الذى به سلبوا عزهم ، فقال المنصور « أما عبد الملك فكان جبارا لا يبالى ما صنع ، وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه ، وأما عمر بن عبد العزيز فكان أعـــور بين عميان ، وكان رجل القوم هشام ، ولم تزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويحفظونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع كسبهم معالى الأمور ورفضهم أدانيها حتى أفضى الأمر الى أبنائهم المترفين ، فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات ، من معاصى الله جل وعز ، جهلا منهم باستدراجه ، وأمنا منهم لمكره ، مع اطراحهم صيانة الخلافة ، واستخفافهم بحق الله تعالى ، وحق الرياسة ، وضعفهم عن السياسة ، فسلبهم الله العز ، وألبسهم الذل ، ونفى عنهم النعمة » .

فقال صالح بن على « يا أمير المؤمنين (٢) ، ان عبد الله بن مروان لما دخل أرض النوبة هاربا فيمن اتبعه سأل ملك النوبة عن حالهم وهيئتهم وما نزل بهم ، وكيف كانت سيرتهم ، فأخبره بجميع

---

(١) المسعودى صفحة ٢٩٦ الجزء الثالث .

(٢) الجزء الأول من عيون الأخبار صفحة ٢٠٦ .

ذلك ، فركب الى عبد الله فكلمه بكلام عجيب فى هذا النحو لا أحفظه وأزعجه عن بلده ، فان رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا فى هذه الليلة ويسأله عن ذلك فعل » .

فأمر المنصور باحضاره ، فلما مثل بين يديه قال له « يا عبد الله قص على قصتك وقصة ملك النوبة » .

قال « يا أمير المؤمنين ، قدمت أرض النوبة بأثاث سلم لى فافترشته بها وأقمت ثلاثا ، فأتانى ملك النوبة ، وقد خبر أمرنا ، فدخل على رجل طوال أقنى حسن الوجه ، فقعد على الأرض ، ولم يقرب الثياب ، فقلت « ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا ؟ » قال « لأنى ملك ، وحق على كل ملك أن يتواضع لعظمة الله اذ رفعه » ثم قال لى « لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم فى كتابكم ؟ » .

قلت « اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا » .

قال « فلم تطأون الزروع بدوابكم والفساد محرم عليكم فى كتابكم ؟ » .

قلت « فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا لجهلهم » .

قال « فلم تلبسون الديباج والحرير وتستعملون الذهب والفضة ، وهو محرم عليكم فى كتابكم ودينكم ؟ » .

فقلت « ذهب الملك منا ، وقل أنصارنا ، فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا » .

قال فأطرق مليا وجعل يقلب يديه وينكت فى الأرض ويقول « عبيدنا وأتباعنا دخلوا فى ديننا وزال الملك عنا ! يردده مرارا ، ثم قال « ليس ذلك كما ذكرت ، بل أنتم قوم استحللتم ما حرم عليكم ، وركبتم ما عنه نهيتم ، وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز ، وألبسكم الذل بذنوبكم ، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها ،

وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدى فيصيبنى معكم ، وانما حق الضيافة ثلاث ، فتزودوا ما احتجتم اليه ، وارتحلوا عن بلدى » ففعلت ذلك .

فتعجب المنصور ، وأطرق مليا ، فرق له وهم باطلاقه ، فأعلمه عيسى بن على أن فى عنقه بيعة له ، فأعاده الى الحبس .

ولم يكن للعباسيين ثقة تامة بالعرب عند توليهم الخلافة ، وكانت وصية ابراهيم الامام حين أرسله الى خراسان قوله له « ان استطعت أن لا تدع فى خراسان من يتكلم العربية فافعل » ، وقد استطاعوا الوصول الى الخلافة بعد أن تشيع لهم الخراسانيون وناصروهم وأمدوهم بالمال والرجال ، وكان أول هم لأبى العباس فى السنوات القصار التى ولى فيها الخلافة القضاء على الأمويين واستئصال شأفتهم وقطع دابرهم حتى لا تقوم لهم قائمة ، وقد تمثل أبو العباس حينما رأى رأس الخليفة الأموى مروان بن محمد بقول الشاعر :

لو يشربون دمى لم يرو شـــاربهم
ولا دماؤهـــم للغيـــظ تروينى

وكانت الدولة الاسلامية فى العهد الأموى من أكثر الوجوه مصطبغة بالصبغة العربية ، وكان العرب فى العهد الأموى يتعالون على سائر الأمم ، ويعدون أنفسهم أسمى جبلة ، وأشرف نسبا من الموالى والأعاجم بوجه عام ، ويرون أنهم خلقاء بالســـيادة والاستئثار بالسلطة والنفوذ ، والأمم الغالبة السائدة يغلب عليها الاعتقاد بأنها لها من المناقب والسجايا ما ينقص الأمم المغلوبة ، ويجرى فى وهمها أن الطبيعة قد حبتها بمزايا وصفات خاصة لم تتيسر لغيرها من الأمم المغلوبة أو غير المغلوبة ، وقد حرم الأمويون منصب الخلافة على من كانت أمه غير عربية من أبنائهم مهما تكن كفايته واستحقاقه للخلافة ، وكان اسراف الأمويين فى الاستخفاف

بغير العرب مما دفع الفرس الى التشيع للعلويين والعباسيين ، والخلاف الشعبى من أقوى الخلافات وأشدها ضراوة لأنه يتجه الى انكار اشتراك الأمم فى المزايا والمواهب . ويثير التعصب المقيت الذى يفسد العلاقات بين الأجناس المختلفة ، وقد كان اعتزاز العرب بقوميتهم العربية وازدراؤهم للقوميات الأخرى من بواعث قيام الشعوبية التى دافع دعاتها عن أمجادهم القديمة وماضيهم الزاهر وعمدوا الى تنقض العرب وكشف مثالبهم ، وقد ظهرت هذه الحركة فى العصر العباسى .

وقد حاول أبو جعفر بسياسته الحكيمة أن يحفظ التوازن بين العرب والأعاجم وبخاصة أنصار الدولة العباسية من الخراسانيين . وأقام سياسته على التوفيق بين مصالح الأمتين الكبيرتين اللتين تتألف منهما الدولة الاسلامية فى عصره ، وهما العرب والفرس ، مخالفا بذلك سياسة الأمويين التى كانت قائمة على تمجيد العربى والتعصب للعرب ، وحاول أن يزيل أسباب الخلاف الذى وقع بين الأمتين فى عهد الأسرة السالفة ، فقرب الارستقراطية الفارسية مثل البرامكة وأمثالهم من الدهاقين ممن كانت قد قضت على نفوذهم سياسة الأمويين ، وقد استطاع المنصور بقوة شخصيته وشدة يقظته أن يحافظ على هذا التوازن، وفى سبيل الأخذ بهذه الخطة الحكيمة لم يتورع عن الفتك بأبى مسلم برغم سمو مكانته ، وعظيم سابقته ، وحسن بلائه فى اقامة الدولة العباسية ، وكان يقف فى سبيل كل من تعاظم نفوذه أو اتسعت ثروته ، وكثر أتباعه ، حتى لا تطغى سلطته على سلطة الخليفة ، ويختل التوازن المنشود ، ومن دواعى الأسف أن خلفاءه لم يراعوا هذه السياسة الحكيمة ، فقد استنام حفيده الرشيد الى البرامكة فى الشطر الأول من حكمه ، ولما رأى أنه لم يصبح له من الأمر شىء أوقع بهم ، ونكبهم النكبة المعروفة ، ووقع فى الشطر الثانى من حياته تحت تأثير العنصر العربى ، ولم يستطع العمل

على ايجاد توازن بين نفوذ العنصرين ، ولذلك اشتد فى عصره الخلاف بين العرب والفرس ، وأصبحا معسكرين يلتمس كل منهما الايقاع بالآخر ، وكان الفرس يفخرون بماضيهم وحضارتهم ، وكان العرب ينتقصونهم ويشكون فى اخلاصهم للاسلام ، وتغلغل الخلاف الى قصر الخليفة نفسه وزاد حدة التنافس بين ولديه الأمين والمأمون ، وكان الأمين يلوذ بالعنصر العربى ، والمأمون تناصره الفرس ، وأخذ الرشيد يقع فى حبائل الدسائس العربية واقتضى هذا التيار الجارف أن يحمل البرامكة رغم انوفهم الى جانب الشيعة الفارسية حتى اتسع الخلاف بينه وبين وزرائه ، وبذل الاثنان جهدا فى تجاهل هذا الخلاف المتفاقم ، ولكن الظروف المحدقة بهما كانت قوية ، فأخذت تفكك ما بينهما من روابط ، وتفصم العرى حتى وقعت تلك الكارثة المحزنة التى شوهت عهد الرشيد ، وألقت على حياته ظلا من الكآبة لم يفارقه حتى الموت .

وقد شغل المنصور فى النصف الأول من حكمه بخروج عمه عبد الله عليه والقضاء على سيطرة أبى مسلم وحسم مطامع العلويين، ولم يخل النصف الثانى من حكمه من ثورات واضطرابات كان أشدها ما حدث سنة ١٥٠ هجرية ، اذ ثار أحد دهاقين الفرس وكان من صنائع أبى مسلم وهو أستاذسيس ، وقد خرج فى هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من كور خراسان ، واستطاع أن يجمع حوله عسكرا مجرا يذكر بعض المؤرخين انه ثلاثمائة ألف مقاتل ، وفى بعض الروايات انه لم يتورع عن ادعاء النبوة ، وأباح لأتباعه الحرية فى العلاقات الجنسية ، وزين لهم الفتك بالناس ، وذاعت دعوته ، وعلت كلمته فى شتى أنحاء خراسان ، وأهم أمره المنصور فأرسل قائده القدير خازم بن خزيمة الى ابنه المهدى فى نيسابور ، واستعان بطائفة من القواد الشجعان المجربين ، وقد استلزم اخماد هذه الثورة الخطيرة اراقة الكثير من الدماء وازهاق أرواح الألوف من الثائرين ، وحدثت ثورات فى افريقية اذ كثرت بها جموع

الخوارج فى سنة ١٥٤ واضطر حاكم أفريقية من قبل المنصور ـ وهو عمر بن حفص المهلبى ـ أن يطلب النجدة قبل أن تستفحل الثورة ويعظم الخطب ، وقدر المنصور خطورة الموقف وشرع فى اعداد جيش لهام ، وأسند قيادته الى يزيد بن حاتم بن قبيصة ابن أبى صفرة ابن عم عمر بن حفص ، وضم اليه عددا من القواد المشهود لهم بالبسالة والاقدام ، وسار المنصور مع حاشيته أمام هذا الجيش حتى الشام وانحدر منهـا الى بيت المقدس وأنفذ الجيش من هناك الى افريقية ولم يدخر وسعا فى الانفاق على هذا الجيش وتزويده بالعتاد اللازم ، وفى خلال الفترة الممتدة بين طلب النجدة وانفاذ الجيش الى افريقية ساء موقف عمر بن حفص ، واضطر الى أن يغامر بنفسه فى حركة يائسة لدفع الخوارج لقى فيها مصرعه ، واستطاع يزيد أن يقضى فى سنة ١٥٥ على ثورة الخوارج ، ويقتل منهم عددا كبيرا ويعيد الهدوء والاستقرار الى افريقية .

ولم يكن المنصور اقوى الرغبة فى توسيع رقعة ممتلكاته ، ومد حدودها ، لأنه كان يؤثر توطيد أركان دولته والمحافظة على حدودها ، وحمايتها من العدوان والقضاء على القلاقل والثورات ، وأقوى الدول التى كانت تناوئه ويقدر قوتها ويعرف لها مكانتها هى الدولة البيزانطية ، وقد عاصر المنصور الامبراطور البيزانطى قسطنطين الخامس ، وكان من أباطرة بيزانطة الأقوياء ، وفى سنة ١٣٨ هجرية هاجم حدود دولة المنصور واستولى على ملطية عنوة ، وأباد أهلها ومن فيها من المقاتلة ، وهدم سورها ، فأرسل المنصور جيشا يقوده عمه صالح بن على وأخوه العباس بن محمد ، وأعيد بناء ما هدمه ملك الروم ، وغزا الجيش الصائفة ، وتوغل فى بلاد العدو ، وسبى وغنم وعاد الى قواعده ، وأرغم هذا الانتصار الامبراطور قسطنطين الخامس على عقد اتفاقية تبادل الأسرى ، وتوقف غزو الصائفة حتى سنة ١٤٦ لأن المنصور كان موجها همه

حينذاك الى اخماد ثورة العلويين ، وكان قسطنطين مشغولا بأموره الداخليــة وخلافاته مع القســاوسة والرهبان ، لأن الأباطرة الايسوريين كان لسياستهم بوجه عام بعض النتائج السيئة ، فقد اضطربت فى عهدهم أحوال الدولة فى الداخل بسبب ما أثاروه من نزاع حول الصور ، ومن جراء ذلك وقعت القطيعة بينهم وبين روما.

ولما استقرت الأمور فى عهد المنصور سنة ١٤٩ هجرية زحف الى الروم جيش كبير يقوده الحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث ومعهما العباس بن محمد أخو الخليفة فدخلوا بلاد الروم وعادوا بالغنــائم والسبايا ، وتوالت الصــوائف حتى طلب الامبراطور قسطنطين الخامس الصلح سنة ١٥٥ وقد مات الامبراطور فى السنة نفسها التى توفى فيها المنصور ، ولم يكن المنصــور يقصد بغزواته لبلاد الروم القضاء على الدولة البيزانطية أو مد حدوده وانما كان غرضه أن يكف عاديتهم ويشعرهم بقوته ويرغمهم على عدم التعرض لدولته .

وعاصر المنصور من ملوك الفرنجة بيبان بن شارل مارتل كمـا عاصر شارلمان بن بيبان فى السنوات الأولى من حكمه ، كما عاصره من أمــراء الدولة العربيــة الأمير عبــد الرحمن الداخــل الملقب بصقر قريش .

وقد أمر المنصور ببناء الرصافة فى سنة ١٥١ وكان الباعث على بنائها سياسيا ، وذلك أن بعض الجند شغبوا على المنصور ، فأزعجه أمرهم وأثار اهتمامه ، ودخل عليه قثم بن العباس بن عبيد الله ابن عباس وكان من شيوخ بنى العباس ذوى الحرمة والمكانة المرعية ، فقال له المنصور « أما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا ، وقد خفت أن تجتمع كلمتهم فيخــرج هــذا الأمر من أيدينا ، فما ترى ؟ »

فقال قثم « يا أمير المؤمنين عندى رأى أن أظهرته لك فسد ، وان تركته أمضيته وصلحت خلافتك ، وهابك جندك »

فقال له المنصور « أفتمضى فى خلافتى شيئا لا أعلمه ؟ »

فقال له قثم « ان كنت عندك متهما فلا تشاورنى ، فان كنت مأمونا عليها فدعنى أفعل رأيى »

فقال له المنصور « امضه »

وانصرف قثم الى منزله ، فدعا غلاما له فقال « اذا كان الغد فتقدمنى واجلس فى دار أمير المؤمنين ، فاذا رأيتنى قد دخلت وتوسطت أصحاب المراتب فخذ بعنان بغلتى فاستحلفنى بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحق العباس وبحق أمير المؤمنين الا ما وقفت لك وسمعت مسألتك وأجبتك عنها ، فانى سأنتهرك ، وأغاظ لك ، فلا تخف ، وعاود المسألة ، فانى سأخبرك ، فعاود وقل لى أى الحيين أشرف اليمن أم مضر ، فاذا أجبتك فاترك البغلة وانت حر »

وفعل الغلام ما أمره به قثم ، وفعل قثم به ما قاله ، ثم قال « مضر أشرف لأن منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها كتاب الله ، وفيها بيت الله ومنها خليفة الله »

فامتعضت لذلك اليمن ، اذ لم يذكر لهم شيئا ، وقال بعض قوادهم « ليس الأمر كذلك مطلقا بغير فضيلة لليمن » ثم قال لغلام له « قم الى بغلة الشيخ فاكبحها » .

ففعل الغلام حتى كاد يعقيها فامتعضت مضر وقالوا « يفعل هذا بشيخنا » فأمر بعضهم غلامه فضرب يد ذلك الغلام فقطعها ، فنفر الحيان .

ودخل قثم على المنصور ، وافترق الجند ، فصارت مضر فرقة وربيعة فرقة ، والخراسانية فرقة .

وقال قثم للمنصور « قد فرقت بين جندك وجعلتهم أحزابا كل حزب منهم يخاف أن يحدث حدثا فتضربه بالحزب الآخر ، وقد بقى عليك فى التدبير بقية ، وهى أن تعبر بابنك فتنزله فى ذلك الجانب وتحول معه قطعة من جيشك فيصير ذلك بلدا وهذا بلدا فان فسد عليك أولئك ضربتهم بهؤلاء ، وان فسد عليك هؤلاء ضربتهم بأولئك ، وان فسد عليك بعض القبائل ضربتهم بالقبيلة الأخرى » .

وقبل هذا الرأى المنصور ، ويروى عن عيسى بن على قوله (١) « ما زال المنصور يشاورنا فى أمره حتى قال ابراهيم بن هرمة فيه :

اذا ما أراد الأمر ناجى ضميره
فناجى ضميرا غير مختلف العقل

ولم يشرك الادنين فى جل أمره
اذا اختلفت بالأضعفين قوى الحبل

وأحسب المنصور كان أقرب الى الأخذ برأى بشار فى قوله :

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
فان الخوافى عدة للقوادم

ولذلك كان لا يبرم أمرا ، ولا يمضى عزما الا بعد الاستشارة ، وتقليب الآراء على وجوهها ، فاذا أشكل عليه أمر من الأمور ارتاد الخبير به ، واسترشد برأيه ، وكان أرجح عقلا ، وأسلم تفكيرا من أن يرى فى الاستشارة دليلا على ضعف الرأى ، وفساد الروية ، وانما كان يستشير مبالغة فى التحرز ، وتجنبا للتورط فى الخطأ ، واعتساف الأمور .

(١) الجزء الثانى من زهر الآداب صفحة ٨٢٤ .

وفى عهد المنصور هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام من الشام ، وبعد مغامرات مذهلة وتجارب قاسية استطاع أن يؤسس دولة فى الأندلس ، وحاول المنصور أن يقضى على هذه الدولة الأموية الناشئة فى الغرب كما قضى العباسيون على الأمويين فى الشرق ، لذلك حرض العلاء بن مغيث حاكم القيروان على محاولة الاستيلاء على الأندلس وابادة دولة عبد الرحمن ، واتصل العلاء بالثائرين على عبد الرحمن فى طليطلة ، ونزل بباجة سنة ١٤٦ هجرية ونشر الراية السوداء ، وأقبلت اليه الجموع ، وتطلع أكثر أهل الأندلس الى خلع عبد الرحمن ، وتجمعوا تحت لواء العلاء ، وتحرج موقف عبد الرحمن ، وأذاع العلاء فى أطراف البلاد ان عبد الرحمن ثائر على الخلافة مغتصب للولاية ، ورماه بالمروق من الدين والكفر ، ليثير حماسة محاربيه ، وساءت حالة عبد الرحمن وهو محاصر فى قرمونة قريبا من شهرين حتى صمم فى احدى الليالى على أن يغامر بكل شىء للخروج من الحصار المضروب حوله ، وكان قد وافته الأخبار أن جيش العلاء قد مل الحصار ، واستطاع عبد الرحمن بهذه المغامرة الجريئة التى اختار فيها للهجوم على الجيش المحاصر سبعمائة رجل من صفوة حرسه ومغاوير أبطاله أن يقضى على الجيش المحاصر ويوقع به الهزيمة ، وجىء بالعلاء وأعلام رجاله فأمر عبد الرحمن بقطع يديه ورجليه ثم ضرب عنقه وأعناقهم ، وأمر فقرطت الصكاك فى آذانهم بأسمائهم ، وأودعت جوالقا محصنا ومعها اللواء الأسود وأنفذ عبد الرحمن بالجوالق تاجرا من ثقاته ، وأجزل له العطية ، وأمره أن يضعه بالفعل فى أسواق القيروان ، وقام التاجر بتلك المهمة . ويروى ان المنصور لما بلغه خبر ذلك قال « لقد عرضنا هذا البائس — يعنى العلاء — للحتف ما فى هذا الشيطان مطمع ، فالحمد لله الذى صير هذا البحر بيننا وبينه » ووعى المنصور هذا الدرس القاسى فلم يعد بعد ذلك الى تحدى سلطة عبد الرحمن .

ولم يمنعه ذلك من تقدير عبد الرحمن ، فقد روى عن المنصور انه سأل أصحابه يوما « من صقر قريش ؟ » قالوا « أمير المؤمنين الذى راض الملك ، وسكن الزلازل ، وحسم الأدواء »

فقال « ما صنعتم شيئا »

قالوا « فمعاوية »

قال « ولا هذا »

قالوا « فعبد الملك بن مروان »

قال « لا »

قالوا « فمن يا أمير المؤمنين »

قال « عبد الرحمن بن معاوية ، الذى تخلص بكيده عن سنن الأسنة وظباة السيوف ، يعبر القفر ، ويركب البحر ، حتى دخل بلدا أعجميا ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، وأقام ملكا بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة عزمه ، ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة تقدمت له ، وأمير المؤمنين بطلب عترته ، واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفردا بنفسه ، مؤيدا برأيه مستصحبا لعزمه ، فلا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى الفذ فى جميع شئونه وعدمه لأهله ونشبه وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرتقى همته ، ومضاء عزيمته حتى قذف بنفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده .

وهكذا كان المنصور دقيقا فى وزنه للرجال وتقديرهم كما كان بعيد النظر فى سياسته صادق الحدس فى ادارته .

المنصور والعلماء الفقهاء والزهاد والشعراء

قال الجاحظ فى البيان والتبيين(١) « كان المنصور داهيا أريبا مصيبا فى رأيه وكان مقدما فى علم الكلام ، ومكثرا من كتاب الآثار ، ولكلامه كتاب يدور فى أيدى العارفين والوراقين معروف عندهم » وقال فى موضع آخر من كتابه(٢) » كان فيما قال المنصور « وما فعل فى أيامه وأسس لمن بعده ما يفى بجماعة ملوك بنى مروان » وفى كتب الادب والتاريخ مثل الأغانى والعقد الفريد وزهر الآداب وغيرها الكثير من الكلمات الحكيمة منسوبة للمنصور ، وليس ذلك عجيبا فقد كان المنصور فى ابان نشأته وعهد شبيبته مقبلا على طلب العلم فى مظانه ، والحديث والفقه ، وقد نال منه جانبا جيدا ، وطرفا صالحا ، وكان واسع الاطلاع على الأدب ، حافظا للكثير من الشعر ، مما دفع بعض (٣) رواة الاخبار والسير الى المبالغة فى الاشادة بقوة ذاكرته ، وغزارة محفوظه ، ومن الجوانب البارزة المشرقة فى حياته وشخصيته ميله الى لقاء العلماء الزاهدين ، واقباله عليهم وترحيبه بهم ، وحسن استماعه لنصائحهم ووعظهم ، وكانوا يصارحونه بالنقد الشديد واللوم الجارح فلا تتملكه سكرة الاقتدار ، ولا تغلبه عزة الملك بل يتسع صدره لهم ويلين جانبه ، والعلاقة بين الساسة والرجال العمليين والحاكمين المتملكين وبين الرجال الزاهدين علاقة

---

(١) البيان والتبيين الجزء الثالث صفحة ١٨٢ .

(٢) البيان والتبيين الجزء الثالث صفحة ١٨١ .

(٣) اعلام الناس صفحة ٥٢ .

نافعة ومجدية ، فالساسة ورجال الأعمـــال دنيويون واقعيون ، والزهاد حالمون مثاليون ، فالتعاون بينهما له أثره فى تقريب الأحلام بالكمال وتحقيقها ، ونشدان المثل العليا والتطلع اليها ، والحد من الاستغراق فى الواقعية والاسراف فى النزعة الدنيوية ، وكان المنصور يحاول على الدوام أن يعرف وجهة نظر محدثه ، ودخيلة نفسه ، وخفى نيته ، وكان الحديث معـــه يجرى فى يسر وسهولة ، فهو لا يصدع بالأحكام القاطعة ، والآراء العقيدية ، ولا يدعى أنه يتلقى وحيا فلا معقب لرأيه ، ولا مأخذ على حكم من أحكامه ، وانما كان يبدى ملاحظاته فى منطق متماسك ، وبيان واضح ، تبدو فيه سمات المعرفة المكتسبة ، والتجربة الواسعة ، مع الصراحة والأصـــالة ، واستقلال التفكير ، ولم يكن يضيق ذرعا بالآراء المعارضة لآرائه بل يتقبلها ويزنها ويعمل بها اذا أنس فيها الاصابة والرجحان .

وكان من أخص العلماء الزاهدين منزلة لديه وأكرمهم عليـــه الزاهد المعتزلى عمرو بن عبيد وكان يعد شيخ المعتزلة فى عصره ، وكان صاحب أبى جعفر وصديقه قبل الخلافة ، وقد روى (١) المسعودى نقلا عن اسحاق بن الفضل زيارة عمرو بن عبيد للمنصور بعد تقلده الخلافة فقال « بينما أنا على باب المنصور اذ أتى عمرو ابن عبيد ، فنزل عن حماره وجلس ، فخرج اليه الربيع ، فقال له « قم أبا عثمان ، بأبى أنت وأمى » فلما دخل على أبى جعفر أمر أن تفرش له لبود بقربه وأجلسه اليه بعد ما سلم ، ثم قال « يا أبا عثمان عظنى بموعظة » فوعظه بمواعظ ، فلما أراد النهوض قال « أمرنا لك بعشرة آلاف » قال « لا حاجة لى فيها » ، قال أبو جعفر « والله لتأخذنها » قال « لا والله لا آخذها » وكان المهدى حاضرا ، فقال « يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت » فالتفت عمرو الى أبى جعفـــر فقال « من هذا الفتى ؟ » فقال المنصور « محمد ابنى ، وهو المهدى ،

---

(١) الجزء الثالث من مروج الذهب صفحة ٣١٣ .

وهو ولى عهدى » قال « اما والله لقد ألبسته لباسا ما هو من لباس الأبرار ، ولقد سميته باسم ما استحقه عملا ، ولقد مهدت له أمرا أمتع ما يكون به أشغل مايكون عنه » ثم أقبل عمرو على المهدى فقال « نعم يا ابن أخى ، اذا حلف أبوك أحنثه عمك ، لأن أباك أقوى على الكفارات من عمك » فقـــال له المنصـــور « هل لك من حاجة يا أبا عثمان ؟ » قال «نعم» قال « ما هى ؟ » قال « لا تبعث الى حتى آتيك » قال « اذن لا نلتقى » قال « هى حاجتى » فمضى وأتبعـه المنصور طرفه ثم قال :

كلكم يمشى رويد   كلكم يطلب صيد   غير عمر بن عبيد

وبعد مبايعة المنصور لابنه المهدى دخل عمرو بن عبيـــد على المنصور ، فقال له المنصور « يا أبا عثمان ، هذا ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين » فقال له عمرو « يا أمير المؤمنين ، أراك قـد وطدت له الأمور ، وهى تصير اليه ، وانت عنه مسئول »

فاستعبر المنصور وقال له « عظنى يا عمرو »

فقال له « يا أمير المؤمنين ، ان الله قد أعطـاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، وان هذا الذى أصبح فى يديك لو بقى فى يد غيرك لم يصل اليك ، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده ، وأنشده أبياتا من الشعر منها : ـ

يا أيهذا الذى قد غره الأمل
ودون مايأمل التنغيص والأجل

ألا ترى انما الدنيـا وزينتهـا
كمنزل الركب حلوا ثمت ارتحلوا

حتوفها رصد وعيشـــها نكد
وصفوها كدر وملكهـــا دول

تظــل تقرع بالروعات ساكنها

فما يســـوغ له لين ولا جــذل

كأنه للمنـــايا والردى غرض

تظل فيــه بنات الدهر تنتضل

وكان (١) عمرو بن عبيد اذا رأى أبا جعفر وهو يطوف بالكعبة قبل الخلافة يقول « ان يرد الله بأمة محمد خيرا يول أمرها هذا الشاب من بنى هاشم »

وتوفى عمرو بن عبيد وهو راجع الى مكة بموضع يقال له مران ـ وهو موضع بين مكة والبصرة ـ ورثاه المنصور بقوله :

صلى الاله عليــك من متوسد

قبرا مررت به عـــلى مران

قبرا تضمن مؤمنا متحنفـــا

صـــدق الاله ودان بالعرفان

واذا الرجال تنازعوا فى شبهة

فصل الخطـــاب بحكمة وبيان

فلو أن هذا الدهر أبقى صالحا

أبقى لـــه عمـــرا أبا عثمان

ويقول ابن خلكان (٢) « ولم يسمع بخليفة يرثى من دونه سواه رضى الله عنه »

---

(١) عيون الأخبار الجزء الأول صفحة ٢٠٩ .

(٢) الجزء الثالث من ابن خلكان صفحة ١٣٠ تحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد ..

ولقى أبو جعفر سفيان الثورى فى الطواف فقال له « ما الذى يمنعك أبا عبد الله أن تأتينا ؟ »

فأجابه سفيان « ان الله نهانا عنكم » فقـــال « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار »

وكان سفيان اماما فى علم الحديث وغيره من العلوم الدينيـــة ، وقد أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته ، وقد أرسل اليه أبو جعفر فلما دخل عليه قال له « سلنى حاجتك أبا عبد الله »

قال « وتقضيها يا أمير المؤمنين ؟ »

قال « نعم »

قال « ان حاجتى أن لا ترســل الى حتى آتيك ، ولا تعطينى شيئا حتى أسألك » ثم خرج ، فقال أبو جعفر لحــاضرى مجلسه « ألقينا الحب الى العلماء فلقطوا ، الا ماكان من سفيان الثورى فانه أعيانا فرارا » .

وأرسل اليه المنصور فلما دخل عليه قال له «عظنى أبا عبدالله» فقال « وما عملت يا أمير المؤمنين فيما علمت فأعظك فيما جهلت » فما وجد له المنصور جوابا .

وروى (١) أن أبا جعفر كان بالمدينة وهو ينظر فيما بين رجل من قريش وأهل بيت من المهاجرين بالمدينة ليســوا من قريش ، فقالوا لأبى جعفر « اجعل بيننا وبينه ابن أبى ذئب » فقال أبو جعفر لابن أبى ذئب « ما تقول فى بنى فلان ؟ » .

فقال ابن أبى ذئب « أشرار من أهل بيت أشرار »

---

(١) الجزء الأول من العقد الفريد ص ٢٠٠ .

فقالوا « اسأله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد » وكان عامل المنصور على المدينة ، فقال له المنصور « ماتقول فى الحسن ابن زيد ؟ »

فقال ابن أبى ذئب « يأخذ بالأحنة ويقضى بالهوى »

فقال الحسن (١) « يا أمير المؤمنين ، والله لو سألته عن نفسك لرماك بداهية أو وصفك بشر » فقال المنصور لابن أبى ذئب « ما تقول فى ؟ » .

فقال « اعفنى » .

فقال المنصور « لابد أن تقول » .

فقال ابن أبي ذئب « لا تعدل في الرعية ولا تقسم بالسوية » .

فتغير وجه أبى جعفر ، فقال ابراهيم بن يحيى بن محمد بن على صاحب الموصل « طهرنى بدمه يا أمير المؤمنين » .

فقال المنصور « أقعـــد يا بنى ، فليس فى دم رجل يشـهد أن لا اله الا الله طهور » .

ثم تدارك ابن أبى ذئب الكلام فقال « يا أمير المؤمنين دعنا مما نحن فيه ، بلغنى أن لك ابنا صالحا بالعراق » يقصد المهدى .

فقال المنصور « أما انك قلت ذلك انه الصوام القوام البعيد ما بين الطرفين » كناية عن شرف النسب ، وكثرة ما له من الآباء الأشراف .

ثم قام ابن أبى ذئب فخرج ، فقال أبو جعفر « أما والله ما هو بمستوثق العقل ، ولقد قال بذات نفسه » .

---

(١) الجزء الأول من العقد الفريد صفحة ٦٥ .

وفى رواية أخرى أنه قال للمنصور « أشهد أنك أخذت هذا المال من غير أهله فجعلته فى غير أهله ، وأشهد أن الظلم ببابك فاش » فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده فى قفا ابن أبى ذئب فقبض عليه ثم قال « أما والله لولا انى جالس هنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك » .

فقال ابن أبى ذئب « يا أمير المؤمنين قد ولى أبو بكر وعمر فأخذ الحق وقسما بالسوية وأخذا باقفاء فارس والروم ، وأصغرا آنافهم » .

فخلى أبو جعفر قفاه ، وخلى سبيله وقال « والله لولا أنى أعلم أنك صادق لقتلتك » .

فقال ابن أبى ذئب « والله يا أمير المؤمنين انى لأنصح لك من ابنك المهدى » وابن أبى ذئب من (١) الأئمة المشاهير وهو صاحب الامام مالك ، وكان بينهما ألفة أكيدة ومودة صحيحة ، ولما قدم مالك على أبى جعفر سأله « من بقى بالمدينة من المشيخة ؟ » فقال « يا أمير المؤمنين ابن أبى ذئب وابن أبى سلمة وابن أبى سبرة » .

واعتقاد المنصور أن مثل هذا الرجل العالم الزاهد الصريح القول كان مخلى من الحوافز الدنيوية وصادق النية وخالص الطوية فيما يقول هو الذى جعله يحتمل قسوة نقده وشديد مؤاخذته .

ولما حج (٢) المنصور فى سنة ١٤٨ سأل عن عبيد الله بن عمر ابن حفص بن عبد الله بن عمرو وهو الفقيه المعروف بالعمرى ، فقيل له « انه لم يحج العام يا أمير المؤمنين ، ولو حج لكان أول داخل عليك ، فلا تقبل عليه أحدا يا أمير المؤمنين ، ولا يقدح فيه عندك الا باطلى أو كذاب ، فانه من علمت » .

---

(١) وفيات الأعيان الجزء الثالث صفحة ٣٢٣ .

(٢) الامامة والسياسة الجزء الثانى صفحة ١٤٤ .

فقال أبو جعفر « والله ما تخلف عن الحج فى عامه هذا الا علما منه بأنى حاج ، فلذلك تخلف ، ولا والله ما زاده ذلك عندى الا شرفا ورفعة ، وانى له من التوقير به والاجلال له بجال لا أخال أحدا من الناس بذلك لشرفه فى قريش ، وعظم منزلته من هذا الأمر والموضع الذى جعله فيه ، والمكان الذى أنزله به »

ولما قدم أبو جعفر بغداد ورد عليه كتاب عبيد الله العمرى فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أبى جعفر أمير المؤمنين ، من عبيد الله بن عمر ، سلام عليك ورحمة الله التى اتسعت فوسعت من شاء ، أما بعد فانى عهدتك وأمر نفسك لك مهم ، وقد أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها وأبيضها وشريفها ووضيعها ، يجلس بين يديك العدو والصديق والشريف والوضيع ، ولكل حصته من العدل ونصيبه من الحق ، فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر ، وانى أحذرك يوما تفنى فيه الوجوه والقلوب ، وتنقطع فيه الحجة لملك قد قهرهم بجبروته وأذلهم بسلطانه ، والخلق داخرون له يرجون رحمته ، ويخافون عذابه وعقابه ، وانا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع فى آخر زمانها أن يكون اخوان العلانية أعداء السريرة ، وانى أعوذ بالله أن تنزل كتابى سوء المنزلة انما كتبت نصيحة والسلام » .

فأجابه أبو جعفر المنصور « من عبد الله بن محمد أمير المؤمنين الى عبيد الله بن عمر بن حفص ، سلام عليك ، أما بعد فانك كتبت الى تذكر أنك عهدتنى وأمر نفسى الى مهم ، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة بأسرها ، وكتبت تذكر أنك بلغك أن أمر هذه الأمة سيرجع فى آخر زمانها أن يكون اخوان العلانية أعداء السريرة ، ولست ان شاء الله من أولئك ، وليس هذا زمان ذلك ، انما ذلك زمان تظهر فيه الرغبة ، والرغبة تكون رغبة بعض الناس الى بعض صلاح دنياهم أحب اليهم من صلاح دينهم ، وكتبت تحذرنى ما حذرت به

الأمم من قبلى وقدما كان يقال اختلاف الليل والنهار يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، ويأتيان بكل موعود ، حتى يصير الناس الى منازلهم من الجنة والنار ، وكتبت تتعوذ بالله أن ننزل كتابك سوء المنزل ، وانك انما كتبت به نصيحة ، فصدقت وبررت ، فلا تدع الكتب الى فانه لا غنى بى عن ذلك والسلام » .

ودخل على المنصور الأوزاعى وهو من كبار الأئمة فى عصره فقال له المنصور « ما الذى أبطأ بك عنى ؟ » .

فقال الأوزاعى (١) « يا أمير المؤمنين وما الذى تريد منى » ؟

فقال المنصور « الاقتباس منك » .

فقال الأوزاعى « انظر ما تقول ، فان مكحولا حدثنى عن عطية ابن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من بلغه عن الله نصيحة فى دينه فهى رحمة من الله سبقت اليه فان قبلها من الله يشكر ، والا كانت حجة من الله عليه ليزداد اثما وليزداد الله عليه غضبا ، وان بلغه شيء من الحق فرضى فله الرضا ، وان سخط فله السخط ، ومن كرهه فقد كره الله ، لأن الله هو الحق المبين » فلا تجهلن .

فقال المنصور « وكيف أجهل ؟ » .

قال الأوزاعى « تسمع ولا تعمل بما تسمع » .

واستكثر الربيع هذه الجرأة على المنصور من الأوزاعى فسل عليه السيف ، وقال « تقول لأمير المؤمنين هذا ! » .

فانتهره المنصور ، وقال له « أمسك » .

ومضى الأوزاعى فى حديثه الناصح الواعظ قائلا « انك أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به ، والله سائلك عن صغيرها وكبيرها

---

(١) الجزء الثانى من العقد الفريد صفحة ٣٣٨ .

وقتيلها ونفيرها ، ولقد حدثنى عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من راع يبيت غاشا لرعيته الا حرم الله عليه رائحة الجنة » ، فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظرا ، ولما استطاع من عوراتهم ساترا ، وبالقسط فيما بينهم قائما ، لا يتخوف محسنهم منه رهقا ، ولا مسيئهم عدوانا ، فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويردع عنها المنافقين ، فأتاه جبريل فقال « يا محمد ما هذه الجريدة بيدك ؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبا ، فكيف من سفك دماءهم ، وشقق أبشارهم ، وأنهب أموالهم ، يا أمير المؤمنين ، ان المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا الى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده ، فهبط جبريل فقال « يا محمد ان الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون أمتك ، واعلم أن كل ما فى يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ، ولا ثمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقاب قوس من الجنة أو قذة خير له من الدنيا بأسرها » ان الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ، ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل اليك ، يا أمير المؤمنين ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لآذاهم فكيف من يتقمصه ! ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الأرض لآجنه ، فكيف بمن يتجرعه ، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذ اب ، فكيف من سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه ! وقد قال عمر بن الخطاب « لا يقوم أمر الناس الا حصيف العقدة بعيد الغرة ، لا يطلع منه الناس على عورة ، ولا يحنق فى الحق على جرة ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم » .

واعلم أن السلطان أربعة ، أمير يظلف نفسه وعماله ، فذلك له أجر المجاهد فى سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع ورتع عماله ، فذاك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله ، فذاك

الذى باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله ، فذاك شر الأكياس .

واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، وقد جاء عن جدك فى تفسير قول الله عز وجل « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها » ان الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ، وقال فما ظنكم بالكلام وما عملته الأيدى ! فأعيذك بالله أن يخيل اليك أن قرابتك برسول الله صلى الله عليه وسلم تنفع من المخالفة لأمره ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا صفية عمة محمد ويا فاطمة بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله انى لا أغنى عنكما من الله شيئا » ، وكان جدك الأكبر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم امارة فقال « أى عم نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها » نظرا لعمه وشفقة عليه أن يلى فيجور عن سنته جناح بعوضة ، فلا يستطيع له نفعا ولا عنه دفعا ، هذه نصيحتى **ان قبلتها فلنفسك عملت ، وان رددتها فنفسك بخست** ، والله الموفق للخير والمعين عليه » .

فقال المنصور « بلى ! نقبلها ونشكر عليها ، وبالله نستعين » .

ولم تكن هذه أول مرة ولا آخر مرة يقبل فيها المنصور هذا اللون من الوعظ والنصائح المنطوى على نقد لسياسته وتوجيه له .

ومن أمثلة قبوله مثل هذا النقد فى صورة مصغرة ما روى من أنه (١) أقبل يوما راكبا والفرج بن فضالة جالس عند باب الذهب ، فقام الناس اليه ولم يقم الفرج ، فاستشاط المنصور غيظا وغضبا ودعا به ، فقال « ما منعك من القيام مع الناس حين رأيتنى ؟ » .

---

(١) العقد الفريد الجزء الثانى صفحة ١٤٦ .

قال الفرج « خفت أن يسألنى الله تعالى لم فعلت ، ويسألك عنه لم رضيت ، وقد كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم » •

فسكن غضب المنصور وقضى حوائجه •

ومن العلماء والأئمة الذين عاصروا المنصـور الامام مالك ابن أنس ، وعاش مالك طوال حياته بالمدينة ، ومن أشهر ما حدث له محنته التى حدثت له بعد خروج محمد بن عبد الله العلوى على المنصور ، ورويت فى أسباب المحنة روايات عدة منها أنه كان يجاهر بمخالفة ابن عباس فى نكاح المتعة ، وصرح بأنه حرام ، فقيل له رأى ابن عباس فقال «كلام غيره فيها أوفق لكتاب الله» وأصر على رأيه ، ومنها أنه كان يقدم عثمان على على فسعى به الطالبيون حتى ضرب ، وقيل ان سبب المحنة أنه كان يحدث بحديث(١) « ليس على مستكره طلاق » وان مروجى الفتن اتخذوا من هذا الحديث حجة لبطلان بيعة أبى جعفر المنصور ، وكانت هذه الفتوى لا تروق العباسيين لأنها تستتبع أن من بايع العباسيين وهو مكره فله أن يتحلل من بيعته ، وله أن يبايع محمد بن عبد الله الثـائر على المنصور • ويروى أنه سئل عن البغاة (٢) أيجوز قتالهم ؟ فقال « ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز » فقيل له « فان لم يكن مثله » فقال « دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ، ثم ينتقـم من كليهما » ، فكانت هذه الكلمة من أسباب محنته .

ويقال ان المنصور نهى مالكا عن التحديث بحديث « ليس على مستكره طلاق » ثم دس اليه من يسأله ، فحـدث به على رءوس الناس ، وان هذا دعا المنصور الى ضربه بالسياط ، وقيل انه لما ارتفع شأن مالك بالمدينة حسده بعض منافسيه وسعوا به عنـد

---

(١) صفحة ٥٧ من كتاب مالك حياته وعصره للأستاذ محمد أبو زهرة .
(٢) ضحى الاسلام الجزء الثانى صفحة ٢٠٧ ..

والى المدينة جعفر بن سليمان العباسى ، وقالوا له انه لا يرى ايمان بيعتكم هذه بشيء وأنه يأخذ بحديث ثابت بن الأحنف فى طلاق المكره أنه لا يجوز ، فغضب جعفر وأمر بتجريده ، ومـــده فضرب بالسياط ، ومدت يده حتى انخلعت كتفه .

والواقع أن الامام مالك لم يكن راضيا عن أسلوب الخلفــاء الذين عاصروه فى الحكم ، وكان يرى بينه وبين نفسه أنه مخالف لأصـــول الاســـلام ، ولكنه كان فى الوقت نفســـه لا يرى الانقضاض عليهم ، لأن الفتن والاضطرابات والثورات التى عرف أخبارها وشـــاهد آثارها جعلتـــه يعتقـــد أن الخـــروج على الخلفاء والثورة بالحكام غير كافيين لاصلاح الأمور وتحقيق العدالة المنشودة ، بل انهما قد ينقلانها من سيىء الى أسوأ ، ولم يقطع مالك صلته بالخلفاء والأمراء لأنه كان يرى أن من واجب العلماء أن يتولوا ارشاد الحاكمين وهدايتهم ، وان اتباع الأسلوب اللين فى وعظهم قد يؤتى ثمرته فى تقويم اعوجاجهم ، واصـــلاح أحوالهم ، وكان مالك بطبيعته ميالا الى الطاعة ، ولزوم الجماعة ، ويرى - كما يقول الأستاذ الخولى[1] - « أن فساد الخروج والقتال أكثر من الظلم القائم أو أن الخروج لا يصلح به شيء لكثير مع ما يستلزمه من الخسائر » .

والظاهر أن تحديثه بحديث « ليس على مستكره طلاق » فى وقت خروج محمد بن عبد الله هو الذى دعا الى وقوع المحنة ، فهل نزلت المحنة برأى أبى جعفر أم برأى الوالى جعفر بن سليمان من تلقاء نفسه من غير أن يعلم أبو جعفر ؟ والمعروف عن المنصور أنه كان لا يخفى عليه شيء مما يحدث فى أنحاء دولته ، ومن المحتمل أن يكون قد أراد أن يلقن مالكا درسا فى الطاعة ومعرفة الظروف المـــلائمة لاذاعة حديث المستكره والظروف غير الملائمة ، ثم رأى أن يتنصل

---

(١) مالك للأستاذ أمين الخولى صفحة ٢٩١ (سلسلة أعلام العرب) .

من تبعة ما حدث ويحملها لواليه على المدينة ، وهذا السلوك يتفق مع أخلاق أبى جعفر وسياسته برغم تقديره لمكانة مالك واجلاله له ، وأحسب أن علينا أن نذكر أن أبا جعفر السياسى الداهية المطبوع كان يرى أن لزوم الطاعة فى وقت تثبيت قواعد الدولة كان مقدما على كل شىء ، ويسبق الاعتبارات جميعها ، وقد روى لنا مالك ما يأتى « لما دخلت على أبى جعفر وقد عهد الى أن أتيه فى الموسم » قال لى « والله الذى لا اله الا هو ما أمرت بالذى كان ، ولا علمته ، انه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وانى أخالك أمانا لهم من عذاب ، ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة ، فانهم أسرع الناس الى الفتن ، وقد أمرت بعدو الله أن يؤتى به من المدينة الى العراق على قتب ، وأمرت بتضييق محبسه والاستبلاغ فى امتهانه ، ولابد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه » ، فقلت « عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه ، قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرابته منك » قال « فعفا الله عنك ووصلك » .

ويروى صاحب العقد عن مالك قوله(١) « بعث أبو جعفر المنصور الى والى بن طاوس ، فآتيناه ، فدخلنا عليه ، فاذا هو جالس على فرش قد نضدت ، وبين يديه انطاع قد بسطت ، وجلاوزة بأيديهم السيوف يضربون الأعناق ، فأومأ الينا أن اجلسا ، فجلسنا ، فأطرق عنا طويلا ، ثم رفع رأسه ، والتفت الى ابن طاوس ، فقال له « حدثنى عن أبيك » قال « نعم ، سمعت أبى يقول « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى حكمه فأدخل عليه الجور فى عدله » فأمسك ساعة ، قال مالك « فضممت ثيابى من ثيابه مخافة أن يملأنى دمه » ، ثم التفت اليه أبو جعفر فقال « عظنى يابن طاوس ، قال

---

(١) الجزء الأول من العقد الفريد صفحة ٦٤ والجزء الثانى من وفيات الأعيان صفحة ١٩٥ .

« نعم يا أمير المؤمنين . ان الله تعالى يقول « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد » قال مالك « فضممت ثيابى من ثيابه مخافة أن يملأ ثيابى من دمه ، فأمسك ساعة حتى أسود ما بيننا وبينه » ، ثم قال « ناولنى هذه الدواة » فأمسك عنه ، فقال « ما يمنعك أن تناولنيها ؟ » قال « أخشى أن تكتب بها معصية لله فأكون شريكك فيها » ، فلما سمع ذلك قال « قوما عنى » قال ابن طاوس « ذلك ما كنا نبغى » قال مالك « فما زلت أعرف لابن طاوس فضله » .

وكان كبار فقهاء المسلمين وعلماء الدين يرون أنهم ألسنة الشعب بالمطالبة بتحقيق العدالة ومراعاة السنة ، وان واجبهم الدينى يقتضيهم أن يعظوا الحاكمين ويبصروهم سبل الرشاد واتباع أحكام الشريعة السمحاء .

وكان أبو حنيفة النعمان امام أصحاب الرأى وفقيه أهل العراق أسوأ حظا مع المنصور من الامام مالك ، فقد أشخصه أبو جعفر من الكوفة الى بغداد ، والأرجح أنه استقدمه لأنه اتهم بالتشيع لابراهيم ابن عبد الله العلوى أخى محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الذكية ، وكان لأبى حنيفة ميول علوية ، ولم يكن راضيا عن سياسة الشدة والعنف التى اتبعها العباسيون ، وهم يثبتون دولتهم ، وكثير من علماء الدين فى عصره كانوا على هذا الرأى ، وأراده المنصور على أن يوليه القضاء ، فأبى ، فحلف عليه المنصور ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل ، فقال الربيع — وكان حينذاك حاجبا للمنصور ولم يتقلد الوزارة بعد — « ألا ترى أمير المؤمنين يحلف » فقال أبو حنيفة « أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر منى على كفارة أيمانى » وأبى أن يلى القضاء ، فأمر المنصور بحبسه ، ويروى أنه دعاه بعد ذلك

وقال له « أترغب عما نحن فيه ؟ » فقال « أصلح الله أمير المؤمنين ، لا أصلح للقضاء » فقال له المنصور « كذبت ». وعرض عليه مرة ثانية ، فقال أبو حنيفة « قد حكم على أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لأنه ينسبنى الى الكذب ، فان كنت كاذبا فلا أصلح ، وان كنت صادقا فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح » فرده الى السجن ، ويروى أنه قال للمنصور « اتق الله ولا ترع أمانتك الا من يخاف الله ، والله ما أنا بمأمون الرضى فكيف أكون مأمون الغضب ؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات أو أن ألى القضاء لاخترت أن أغرق ، ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك ، فلا أصلح لذلك » فقال له « كذبت ، أنت تصلح » فقال « قد حكمت على نفسك ، كيف يحل لك أن تولى قاضيا على أمانتك وهو كذاب » ، وقيل انه لما امتنع أبو حنيفة عن ولاية القضاء أجبره المنصور على أن يعمل له عملا ما وكلفه أن يعد اللبنات التى أعدت لبناء السورين لبغداد ، وقد استدل المنصور من ابائه ولاية القضاء على ما اتهم به من الميل الى ابراهيم بن عبد الله .

ولم يشتد المنصور هذه الشدة فى معاملة الامام الجليل أبى حنيفة الا لأنه كان على ثقة من تأييده لابراهيم فى خروجه عليه، وقد روى (١) أنه لقى أحد المقتولين مع ابراهيم بن عبد الله فى البصرة ، وقد ركب لينظر تركة أخيه ، فلما لقيه أبو حنيفة قال له « لو أنك قتلت مع أخيك كان خيرا لك من المكان الذى جئت منه » ، فقال له الرجل « ما منعك أنت من ذاك ؟ » فقال له أبو حنيفة « لولا ودائع كانت عندى وأشياء للناس ما استثنيت فى ذلك » كما يروى أنه كان يجهر بالكلام أيام ابراهيم جهارا شديدا فقال له أحد أصحابه « والله ما أنت بمنتهه حتى توضع الحبال فى أعناقنا » فلم يلبث أن جاءه كتاب المنصور الى عيسى بن موسى أن أحمل أبا حنيفة ،

---

(١) مالك للأستاذ الخولى صفحة ٢٨٩ ..

وكان أبو حنيفة يعد خروج ابراهيم يوما كيوم بدر ويبدو أن المنصور لم يستدعه الى بغداد الا بعد أن تبين حقيقة ميله الى مناصرة ابراهيم ، فقد(١) روى أن المنصور كتب كتابين للأعمش وأبى حنيفة على لسان ابراهيم بن عبد الله ، وبعث بهما مع من يثق به ، فقرأ الكتاب الأعمش وأطعمه الشاة ، وأما أبو حنيفة فقبل الكتاب وأجاب عنه فلم يزل فى نفس أبى جعفر منه شىء .

وقد ظل أبو حنيفة فى بغداد حتى توفى بها فى سنة خمسين ومائة .

وقد (٢) دعاه المنصور يوما ، فقال الربيع للمنصور ـ وكان الربيع يعادى أبا حنيفة ـ « يا أمير المؤمنين هذا أبو حنيفة يخالف جدك » ، كان عبد الله بن عباس يقول « اذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين جاز الاستثناء » ، وقال أبو حنيفة « لا يجوز الاستثناء الا متصلا باليمين » فقال أبو حنيفة « يا أمير المؤمنين ، ان الربيع يزعم أنه ليس لك فى رقاب جندك بيعة » .

فقال المنصور « وكيف ؟ » .

قال أبو حنيفة « يحلفون لك ثم يرجعون الى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم » .

فضحك المنصور وقال « يا ربيع لا تتعرض لأبى حنيفة » .

فلما خرج أبو حنيفة قال له الربيع « أردت أن تسيط بدمى » .

فقال له أبو حنيفة « لا ، ولكنك أردت أن تسيط بدمى فخلصتك وخلصت نفسى » .

ولما (٣) ثار الخوارج سنة ١٤٨ بنواحى الموصل بزعامة حسان

(١) الجزء الثانى من ضحى الاسلام صفحة ١٨٤ .

(٢) وفيات الأعيان الجزء الخامس صفحة ٤٤ .

(٣) أبو جعفر المنصور للدكتور عبد الجبار الجومرد صفحة ٢٩٥ .

ابن مجالد الهمدانى وعلم المنصور أن المذهب الخارجى توغل فى صفوف أهالى الموصل أراد أن ينتقم منهم فأحضر بعض الفقهـــاء وهم الامام أبو حنيفة والقاضيان ابن أبى ليلى وعبد الله بن شبرمة ، وقال لهم « ان أهل الموصل شرطوا لى أنهم لا يخرجون على ، فان فعلوا حلت دماؤهم وأموالهم وقد خرجوا فماذا ترون ؟ » .

فسكت أبو حنيفة ، وقال الآخران « انهم يا أمير المؤمنين رعيتك ، فان عفوت فأنت أهل لذلك ، وان عاقبت فبما يستحقون » .

فقال المنصور لأبى حنيفة « أراك ساكتا ! » .

فقال أبو حنيفة « انهم أباحوك مالا يملكون ، أرأيت لو أن امرأة أباحت نفسها بغير عقد نكاح وملك يمين أكان يجوز أن توطأ » .

واقتنع المنصور بوجهة نظر أبى حنيفة وأخذ بفتواه فكف عنهم ولم يمنعه سابق غضبه على أبى حنيفة من استدعائه ومشاورته والأخذ برأيه وترجيحه على رأيى رفيقيه ابن أبى ليلى وابن شبرمة .

وكان المنصور واسع الاطلاع على أشعار العرب ويتذوق الشعر الجيد ويحسن تمييز جيده من رديئه ، وكانت السياسة المالية التى اتبعها تفرض عليه أن يتحرى الاقتصاد فى الانفاق والشعراء يحبون بسطة اليد بالعطاء ، ويهجون من يضن عليهم بالجزيل من المثوبة ، ولذلك لم يكن كثير الترحيب بقدومهم عليه ، روى صاحب العقد (١) أن الربيع حاجبه قال له يوما « ان الشعراء ببابك ، وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم » .

فقال له المنصور « أخرج اليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقل لهم من مدحنى منكم فلا يصفنى بالأسد ، فانما هو كلب من الكلاب ، ولا بالحية ، فانما هى دويبة منتنة تأكل التراب ، ولا بالجبل

---

(١) العقد الفريد الجزء الأول صفحة ٣٧٠ .

فانما هو حجر أصم ، ولا بالبحر فانما هو غطامط لجب ، ومن ليس فى شعره هذا فليدخل ، ومن كان فى شعره فلينصرف ، فانصرفوا كلهم الا ابراهيم بن هرمة فانه قال له « أنا له يا ربيع » فأدخله ولما مثل بين يديه قال المنصور « قد علمت أنه لا يجيبك يا ربيع أحد غيره فأنشده القصيدة التى منها الأبيات السابق ذكرها فى الفصل الخاص ببخل المنصور وكرمه ، وكان يعنى بوجه خاص بالشعر الذى يؤيد اتجاهاته السياسية ويشيد بها ، وكان هذا باعث تقريبه لابن هرمة واغتفاره له (١) سابق مدحه عبد الواحد ابن سليمان الأموى ، ولما ظهر محمد بن عبد الله العلوى وأخفقت ثورته مدحه ابن هرمة بقصيدة يقول منها : —

غلبت على الخلافة من تمنى	ومناه المضل بها الضلول
فأهلك نفسه سفها وجبنا	ولم يقسم له منها فتيل
ووازره ذوو طمع فكانوا	غثاء السيل يجمعه السيول
وكانوا أهل طاعته فولى	وصار وراءه منهم قبيل
وهم لم يقصروا فيها بحق	على أثر المضل ولم يطيلوا
وما الناس احتبوك لها ولكن	حباك بذلك الملك الجليل
تراث محمد لكم وأنتم	أصول الحى اذ نفى الأصول

وهذا اللون من ألوان الشعر هو الذى كان يعجب المنصور ويبعثه على اثابة قائله ولما صارت اليه الخلافة (٢) كتب اليه رجل من اخوانه القدامى : —

انا بطانتك الألى	كنا نكابد ما نكابد
ونرى فنعرف بالعدا	وة والبعاد لمن تباعد

(١) الأغانى الجزء الخامس صفحة ١٧٢ .

(٢) العقد الفريد الجزء الثانى صفحة ١٦٨ .

ونبيت من شفق عليك ربيئة والليل هاجد
هذا أوان وفاء ما سبقت به منك المواعد

فوقع أبو جعفر على كل بيت منها ، « صدقت صدقت » ، ثم دعا به وألحقه بخاصته .

وكان من أكثر الشعراء اتصالا بالمنصور وأشدهم حظوة عنده الشاعر أبو دلامة زند بن الجون ، وقد أدرك أبو دلامة آخر أيام بني أمية ، ولم يكن له في أيامهم نباهة ، ونبغ في عهدي بني العباس ، وانقطع الى أبي العباس وأبي جعفر المنصور والمهدي ، فكانوا يقدمونه ويضلونه ، ويستطيبون مجالسته ونوادره ، ويقول عنه صاحب الأغاني (١) انه كان فاسد الدين ، رديء المذهب ، مرتكبا للمحارم ، مضيعا للفروض ، مجاهرا بذلك . وكان المنصور يعلم هذا منه ، فيتجافى عنه للطف محله ، وكان المنصور يجد متعة في الاستماع الى الأحاديث الطلية الشائقة ، وكان أبو دلامة يغذي فيه جانب الميل الى الفكاهة برائع نكاته ، ومستملح نوادره ، وطرائف أشعاره ، ومجونه العف ، وتلطفه في طلب النوال ، ولما توفي أبو العباس دخل أبو دلامة على المنصور والناس عنده يعزونه ، فأنشأ أبو دلامة يقول:

أمسيت بالأنبار يا ابن محمد لم تستطع عن عقرها تحويلا
ويلي عليك وويل أهلي كلهم ويلا وعولا في الحياة طويلا
فلتبكين لك النساء بعبرة وليبكين لك الرجال عويلا
مات الندى اذ مت يا ابن محمد فجعلته لك في التراب عديلا
اني سألت الناس بعدك كلهم فوجدت أسمح من سألت بخيلا
ألشقوتي أخرت بعدك للتي تدع العزيز من الرجال ذليلا
فلأحلفن يمين حق برة بالله ما أعطيت بعدك سولا

---

(١) الجزء التاسع من الأغاني صفحة ١١٥ .

فأبكى الناس قوله ، وغضب المنصور غضبا شديدا ، وقال له « لئن سمعتك تنشد هذه القصيدة لأقطعن لسانك » .

فقال له أبو دلامة « يا أمير المؤمنين ، ان أبا العباس أمير المؤمنين كان لى مكرما وهو الذى جاء بى من البدو كما جاء الله باخوة يوسف اليه فقل كما قال يوسف لاخوته « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

فسرى عن المنصور وقال له « قد أقلناك يا أبا دلامة فسل حاجتك » .

فقال « يا أمير المؤمنين قد كان أبو العباس أمر لى بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبا وهو مريض ولم أقبضها » .

فقال المنصور « ومن يعرف هذا ؟ » .

فقال « هؤلاء » وأشار الى جماعة ممن حضر ، فوثب سليمان ابن مجالد وأبو الجهم فقالا « صدق أبو دلامة ، نحن نعلم ذلك » .

فقال المنصور لأبى أيوب الخازن وهو مغيظ « يا سليمان ادفعها اليه ، وسيره الى هذا الطاغية » ، يعنى عمه عبد الله بن على حينما خرج عليه بالشام ، وأظهر الخلاف .

فوثب أبو دلامة فقال « يا أمير المؤمنين انى أعيذك بالله أن أخرج معهم ، فوالله انى لمشؤوم » .

فقال المنصور « امض فان يمنى يغلب شؤمك فاخرج » .

فقال « والله يا أمير المؤمنين ما أحب لك أن تجرب ذلك منى على مثل هذا العسكر فانى لا أدرى أيهما يغلب أيمنك أم شؤمى ، الا أنى بنفسى أوثق وأعرف وأطول تجربة » .

فقال المنصور « دعنى من هذا ، فما لك من الخروج بد » .

فقال أبو دلامة « انى أصدقك الآن ، شهدت والله تسعة عشر عسكرا كلها هزمت ، وكنت سببها ، فان شئت الآن على بصيرة أن يكون عسكرك العشرين فافعل » .

فاستغرب أبو جعفر ضحكا ، وأمره أن يتخلف مع عيسى ابن موسى بالكوفة وكان المنصور قد أمر له بدار يسكنها وكسوة ودراهم ، وكانت الدار قريبة من قصره ، فأمر بأن تزاد فى قصره بعد ذلك لحاجة دعته اليها ، فدخل عليه أبو لامة وأنشده :

يا ابن عم النبى دعوة شيخ | قد دنا هدم داره ودماره
فهو كالماخض التى اعتادها الطلق فقرت وما يقر قراره
أن تحز عسرة بكفيك يوما | فيكفيك عسره ويساره
هل يخاف الهلاك شاعر قوم | قدمت فى مديحهم أشعاره
لكم الأرض كلها فاعيروا | شيخكم ما احتوى عليه جداره
فكأن قد مضى وخلف فيكم | ما أعرتم وأقفرت منه داره

فاستعبر المنصور ، وأمر بتعويضه دارا خيرا منها ووصله .
ولما دخل عليه وأنشده قصيدته العينية التى يقول فى مطلعها .

ان الخليط أجد البين فانتجعوا | وزودوك خبالا بئس ما صنعوا

وفيها يذكر زوجته قائلا : ـ

فاخرنطمت (١) ثم قالت وهى مغضبة
أأنت تتلو كتاب الله يا لكع
قم كى تبيع لنا نخلا ومزدرعا
كما لجارتنا نخل ومزدرع

(١) اخرنطم أى رفع أنفه واستكبر وغضب .

خادع خليفتنا عنهـــا بمسألة
ان الخليفـــة للسـؤال ينخـــدع

فقال له المنصور « قد أمرنا لك بمائة (١) جريب عامر ومائة جريب غامر » .

فقال « وما الغامر يا أمير المؤمنين ؟ » .

قال « الذى لا ينبت » .

فقال أبو دلامة « انى أقطعك عشرة آلاف جريب من فيـــافى بنى أسد » .

فضحك المنصور وأمر له بالجميع عامرا .

فقال « ائذن لى فى تقبيل يدك يا أمير المؤمنين » .

فقال « **أما هذه فدعها** » .

فقال « ما منعت عيالى شيئا أسهل عليهم من هذه » .

ودخل أبو دلامة على المنصور فقال له « ولدت لى البارحة صبية ، وقد قلت فيها :

فمـــا ولدتك مريم أم عيسى   ولم يكفلك لقمـــان الحكيم
ولـــكن قد ولدت لأم ســـوء   يقـــوم بأمرها بعـــل لئيم

ثم اندفع فأنشد بعد هذين البيتين : ـ

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
قوم لقيل اقعدوا يا آل عبـــاس

---

(١) الجريب المزرعة .

ثم ارتقوا فى شعاع الشمس كلكم
الى السماء فأنتم أطهر النـــــــاس

وقدموا القــائم المنصور رأســـكم
فالعين والأنف والأذنان فى الرأس

فاسحسنها المنصور ، وقال له « بأى شيء تحب أن أعينك على قبح ابنتك هذه ؟ » .

فأخرج خريطة قد كان خاطها من الليل فقال « تملأ لى هــذه دراهم » .

فملئت دراهم فوسعت أربعة آلاف درهم .

وكان أبو جعفر قد أمر أصحابه بلبس السواد وقلانس طوال تدعم بعيدان من داخلها ، وان يعلقوا السيوف فى المناطق ويكتبوا على ظهورهم « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » فدخل عليه أبو دلامة فى هذا الزى ، فقال له أبو جعفر « ما حالك ؟ » .

قال « شر حال ، وجهى فى نصفى ، وسيفى فى استى ، وكتاب الله وراء ظهرى ، وقد صبغت بالسواد ثيابى » .

فضحك منه المنصور وأعفاه وحده من ذلك وقال له « اياك أن يسمع هذا منك أحد » ونظم أبو دلامة فى لبس القلانس هذين البيتين ،

وكنـــا نرجى من امام زيادة — فجاء بطول زاده فى القـــلانس
تراها على هام الرجال كأنهــا — دنان يهـــود جللت بالبرانس

وقد كنى أبو دلامة باسم جبل بمكة يقال له أبو دلامة كانت قريش تئد فيه البنات فى الجاهلية ، وهو بأعلى مكة .

ولما (١) مدح السيد الحميرى المنصور بقوله : —

ان الاله الذى لا شيء يشبهه ... أعطاكم الملك للدنيا وللدين
أعطاكم الله ملكا لا زوال له ... حتى يقاد اليكم صاحب الصين
وصاحب الهند مأخوذا برمته ... وصاحب الترك محبوسا على هون

سر المنصور بما أنشده ، وكان القاضى سوار حاضرا وبينه وبين السيد الحميرى خصومة ، فتربد وجهه غضبا واسود حنقا وغيظا فقال له المنصور « مالك أرابك شيء ؟ » .

قال « نعم ، هذا رجل يعطيك من لسانه ما ليس فى قلبه ، والله يا أمير المؤمنين ما صدقك ما فى نفسه ، ان الذين يواليهم غيرك » .

فقال له المنصور « مهلا ! هذا شاعرنا وولينا ، وما عرف منه الا الصدق فى المحبة والاخلاص والطاعة » .

فقال له السيد « والله يا أمير المؤمنين ما حلت عنكم لأحد وما وجدت أبوى عليه فاقتديت بهما وما زلت مشهورا بموالاتكم فى أيام عدوكم » .

فقال له المنصور « صدقت » وكان السيد الحميرى علوى النزعة ولكن لم يحدث منه ما يدعو الى الاسترابة به ، ولذلك قربه المنصور ، ولم يقبل الأخذ برأى القاضى سوار فيه ، وأراد أن يفيد من شاعريته فى توطيد أركان دولته ، فقد كان السيد الحميرى معدودا فى عصره من كبار الشعراء .

وفى سنة ١٥٠ هجرية توفى جعفر الأكبر ابن المنصور فى بغداد ، وحزن عليه المنصور حزنا شديدا ، ومشى فى جنازته من المدينة الى مقابر قريش ، ومشى الناس أجمعون معه حتى دفنه ،

---

(١) الجزء الأول من مختارات الأغانى صفحة ٢٣٥ .

ثم انصرف الى قصره ، وغلب عليه الحزن وشعر بحاجته الى سماع شعر فى الرثاء يهدىء من لوعته ويسرى عنه ، وأقبل على الربيع وقال له « يا ربيع أنظر من فى أهلى من ينشدنى :

أمن المنون وريبهـــا تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وهى قصيدة من جيد شعر الرثاء لأبى ذؤيب الهذلى — لأتسلى بها عن مصيبتى .

قال الربيع « فخرجت الى بنى هاشم وهم جميعهم حضـــور ، فسألتهم فلم يكن فيهم أحد يحفظها ، فرجعت فأخبرته » فقال المنصور « والله لمصيبتى بأهل بيتى ألا يكون فيهم أحد يحفظ هذه القصيدة لقلة رغبتهم فى الأدب أعظم وأشد من مصيبتى بابنى » .

ثم قال « انظر هل فى القواد والعوام من الجند من يعرفها فانى أحب أن أسمعها من انسان ينشدها » .

قال الربيع « فخرجت واعترضت الناس فلم أجد أحدا ينشدها الا شيخا كبيرا مؤدبا قد انصرف من موضع تأديبه ، فسألته فأنشدها ، فأوصلته الى المنصور فاستنشده اياها فأنشده القصيدة ، ومنها البيت المشهور :

واذا المنية انشبت أظفـــارها الفيت كل تميمة لا تنفـــع

وانصرف الشيخ بعد أن أعطاه المنصور صرة فى يده بها مائة درهم .

وقال (١) المنصور للربيع فى احدى حجاته وهو بالمدينة « أبغنى فتى من أهل المدينة أديبا ظريفا عالما بقديم ديارها ورسوم آثارها ، فقد بعد عهدى بديار قومى وأريد الوقوف عليها » .

---

(١) جمع الجواهر للحصرى صفحة ٧١ .

فالتمس الربيع له فتى من أعلم الناس بالمدينة ، وأعرفهم بظريف الأخبار ، وشريف الأشعار ، فعجب المنصور منه ، وكان يسايره أحسن مسايرة ، ويحاضره أزين محاضرة ، ولا يبتدئه بخطاب الا على وجه الجواب ، فاذا سأله أتى بأوضح دلالة ، فأعجب به المنصور غاية الاعجاب ، وقال للربيع « ادفع اليه عشرة آلاف درهم » وكان الفتى مملقا مضطرا ، فتشاغل عنه الربيع ، واضطرته الحاجة الى الاقتضاء ، فاجتاز مع المنصور بدار عاتكة ، فقال « يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة بنت يزيد بن معاوية الذى يقول فيه الاحوص :

يا بيت عاتـــكة التى اتعزل   حذر العدا وبه الفؤاد موكل

فقال المنصور فى نفسه « ما هاج منه ما ليس هو طبعه من أن يخبر بما يستخبر عنه ويجيب بما لم يسأل عنه ؟ » ثم أقبل يردد أبيات القصيدة فى نفسه وكانت من محفوظاته ، فلما بلغ الى آخرها ، وهو قول الأخوص :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم   مذق اللسان يقول ما لا يفعل

أدرك الباعث الذى جعل الشاب يبدأ الكلام ، فدعا بالربيع وقال له « هل دفعت للمدنى ما أمرنا له به ؟ » فقال « أخرته علة كذا يا أمير المؤمنين » .

فقال المنصور « أضعفها له وعجلها » .

وكان المنصور يعجب بالشعر الذى يلمح فيه جوانب من نفسه وسمات شخصيته ، فلما أنشـــده رجل من بنى تميم قول طريف ابن تميم العنبرى .

ان قناتى لنبــع لا يؤيســـها   غمز الثقــاف ولا دهن ولا نار

متى أجر خائفا تأمن مسارحه   وان أخف آمنا تقلق من الدار

سيروا الى وغضوا بعض أعينكم انى لكل امرىء من جاره جار
ان الأمور اذا أوردتها صدرت ان الأمور لهـا ورد واصـدار

قال له المنصور « ويحك ! ما كان طريف فيكم حيث قال هذا الشعر ؟ » .

قال « كان أثقل على عدو وطأة ، وأدركهم بثأر ، وأيمنهم نقيبة ، وأصلبهم قناة لمن رام هضمه ، وأقراهم لضيفه ، وأحوطهم من وراء جاره ، اجتمعت العرب بعكاظ فكلهم أقر له بهذه الخلال ، غير أن امرأ أراد أن يقصر به فقال له « والله ما أنت بعيـد النعجة ، ولا قاصد الرمية ، فدعاه ذلك الى أن جعل على نفسه ألا يأكل الا لحم قنص يقتنصه ، ولا ينزع كل عام عن غزوة فيها أثره » .

فقال المنصور « يا أخا تميم ، لقد أحسنت اذ وصفت صاحبك ، ولكنى أحق بأبياته منه ، أنا الذى وصف لا هو » .

وفى كتب الأدب والتاريخ أبيات ومقطعات من الشعر منسوبة الى المنصور،لا نستطيع أن نقطع بصحة نسبتها اليه ، ولكنها شبيهة به ومعبرة عن نفسيته ، واحسب أن ثقافة المنصور الأدبية ومعرفته باللغة وحفظه للكثير من جيد الشعر وتذوقه له قد لا يعجزه عن نظم أمثالها ، وموجز القول فيها أنها ليست فى المستوى العالى من الشعر ، من ذلك قوله حينما (١) استشار عيسى بن موسى فى أمر أبى مسلم فكتب اليه عيسى :

اذا كنت ذا رأى فكن ذا تدبر فان فساد الرأى أن تتعجـلا

فأجابه المنصور :

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فان فسـاد الرأى أن تترددا
ولا تمهل الأعداء يوما بغـدوة وبادرهم أن يملكوا مثلها غدا

(١) زهر الآداب الجزء الأول صفحة ٢١٣ .

ويروى أنه ارتجل حين قتل أبا مسلم قوله :

زعمت أن الــدين لا يقتضى ... فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأسا كنت تسقى بها ... أمر فى الحلق من العــلقم

وقوله فى أبى مسلم : -

قد اكتنفتك خــلات ثلاث ... جلبن عليك محــذور الحمام
خلافك وامتنــاعك ترتمينى ... وقودك للجمــاهير العظــام

ومن هذا القبيل رثاؤه لصاحبه العالم الزاهد عمرو بن عبيد

ومن الشعر المنسوب اليه قوله :

من يصحب الدهر لا يأمن تصرفه ... يوما وللدهر احــلاء وامرار
لكل شىء وان دامت ســلامته ... اذا انتهى فله لابد اقصــار

وكان المنصور خطيبا مفوها بليغ العبارة ، حسن التنسيق للكلام ، متماسك المنطق ، قوى الحجة ، حاضر البديهة ، وبراعة دفاعه فى الرسائل التى تبودلت بينه وبين محمد بن عبد الله تكشف عن قدرته فى اقامة الحجة ، وتفنيد آراء الخصم المناظر له ، وقد رأينا لما أراد وزيره أبو أيوب أن يتولى الرد على كتاب محمد ابن عبد الله وكانت الكتابة فى بادىء أمره صناعته قال له المنصور « يا سليمان ليس ذلك اليك ، اذا نحن تقارعنا على الاحساب فدعنى واياه » وقد استطاع المنصور أن يوضح نواحى الضعف والتهافت فى الحجج التى ساقها محمد لدعم موقفه ، ويبدو أن المنصور الفقيه المتمكن كان يحسن صناعة الجدل ويروى عن اسحاق بن عيسى قوله « لم يكن أحد من بنى العباس يتكلم فيبلغ حاجته على البديهة غير المنصور وأخيه العباس بن محمد وعمهما داود بن على » .

وقد خطب المنصور فى يوم جمعة(١) ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال « أيها الناس اتقوا الله » .

فقام اليه رجل فقال « أذكرك من ذكرتنا يا أمير المؤمنين » .

فقال أبو جعفر « سمعا سمعا لمن فهم عن الله وذكر به ، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه ، فتأخذنى العزة بالاثم ، لقد ضللت اذا ، وما أنا من المهتدين ، وأما أنت — والتفت الى الرجل فقال — والله ما الله أردت بها ، ولكن ليقال قام فقال فعوقب فصبر ، وأهون بها لو كانت العقوبة ، وأنا أنذركم أيها الناس أختها ، فان الموعظة علينا نزلت ، وفينا أنبتت » ثم رجع الى موضعه من الخطبة .

وللمنصور الكثير من الكلمات الجامعة الدالة على أصالة الرأى وصدق الزكانة ، فمن الكلمات المنسوبة اليه قوله « من صنع مثل ما صنع اليه فقد كافأ ، ومن أضعف كان مشكورا ، ومن شكر كان كريما ، ومن علم أن ما صنع فلنفسه صنع لم يستبطىء الناس فى شكرهم ولم يستردهم فى مودته ، ولا تلتمس من غيرك شكر ما أتيته الى نفسك ووقيت به عرضك واعلم أن الطالب اليك الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك فاكرم وجهه عن رده » .

ومن أقواله المأثورة « سرك من دمك فانظر من تملكه » وقوله « من فعل بغير تدبير وقال عن غير تقدير لم يعدم من الناس هازئا أو لاحيا »(٢) ولما استعان بالحارث بن حسان قال له « يا حارث ، انى قد مكنتك من حسن رأيى فيك ، فاحفظه بترك اغفال ما يجب عليك » فقال له الحارث « من أغفل سبب حلول النعمة ، ولها عن الحال التى أصارته اليها ، استصحب اليأس من نيل مثلها ، وانقطع رجاؤه من الزيادة فيها » .

---

(١) الجزء الرابع من العقد الفريد صفحة ٩٨ .

(٢) الجزء الأول من زهر الآداب صفحة ٣٢٢ .

فقال أبو جعفر « من كانت عنده هذه المعرفة دامت النعمة له ، وبقى الاحسان اليه » ومن أقواله فى ساعة من الساعات التى كانت تغلب على نفسه فيها العاطفة الدينية والتفكير فى زوال الأشـــياء الدنيوية (١) « عجبا لمن أصار علمه غرضا لسهام الخطايا ، وهو عارف بسرعة المنايا ، اللهم ان تقض للمسيئين صفحا فاجعلنى منهم ، وأن تهب للظالمين فسحا فلا تحرمنى ما يتطول به المولى على أخس عبيده » .

وكان المنصور يرتاح للحديث الشائق والكلمات البليغة الجامعة واذا كان الانسان لا يقدر الحكمة الا بالحكمة التى تنطوى عليهـــا نفسه فان فى اعجاب المنصور بما كان يتبينه من الحكمة فى أقوال الآخرين ما يدل على أصالة حكمته ، وذكاء فطرته ، وسلامة تفكيره ، وصحة تقديره ، قال له (٢) عمرو بن عتبة وقد أراد عقوبة رجل « يا أمير المؤمنين ، ان الانتقام عدل ، والتجاوز فضل ، والمتفضـــل قد جاوز حد المنصف ، ونحن نعيذ أمير المؤمنين أن يرضى لنفسه أوكس النصيبين دون أن يبلغ أرفع الدرجتين » .

وأمثال هذه الكلمات كانت تستل من صدره الضغينة ، وتميل به الى جانب الصفح والرفق ، وقال لاسحاق بن مسلم (٣) « أفرطت فى وفائك لبنى أمية » ، فقال له « يا أمير المؤمنين ، انه من وفى لمن لا يرجى كان لمن يرجى أوفى » وأحسب هذا الجواب كان من بواعث ثقته باسحق ابن أبى مسلم بعد ذلك .

ولما ركب ابن هبيرة بعد أن كتب له المنصور الأمان ورضيه ابن هبيرة ودخل على أبى جعفر قال له « أيها الأمير ان دولتكم هذه

---

(١) الجزء الثانى من زهر الآداب صفحة ١٠٢٥ .
(٢) الجزء الثانى من زهر العقد الفريد صفحة ١٦٤ .
(٣) الجزء الثانى من العقد الفريد صفحة ١٣٠ .

جديدة فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها لتسرع محبتكم الى قلوبهم ، ويعذب ذكركم على ألسنتهم » .

فأمر أبو جعفر برفع الستر بينه وبينه ونظر الى وجهه وباسطه بالقول حتى اطمأن قلبه ، فلما خرج قال أبو جعفر لأصحابه « عجبا لمن يأمرني بقتل مثل هذا » وقد قتل ابن هبيرة غدرا بعد ذلك ، ولكن أبا جعفر كان معارضا فى قتله ، وانما أخذ أبو العباس أخوه برأى أبى مسلم الخراسانى .

وذكر عند المنصور محمد بن اسحاق كاتب السيرة النبوية وعيسى ابن دأب فقال « أما ابن اسحق فاعلم الناس بالسيرة وأما ابن دأب فاذا أخرجته عن داحس والغبراء لم يحسن شيئا » .

وكما كان يعجب المنصور بالشعر الرصين والكلمات الحكيمة كان يروقه كذلك استماع الأخبار التى يتبين فيها أدلة الوفاء وحسن التقدير(١) ، قال أبو دفافة العبسى «حدثت المنصور بحديث العجلان بن سهل ، وكان دخل على عبد العزيز بن القعقاع ، فبينما هو جالس اذ دخل رجل متلطخ الثوب بالطين ، فقال له عبد العزيز « مالك » قال « ركب هذا الأحول – يعنى هشام بن عبد الملك – فنفرت ناقتى فسقطت » فانتزع العجلان سيفه فنفحه به ، ووثب الرجل ، فأخطأت السيف ووقع فى وسادة فقطعها ، وقال « يا لكع أعياك أن تسميه بأمير المؤمنين وباسمه الذى سماه به أبوه أو بكنيته ونظرت الى الذى يعاب به وسميته به ! أما والله لوددت أن السيف أخذ منك مأخذه » .

قال أبو دفافة « وكان المنصور يستعيدنى هذا الخبر ، ويقول « كيف صنع العجلان بن سهل ؟ مع مثله يطيب الملك » .

---

(١) المحاسن والمساوىء جزء أول صفحة ٨٧ .

مرض المنصور ووفاته فى الطريق الى مكة

عاش المنصور حياة كلها جهد ناصب وكفاح متصل ، ولقى فيها الكثير من الأحداث العارمة ، والثورات الدامية ، سواء قبل تقلده الخلافة أو بعد أن حمل أمانتها وراض مشكلاتها ، وكان بناء الدولة ورد كيد الكائدين والمنافسين والعصاة والمخالفين يستلزم اليقظة الدائمة والأهبة الكاملة ، ولم يعرف المنصور الراحة والاستقرار ، وينعم بهما الا فى فترات قليلة محدودة ، وهذا اللون من ألوان الحياة من شأنه أن ينهك الجسم ويستنفد الحيوية ، وألهم كما قال المتنبى يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبى ويهرمه ، فغير عجيب أن ينوء جسم المنصور تحت تلك الأعباء الثقال التى أبت له همته الا أن تحمله اياها ، وفى النصف الثانى من خلافته بدأت تظهر آثار الجهود التى يبذلها واكبابه المتواصل على العمل فى الآلام التى كانت تنتاب معدته وتجعله لا يستمرىء الطعام ، وعجز أطباء بغداد عن علاجه وتهدئة آلامه ، فاستقدم من نيسابور جورجيس بن بختيشوع ، ونجح جورجيس فى ابرائه من علته ، أو تهدئة الآلام التى كانت تنغص عليه حياته ، وتقض مضجعه وظل الى جانبه يشرف على علاجه ، ويوصيه بتناول الأطعمة سهلة الهضم ، والترفق بجسمه وتوفير أسباب الراحة لنفسه والترفيه عن خاطره ، ولكن طبيعة الحياة التى كان يحياها المنصور وما يستلزمه الاشراف على أمور الدولة فى الأوقات العصيبة التى عاش بها لم تيسر له ذلك ، وكان من نتيجة ذلك أن عاوده المرض وعجز طبيبه عن شفائه ، وتلطيف

حدة الآلام التى كانت تنتابه ، فاستقدم طبيبا هنديا لمعالجته ، فقال له كما قال ابن بختيشوع وغيره من المتطببين بضرورة تعاطى الأطعمة الخفيفة واراحة نفسه من عناء الأسفار ، وفرط الانهماك فى أعمال الدولة ، واتخذ له سفوفا جوارشنا يابسا فيه الأفاويه والأدوية الحارة ، فكان يأخذه فيهضم طعامه فأحمده ، وأوصاه بأن لا يفرط فى استعماله لأنه يضر بالمعدة ويحدث مضاعفات غير مأمونة العاقبة ، ولكنه لم يستطع الامساك عنه لما كان يجده من راحة فى تناوله ، وكان رأى متطببى العراق أن أبا جعفر لا يموت الا بالبطن لأن الجوارش يعين على هضم الطعام ولكنه يؤثر تأثيرا سيئا فى المعدة والمصارين .

وقال بعض أطبائه ان سبب المرض حر أصابه لكثرة ركوبه فى الهواجر حتى غلب عليه المرار الأحمر فهاض معدته ، واتفق فى أواخر سنة ١٥٦ هجرية أن خرج المنصور من بغداد مشيعا لابنه المهدى ، وامتطى برذونا ، وحدث أن جفل البرذون تحته فسقط المنصور من فوقه وشج وجهه وسالت الدماء على لحيته ، فعاد أدراجه الى بغداد ، وزاده هذا الحادث ضعفا على ضعف ، ووهنت صحته ، وأخذت تتراءى له أشباح الموت وصور الفناء ، قيل انه سمع هاتفا يهتف به فى قصره :

أما ورب السكون والحرك ... ان المنايا كثيرة الشرك
عليك يا نفس ان أسأت وان ... أحسنت بالقصد كان ذاك لك
ما اختلف الليل والنهار ولا ... دارت نجوم السماء فى الفلك
ألا بنقل السلطان من ملك ... اذا انتهى ملكه الى ملك
حتى يصيرا به الى ملك ... ما عز سلطانه بمشترك
ذاك بديع السماء والأرض والمرسى الجبال المسخر الفلك

فقال « هذا أوان أجلى » .

وروى أن أحد خاصته «عبد العزيز بن مسلم» قال «دخلت على المنصور يوما أسلم عليه ، فاذا هو باهت لا يحير جوابا ، فوثبت لما أرى منه أريد الانصراف عنه » ، فقال لى « انى رأيت فيما يرى النائم كأن رجلا ينشدنى هذه الأبيات :

أأخى خفض من منـــاكا فـــكأن يومك قـد أتاكا
ولقـــد أراك الدهر من تصريفـــه ما قـــد أراكا
فاذا أردت النـــاقص العبـــد الذليـــل فأنت ذاكا
ملـــكت ما مملـــكت والأمر فيـــه الى ســـواكا

فهذا الذى ترى من قلقى وغمى لما سـمعت ورأيت ، فقلت « خيرا يا أمير المؤمنين » .

وخرجت من عنده .

وروى الربيع وزير المنصور أن المنصور وهو فى قصره ببغداد انتبه ذات ليلة من النوم مرعوبا . ثم عاوده النوم قليلا ، فانتبـــه ثانية فزعا مرعوبا ، ثم مرة ثالثة ، فلما انتفض فيها نادى الربيع ، فقال له « لبيك يا أمير المؤمنين » قال « رأيت فى منامى عجبا .. رأيت كأن آتيا أتانى فهينم بشىء لم أفهمه فانتبهت فزعا ، ثم عاودت النوم ، فعاودنى يقول ذلك الشىء ، ثم عاودنى يقول حتى فهمته وحفظته وهو : —

كأنى بهذا القصر قد باد أهله وعرى منه أهـــله ومنـــازله
وصار رئيس القوم من بعد بهجة الى جدث تبنى عليه جنـــادله

وما أحسبنى يا ربيع الا حانت وفاتى ، وحضر أجلى ، وما لى غير ربى ، قم فاجعل لى غسلا » . ففعل الربيع ، وقام المنصور فاغتسل وصلى ركعتين ، وقال « أنا عازم على الحج ، فهيىء لى آلة الحج » — ففعل الربيع على ما أراد .

وكان المهدى حينذاك بمدينة الرقة ، فأرسل اليه المنصور يدعوه الى بغداد ، ولما حضر قال له المنصور « أريد أن أبادر الى حرم ربى وأمنه » ، وكان المنصور يقول « ولدت فى ذى الحجة ووليت الخلافة فى ذى الحجة وأحسب المنية تكون فى ذى الحجة » وكان برغم اعتلال صحته وتكاثر الهواجس عليه يتجلد ويتماسك ، ويتكلف الابتسام ، ويتظاهر بالهدوء ، حتى لا تشيع الشائعات وتذاع أقاويل السوء التى يتسقطها المرجفون ، والناقمون والساخطون ، وهم كثيرون من خصومه وأعداء دولته .

ولما شخص المنصور متوجها الى مكة فى شوال وقد نزل قصر عبدويه وأقام به أياما والمهدى معه يوصيه ويقدم له النصائح ، انقض فى مقامه هناك كوكب لثلاث بقين من شوال بعد اضاءة الفجر فبقى أثره بينا الى طلوع الشمس ، وكان فى كل يوم من الأيام التى قضاها فى قصر عبدويه يوصى المهدى بالمال والسلطان ويحذره العواقب ، فلما كان اليوم الذى عقد فيه العزم على الارتحال قال له « انى لم أدع شيئا الا وقد تقدمت اليك فيه ، وسأوصيك بخصال والله ما أظنك تفعل واحدة منها » ، وكان له سفط فيه دفاتر علمه ، وعليه قفل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحد ويحتفظ بمفتاحه فى كم قميصه ، فقال للمهدى « انظر الى هذا السفط فاحتفظ به ، فان فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة ، فان أحزنك أمر فانظر فى الدفتر الأكبر ، فان أصبت فيه ما تريد ، والا فالثانى والثالث حتى بلغ سبعة ، فان ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فانك واجد فيها ما تريد وما أظنك تفعل » .

واذا صحت هذه الرواية فربما كانت هذه الكراريس لون من ألوان المذكرات السياسية التى يضمنها بعض السياسيين تجارب حياتهم وآراءهم فى سياسة الدولة وطريقتهم فى معالجة المشكلات.

ومضى المنصور ينصح ولى عهده قائلا « انظر الى هذه المدينة ،

فاياك أن تستبدل بها ، فانها بيتك وعزك ، قد جمعت لك فيها من الأموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات ، وعطاء الذرية ، ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها ، فانك لا تزال عزيزا ما دام بيت الملك عامرا ، وما أظنك تفعل .

وأوصيك بأهل بيتك ، أن تظهر كرامتهم ، وتقدمهم ، وتكثر الاحسان اليهم ، وتعظمهم وتوطئ الناس أعقابهم ، وتوليهم المنابر ، فان عزك عزهم ، وذكرهم لك ، وما أظنك تفعل ؟ .

وانظر مواليك فأحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم فانهم مادتك ان نزلت بك شدة ، وما أظنك تفعل .

وأوصيك بأهل خراسان خيرا ، فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم فى أهله وولده ، وما أظنك تفعل .

واياك أن تبنى المدينة الشرقية ــ الرصافة ــ فانك لا تتم بناءها وما أظنك تفعل .

واياك أن تدخل النساء فى مشورتك وفى أمرك وأظنك ستفعل »

وفى وصية أخرى قال للمهدى « يا أبا عبد الله ، انى سائر وانى غير راجع فانا لله وانا اليه راجعون ، فاسأل الله بركته ما أقدم عليه، هذا كتاب وصيتى مختوما ، فاذا بلغك انى قد مت وصار الأمر اليك فانظر فيه ، وعلى دين فأحب أن تقضيه وتضمنه ، فانه ثلاثمائة ألف درهم ونيف ، ولست أستحلها من بيت مال المسلمين، فأضعنها عنى ، وما يفضى اليك من الأمر أعظم منها » فقال المهدى « أفعل هو على دين » .

وقال المنصور « وهذا القصر ليس هو لك هو لى وقصرى بنيته بمالى ، فأحب أن تصير نصيبك منه لأخوتك الأصاغر » فقال المهدى « نعم » .

قال المنصور « ورقيقى الخاصة هم لك ، فاجعلهم لهم ، فانك تصير الى ما يغنيك عنهم وبهم الى ذلك أعظم الحاجة » ، فقال المهدى « افعل » .

وقال المنصور « أما الضياع فلست أكلفك فيها هـــذا ، ولو فعلت كان أحب الى » فقال المهدى « افعل » .

فقال المنصور « سلم اليهم ما سألتك من هذا ، وأنت معهم فى الضياع ، والمتاع والثياب سلمه لهم » .

قال المهدى « افعل » .

قال المنصور « أحسن الله عليك الخلافة ، ولك الصنع ، فاتق الله فيما خولك وفيما خلفتك عليه » .

وذكر عن اسحاق بن عيسى بن على عن أبيه قال « سمعت المنصور وهو متوجه الى مكة سنة ١٥٨ وهو يقول للمهدى عند وداعه « انى ولدت فى ذى الحجة وقد هجس فى نفسى انى أموت فى ذى الحجة من هذه السنة ، وانما حدانى على الحج ذلك ، فاتق الله فيما أعهد اليك من أمور المسلمين بعدى يجعل لك فيما يكربك ويحزنك مخرجا ، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب ، احفظ يا بنى محمدا صلى الله عليه وسلم فى أمته يحفظ الله عليك أمورك ، واياك والدم الحرام فانه حوب عند الله عظيم ، وعار فى الدنيا لازم مقيم ، والزم الحلال فان فيه ثوابك فى الآجل وصلاحك فى العاجل ، وأقم الحدود ولا تعتـــد فيها فتبور ، فان الله لو علم أن شيئا أصلح لدينه وأزجر عن معاصيه من الحدود لأمر به فى كتابه ، وأعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه

أنه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الأرض فسادا ، مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم فقال « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا .. الآية » فالسلطان يا بنى حبل الله المتين ، وعروته الوثقى ، ودين الله القيم ، فاحفظه وحصنه ، وذب عنه ، وأوقع بالملحدين فيه ، وأقمع المارقين منه ، وأقتل الخارجين عنه بالعقاب ، ولا تجاوز ما أمر الله به فى محكم القرآن ، وأحكم بالعدل ولا تشتط فان ذلك أقطع للشغب ، وأحسم للعدو ، وانجع فى الدواء ، وعف عن الفيىء فليس بك اليه حاجة مع ما خلفه الله لك ، وافتتح عملك بصلة الرحم وبر القرابة ، واياك والاثرة والتبذير لأموال الرعية ، واشحن الثغور ، واضبط الأطراف ، وأمن السبل ، وسكن العامة ، وأدخل المرافق عليهم وأصرف المكاره عنهم ، وأعد الأموال وأخزنها ، واياك والتبذير فان النوائب غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ، وهى من شيم الزمان ، وأعد الرجال والكراع والجند ما استطعت ، واياك وتأخير عمل اليوم الى غد فتتدارك عليك الأمور وتضيع ، وجد فى أحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولا فأولا ، واجتهد وشمر فيها ، وأعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وباشر الأمور بنفسك ، ولا تضجر ولا تكسل ولا تفشل ، واستعمل حسن الظن بربك ، وأسىء الظن بعمالك وكتابك ، وخذ نفسك بالتيقظ ، وتفقد من يبيت على بابك ، وسهل أذنك للناس ، وانظر فى أمر النزاع اليك ، ووكل بهم عينا غير نائمة ، ونفسا غير لاهية ، ولا تنم فان أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ، ولا دخل عينه غمض الا وقلبه مستيقظ ، هذه وصيتى اليك ، والله خليفتى عليك » .

ثم ودعه وبكى كل واحد منهما الى صاحبه ، وعاد المهدى الى بغداد ، وسار المنصور الى الكوفة .

وذكر عمر بن شبة عن سعيد بن هريم قال « لما حج المنصور فى السنة التى توفى فيها شيعه المهدى فقال له « يا بنى انى قد جمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلى ، وجمعت لك من الموالى ما لم يجمعه خليفة قبلى ، وبنيت لك مدينة لم يكن فى الاسلام مثلها ، ولست أخاف عليك الا أحد رجلين ، عيسى بن موسى وعيسى بن زيد ، فأما عيسى بن موسى فقد أعطانى من العهود والمواثيق ما قبلته ، ووالله لو لم يكن الا أن يقول قولا لما خفته عليك ، فأخرجه من قلبك ، وأما عيسى بن زيد فأنفق هذه الأموال وأقتل هؤلاء الموالى ، وأهدم هـذه المدينة حتى تظفـر به ثم لا ألومك » .

ولما غادر الكوفة فى طريقه الى مكة اشتد به المرض ، ورأى رؤيا فزع منها وقال للربيع « ما أحسبنى الا ميتا فى وجهى هذا ، وانك تؤكد البيعة لأبى عبد الله المهدى » فقال له الربيع « بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين ، ويبلغ المهدى محبتك فى حياتك ان شاء الله » وثقل عند ذلك وهو يقول للربيع « بادر بى الى حرم ربى وأمنه هاربا من ذنوبى واسرافى على نفسى » .

ولما دخل المنصور آخر منزل نزله من طريق مكة نظر فى صدر البيت الذى نزل فيه فاذا فيه مكتوب « بسم الله الرحمن الرحيم :

أبا جعفـر حانت وفاتك وانقضت
سـنوك وأمر الله لابد واقـع

أبا جعفر هـل كاهن أو منجـم
لك اليـوم من حـر المنية مانع

فأمر باستدعاء المتولى اصلاح المنازل ، فقال له « ألم آمرك أن لا يدخل المنزل أحد من الدعارة ؟ » فقال « يا أمير المؤمنين والله ما دخلها أحد منذ فرغ منها » فقال المنصور « اقرأ ما فى صدر البيت مكتوبا » فقال « ما أرى شيئا يا أمير المؤمنين » .

فدعا المنصور برئيس الحجبة فقال « اقرأ ما على صدر البيت مكتوبا » .

فقال « ما أرى على صدر البيت شيئا » .

فأملى المنصور البيتين ، وأمر بأن يقرأ له شيء من القرآن ، فقرأ له الحاجب « بسم الله الرحمن الرحيم ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » فأمر المنصور بكفيه فوجئا ، وقال « أما وجدت شيئا تقرؤه غير هذه الآية » فقال « يا أمير المؤمنين محى القرآن من قلبى غير هذه الآية » .

فأمر المنصور بالرحيل عن ذلك المنزل تطيرا مما كان ، ولما كان بالوادى الذى يقال له سقر ، وكان آخر منزل بطريق كبابه الفرس فدق ظهره ، وكان هذا الحادث بما عجل بموته ، وروى اليعقوبى (١) أنه لما حضرته الوفاة قال لمواليه « أنى كنت رأيت فى المنام قبل أن يفضى هذا الأمر الينا كأنا فى المسجد الحرام ، اذ خرج النبى من البيت ومعه لواء ، فقال « أين عبد الله فقمت أنا وأخى وعمى فسبقنا أخى ، يعنى أبا العباس ، فأخذ اللواء ، فخطا به خطوات أحصيها فأعدها ثم سقط وسقط منه اللواء من يده فأخذه رسول الله ثم رجع الى موضعه ، فقال أين عبد الله فقمت أنا وعمى فزحمته فألقيته وتقدمت فأخذت اللواء فخطوت به خطوات أحصيها وأعدها ثم سقطت وسقط اللواء من يدى وقد انقضت تلك الخطا ، وأنا ميت فى يومى » .

ويمكن أن نستخلص من مجموع هذه الروايات التى لا تخلو بطبيعة الحال من المبالغة والتزيد مدى الاضطراب النفسى الذى كان يعانيه المنصور فى أيامه الأخيرة من معقبات آلام المعدة والأمعاء ، وامعانه فى التفكير فيما عسى أن يصيب دولته من التصدع واختلاط

---

(١) الجزء الثالث من تاريخ اليعقوبى صفحة ١٢٢ .

الأمور حينما ترفع يده القابضة على أزمتها والمسيرة لدفتها فى البحر اللجى الممتلىء بالأعاصير والأنواء والصخور .

ولما وصل الركب بئر ميمون ، قال له الربيع « يا أمير المؤمنين ، ها قد وصلنا وقد دخلنا الحرم » فقال المنصور « الحمد لله ، فهل لك أن توصلنى الكعبة ؟ » ولحظ الربيع اشتداد العلة بالمنصور وانه قد اقترب من النهاية ، فأمر بالنزول ، ولما أقبل الليل ازدادت حالته سوءا ومع السحر ذهبت روحه الى بارئها ، وكان ذلك فى فجر يوم فى السادس من شهر ذى الحجة سنة ١٥٨ ، وكان آخر ما صدر عنه من الكلمات قوله « اللهم ان كنت تعلم انى قد ارتكبت الأمور العظام جرأة منى عليك فانك تعلم أنى قد أطعتك فى أحب الأشياء اليك ، شهادة أن لا اله الا أنت ، منا منك لا منا عليك » .

ولم يحضر المنصور عند وفاته الا خدمة والربيع وزيره ، وكتم الربيع خبر موته ، ومنع من البكاء عليه ، ثم أصبح فحضر أهل بيته كما كانوا يحضرون ، وجلسوا مجالسهم ، وكان أول من دعا الربيع عمه عيسى بن على ، فدخل عليه ومكث بجانبه ساعة ، ثم أذن لابن أخيه عيسى بن موسى ، ثم أذن للأكابر ذوى الأسنان منهم ، ثم لعامتهم ، فكانوا يدخلون ثم يعودون الى السرادق ، وخرج الربيع بن يونس وفى يده قرطاس ، فألقى أسفله على الأرض وتناول طرفه ثم بدأ بقراءة العهد الذى أعده المنصور حينما شعر بدنو أجله « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المنصور أمير المؤمنين الى من خلف بعده من بنى هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين » ثم ألقى القرطاس من يده وبكى ، وبكي الناس ، وقال الربيع « قد أمكنكم البكاء ، ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين لابد من أن نقرأه عليكم فانصتوا رحمكم الله » فسكت الناس ، ثم رجع الى القراءة « أما بعد فانى كتبت كتابى هذا وأنا حى فى آخر يوم من الدنيا ، وأول يوم من الآخرة ، وأنا أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله أن لا يفتنكم بعدى ، ولا يلبسكم شيعا ،

ولا يذيق بعضكم بأس بعض ، يا بنى هاشم ويا أهل خراسان » ثم أخذ فى وصيتهم بالمهدى واذكارهم البيعة له ، وحضهم على القيام بدولته والوفاء بعهده الى آخر الكتاب .

ثم نظر فى وجوه الناس ، فدنا من الهاشميين فتناول يد الحسن بن زيد العلوى فقال « قم يا أبا محمد فبايع » فقام معه الحسن ، فانتهى به الربيع الى موسى بن المهدى ، فأجلسه بين يديه ، فتناول الحسن يد موسى ، ثم التفت الى الناس فقال « يا أيها الناس ، ان أمير المؤمنين المنصور كان ضربنى ، واصطفى مالى ، فكلمه المهدى ، فرضى عنى ، وكلمه فى رد مالى على ، فأبى ذلك . فأخلفه المهدى من ماله وأضعفه مكان كل علق علقين ، فمن أولى بأن يبايع لأمير المؤمنين بصدر منشرح ، ونفس طيبة ، وقلب ناصح منى ؟ » ثم جاء الربيع الى محمد بن عون الهاشمى فقدمه للسن ، وبايع الناس .

فلما فرغ دخل المضارب فمكث هنيهة ، ثم خرج الى الهاشميين فقال « انهضوا » فنهضوا جميعا ، وكانوا جماعة من أهل العراق وأهل مكة والمدينة ممن حضر الحج ، فلما دخلوا وجدوا المنصور على سريره فى أكفانه مكشوف الوجه ، وحمل جثمان المنصور حتى مكة ، وصلى عليه ، وحمل النعش الى المقبرة ، وجعل رأسه مكشوفا لأجل احرامه ، وحفروا مائة قبر ليغموا على الناس ، ودفن فى غيرها ، ونزل فى قبره عيسى بن على وعيسى بن محمد والعباس ابن محمد والربيع والريان ويقطين من مواليه .

ولما دفن وقف الربيع على قبره فقال(1) « رحمك الله يا أمير المؤمنين وغفر لك ، فقد كان لك حمى من العقل لا يطير به الجهل ، وكنت ترى باطن الأمر بمرآة من الرأى ، كما ترى

---

(1) الجزء الأول من زهر الآداب صفحة ١٨٠ .

ظاهرة » ثم التفت الى يحيى بن محمد أخى المنصور فقال ، هذا كما قال أبو دهبل الجمحى :

عقم النساء فما يلدن شبيهه ان النسـاء بمثـله عقـم

ورثاه سلم الخاسر بقصيدته التى يقول فيها : ـ

عجبـا للذى نعى الناعيـان كيف فاهت بموته الشـفتان
ملك ان عـدا على الدهر يوما أصبح الدهر ساقطا للجران
ليت كفـا جثت عليه ترابا لم تعـد فى يمينها ببنـان
حين دانت له البـلاد على العسـف وأغضى من خوفه الثقـلان
أين رب الزوراء قد قلدته المـلك عشرون حجـة واثنتان
انما المـرء كالـزناد اذا ما أخـذته قوادح النـيران
ليس يثنى هواه زجر ولا يقـدح فى حبـله ذوو الأذهان
قلـدته أعنـة الملك حتى قاد أعـداءه بغير عنـان
يكسر الطرف دونه وترى الأيـدى من خـوفه على الأذقان
ضم أطراف ملكه ثم أضحى خلف أقصاهم ودون الدانى
هاشمى التشمير لا يحمل الثقـل على غارب الشرود الهدان
ذو أناة يشى لها الخائف الخسـوف وعزم يلوى بكل جنـان
ذهبت دونه النفوس حـذارا غـير أن الأرواح فى الأبدان

ورثاه آخر بقوله :

قفـل الحجيج وخلفوا ابن محمـد
رهنـا بمكة فى الضريح الملحـد

شـهدوا المناسك كلهـا وأمامهم
تحت الصفائح محرما لم يشـهد

وكان صالح بن المنصور حاضرا مع موسى بن المهدى ، فأنفذا اليه خبر وفاة المنصور مع منارة مولى أبى جعفر ووصيته ، فسار منارة اثنى عشر يوما الى بغداد والمهـــدى بها ، فأحضر القواد والهاشميين فبايعوا .

وقرأ المهدى وصية أبى جعفر ، وكانت نسختها(١) « بسم الله الرحمن الرحيم » ، « هذا ما عهد عبد الله أمير المؤمنين الى المهدى محمد ابن أمير المؤمنين ولى عهد المسلمين حين أسند وصيته اليه بعده ، واستخلفه على الرعية من المسلمين وأهل الذمة ، وحرم الله وخزائنه وأرضه التى يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ان أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله فى البلاد ، والعمل بطاعته فى العباد ، ويحذرك الحسرة والندامة ، والفضيحة فى القيامة ، قبل حلول الموت وعاقبة الفوت حين تقول « رب لولا أخرتنى الى أجل قريب » هيهات أين منك المهل ، وقد انقضى عنك الأجل ، وتقول رب ارجعنى لعلى أعمل صالحا ، فحينئذ ينقطع عنك أهلك ويحل بك عملك ، فترى ما قدمته يداك ، وسعت فيه قدماك ، ونطق به لسانك ، واستركبت عليه جوارحك ولحظت له عينك ، وانطوى عليه غيبك ، فتجزى عليه الجزاء الأوفى ، ان شرا فشرا ، وان خيرا فخيرا ، فلتكن تقوى الله من شأنك ، وطاعته من بالك ، استعن بالله على دينك ، وتقرب به الى ربك ، ونفسك فخذ منها ولا تجعلها للهوى ، وكن لعمل الشر قامعا . فليس أحد أكثر وزرا ، ولا أعز اثما ، ولا أعظم مصيبة ولا أجل رزية منك لتكاثف ذنوبك وتضاعف أعمالك ، اذ قلدك الله الرعية تحكم فيهم بمثل الذرة فيقتضون منك أجمعون وتكافأ على أفعـــال ولاتك من الظالمين ، فان الله يقول « انك ميت وانهم ميتون ، ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » فكأنى بك وقد أوقفت

(١) الجزء الثالث من اليعقوبى صفحة ١٢٥ .

بين يدى الجبار ، وخذلك الأنصار ، وأسلمك الأعوان ، وطوقت الخطايا ، وقرنت بك الذنوب ، وحل بك الوجل ، وقعـد بك الفشل ، وكلت حجتك ، وقلت حيلتك ، وأخذت منك الحقوق ، واقتاد منك المخلوق ، فى يوم شديد هوله ، عظيم كربه « تشخص فيه الأبصار لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » فما عسيت أن يكون حالك يومئذ اذا خاصمك الخالق واستفضى عليك الحق ، اذ لا خاصة تنجيك ، ولا قرابة تحميك ، تطلب فيه التباعة ولا تقبل فيه الشفاعة ، ويعمل فيه بالعدل ، ويقضى فيه بالفصل ، قال الله « لا ظلم اليـــوم ان الله سريع الحساب » فعليك بالتشمير لدينك ، والاجتهاد لنفسك ، فافكك عنقك ، وبادر يومك ، وأحذر غدك ، واتق دنياك فانها دنيا غدارة موبقة ، ولتصدق الله نيتك ، وتعظم اليه فاقتك ، وليتســع انصافك ، وينبسط عدلك ، ويؤمن ظلمك ، وواس بين الرعية فى الاحتكام ، واطلب بجهدك رضا الرحمن وأهل الدين فليكونوا أعضادك ، واعط حظ المسلمين من أموالهم ، ووفر لهم فيأهم ، وتابع اعطياتهم عليهم ، وعجل بنفعاتهم اليهم ، سنة سنة وشهرا شهرا ، وعليك بعمارة البلاد بتخفيف الخراج ، واستصلح الناس بالسيرة الحسنة والسياسة الجميلة ، وليكن أهم أمورك اليك تحفظ أطرافك ، وسد ثغورك ، واكماش بعوثك ، وارغب الى الله عز وجل فى الجهاد والمحاماة عن دينه ، واهلاك عدوه ، بما يفتح الله على المسلمين ، ويمكن لهم فى الدين ، وابذل فى ذلك مهجتك ، ونجدتك ومالك ، وتفقد جيوشك ليلك ونهارك ، واعرف مراكز خيلك ، ومواطن رحلك ، وبالله فلتكن عصمتك ، وحولك وقوتك ، وعليه فلتكن ثقتك واقتدارك وتوكالك ، فانه يكفيك ويغنيــك وينصرك وكفى به مؤيدا ونصيرا » .

وقدم الربيع فى مستهل المحرم ومعـه مفاتيح الخـزائن ، فجلس المهدى للناس فى النصف من الحرم وأمر الربيع فأحضر

دفتر القبوض ، ووجه الى كل من كان أبو جعفر قبض شيئا من ماله فأحضره وأقبل عليهم فقال « ان أمير المؤمنين المنصور كان بما حمله الله من أموركم وقلده من رعايتكم يدبر عليكم كما يدبر الوالد البر على ولده ، وكان أنظر لكم منكم لأنفسكم ، وكان يحفظ عليكم ما لا تحفظون ، على أنفسكم ، فحرس لكم من أموالكم ما لم يأمن ذهابه ، وهـــذه أموالكم مبارك لكم فيها ، فحللوا أمير المؤمنين من أبطالها عنكم » .

ثم أمر باخراج من فى المحابس من الطالبيين وغيرهم من سائر الناس فأطلقهم ، وأمر لهم بجوائز وصـــلات ، ولم يطلق أحدا الا كساه ، ووصله على قدره ، حتى بلغ الى عبد الله بن مروان ابن محمد وكان فى الحبس من أيام أبى العباس فأمر بتخلية سبيله وأعطاه عشرة آلاف درهم .

وقال عبد الله بن الربيع الحارثى لما فعل المهدى ما فعل من رد الأموال واطلاق المحبسين وأمن الخائفين وصلات المعدومين ، « سمعت المنصور يقول للمهدى لما ودعه عند خروجه الى مكة « انى تركت الناس ثلاثة أصناف ، فقيرا لا يرجو الا غناك ، وخائفا لا يرجو الا أمنك ومسجونا لا يرجو الفرج الا منك ، فاذا وليت فأذقهم طعم الرفاهية ، ولا تمدد لهم كل المد » .

ودخل أبو دلامة زند بن الجون الشاعر الذى كان يســلى المنصور بنكاته البارعة وفكاهاته المستملحة ، وأشعاره البليغة ، فألقى بين يديه الأبيات الآتية راثيا ومهنئا : —

عينـــاى واحـــــدة ترى مسرورة
بامامها جـذلى وأخـــرى تذرف

تبكى وتضـــــحك مرة ويسـوؤها
ما أبصرت ويسرها ما تعــــرف

فيسوؤها موت الخليفـــة محرما

ويسرها ان قام هـــذا الأرأف

ما ان رأيت ولا سمعت كما أرى

شـــعرا أرجـــله وآخـــر أنتف

هلك الخليفـــة يا لأمة أحمـــد

فأتاكم من بعـــــده من يخلف

أهدى لهـــذا الله فضـــل خلافة

ولذاك جنـــات النعيم تزخـرف

فابكوا لمصرع خـــيركم ووليـــكم

واستشرفوا لمقـــام ذا وتشرفوا

وهكذا كانت خاتمة حياة هذا الباقعة الداهية ، موطد أساس الدولة العباسية والذى جمع بين ما أسماه هيجل العاطفة الباردة، والعقل المدبر ، والتفكير المنظم ، ووضع الخطط المدروسة ، ويؤكد هيجل أن كل الأعمال العظيمة التى تمت فى تاريخ البشرية كان للعاطفة الفضل الأكبر فى انجازها ، ولكنه يسمى هذه العـــاطفة الخلاقة العاطفة الباردة ، لأن العاطفة المتحمسة المهتاجة قليلة الفائدة سريعة الخمود ، وكل انسان يمكن أن تشتعل حماسته ، وتتوقد عاطفته ، ولكن ليس من السهل المحافظة على دوام تلك العاطفة الحارة والابقاء عليها ، وهى سرعان ما تنطفىء اذا لفحتها رياح الحوادث ، وعصفت بها عواصفها ، وكان المنصور يجمع بين العاطفة الباردة المستمرة والارادة الحديدية المصممة ، والعاطفة الزائفة الضعيفة تتراجع مولية أمام الفكر الفاحص المنقب لأنها تخشى على كيانها ، وتعرف أنها ستتلاشى أمامه ، ومن ثم فان دليل وجود العاطفة الباردة هو أنها تقبل النقد دون أن تفقـــد قوتها وتذهب حدتها ، ولذلك كان المنصور يستشير العارفين المجربين ،

ويناقش الخبراء العارفين ، وهو مطمئن النفس ، منشرح الصدر ، وكانت سعة آفاقه الفكرية وتجاربه الدنيوية تجعله لا يضيق ذرعا بالآراء المخالفة لآرائه ، بل تحمله على أن يوازن بين آرائه وآراء غيره فى نزاهة وموضوعية نادرتين تجعلانه مثلا شرودا بين الحكام الأوتوقراطيين الذين يجمعون فى أيديهم السلطات جميعها ، ولقد حاول بالنصائح التى زود بها ابنه المهدى أن يقدم له خلاصة تجربته ، وثمرة مشاهداته ومعرفته ، لتكون له دستورا يسترشد به فى حل المشكلات ، ويستضىء بنوره فى الأمور المدلهمات ، وكان يقدر تبعته فى اختياره له وليا للعهد ، وتمهيد السبيل له ليكون خليفة للمسلمين وسائسا لدولتهم ، فى ابان مجدهم وقوتهم ، ولا أحسبنى مسرفا فى القول اذا قلت ان اسم أبى جعفر المنصور جدير بأن يوضع الى جانب أسماء أعظم الحاكمين والملوك والقياصرة والأباطرة الذين عرفهم التاريخ ، وكان يسهر على رعاية مصلحة أمته وشعبه ، اذا اكتحلت العيون بالكرى ، ويعرض عن طيبات الحياة ومتعها فى سبيل تأكيد العدالة فى دولته، وضمان السلامة من الأخطار المفاجئة والخطوب العارضة ، جزاه الله خيرا عن الكثير من مزاياه وحسناته ، وغفر له القليل من هناته وسيئاته .

المراجع

تاريخ الأمم والملوك	لابن جرير الطبرى
الكامل فى التاريخ	لابن الأثير
مروج الذهب	للمسعودى
تاريخ اليعقوبى	لليعقوبى
الأغانى	لأبى الفرج الأصفهانى
العقد الفريد	لابن عبد ربه
الفخرى فى الآداب السلطانية	لابن الطقطقى
عيون الأخبار	لابن قتيبة
الامامة والسياسة	لابن قتيبة
البيان والتبيين	للجاحظ
وفيات الأعيان	لابن خلكان
زهر الآداب	للحصرى
جمع الجواهر	للحصرى
المقدمة	لابن خلدون
تاريخ التمدن الاسلامى	لجرجى زيدان
تاريخ الخلفاء	للسيوطى
الملل والنحل	للشهرستانى
معجم الأدباء	لياقوت الحموى

أعلام الناس	للأتليدى
تاريخ الدولة العباسية	لمحمد الخضرى
المحاسن والمساوىء	للبيهقى
أبو جعفر المنصور	لعبد السلام رستم
أبو جعفر المنصور	لمحمد صبيح
أبو مسلم الخراسانى	لمحمد صبيح
داهية العرب أبو جعفر المنصور	للدكتور عبد الجبار الجومرد
صقر قريش	لعلى أدهم
الامبراطورية البيزنطية	لنورمان بينز تعريب دكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد
السيرة النبوية	لابن هشام
كتاب الوزراء والكتاب	للجهشيارى
ضحى الاسلام	للدكتور أحمد أمين
تاريخ الاسلام السياسى	للدكتور حسن ابراهيم
مالك	لأبى زهرة
مالك	لأمين الخولى

فهرس

صفحة